الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العقيد الحاج لخضر – باتنة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

النزعة الزهدية في الشعر المغربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي المغربي القديم

من إعداد الطالبة:
ليلى قجوج

تحت إشراف الدكتور:
"معمر حجيج"

لجنة المناقشة:

محمد زغينة	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا
معمر حجيج	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	مقررا
محمد زرمان	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
محمد منصوري	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
علي عاليه	أستاذ محاضر	جامعة بسكرة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:

1426-1427 هـ - 2005-2006م

مقـــــدمة:

إن أصعب الأمور بداياتها لأنها تكون مشوبة بنوع من التردد والخوف، حيــث تتــشتت الأفكار وتهرب الجمل والكلمات، لكن ميلي الشديد وشــغفي بــالأدب الروحــي ذاك الجــوهر الأصيل في تراث الإسلام، وفكره ونهضته وتاريخه، والذي غذى مشاعر الأمة الإسلامية على إمتداد العصور بكل قيم الإسلام وفكر الإنسان ، وتلك الرغبة القوية لــلأدب المغربــي الــذي صاغه القرآن الكريم صياغة حضارية جديدة ، ثم عمقته بعض النزاعات ومنها النزعة الزهدية دلالة وفنا وحضارة ، وحينما أدركت ذلك بدأت رحلتي مع الأدب المغربي وتأكد اللقــاء مــع الزهد، فكان محاولة للكشف عن هذه الأبعاد في العمق الذي أحدثه النص الزهدي ، ومن ثم فإن محاور البحث لن تكون إلا كشفا عن هذه التجربة الروحية التي تمثل التاريخ الحقيقي للمغرب.

إضافة إلى رغبتي في دراسة مثل هذه الظواهر الفنية لكون الشعر الزهــدي لــه أبعــاد نفسية روحية، فهذه الأشعار قليلة التداول وتنعدم فيها الدراسات الجامعية المتخصصة والمعمقة، وهذا ما أغراني وأمدني بالجرأة في البحث على الجانب الروحي كظاهرة ملفتة في أشعارهم.

– كما أن الرغبة الملحة دفعتني إلى التعرف على هذه الظاهرة بأرض المغرب العربي لأقــف على بوابة هذا الأدب الذي إغترب في موطنه مما ولد غربة لدى بعض البــاحثين فــي هــذا الجنس، وعدم الإعتراف به إعتقادا منهم بعدم وجوده أصلا.

إن هذا الموضوع يكتسي أهمية كبرى تكمن في محاولة الإطلاع عليه، وما يمثله من قيم جمالية فنية ، وظروب الفكر الجديد في المغرب وما يكشفه عن معاناة حقيقية وأصالة وعمق مغــربيين ، ومدى تواصل الإنسان بواقعه المعيشي وتكيفه مع زمنه حينما يتأمل الكون والحيــاة ويرخــي لشاعريته زمانا، وبخاصة حينما تنطلق هذه الأشعار من الذات موحية بالألم والعــذاب راســمة بطريقة إيحائية أو بواسطة كلمات مشعة ظلال ورؤى هؤلاء الشعراء بحس وجداني يلفه الحزن ويسوقه العذاب ، ويقود الكل الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وبمصير الإنسان في هذه الفانية.

ولقد آثرت تحديدا للموضوع قصر هذا البحث على الشعر دون النثر، وجعــل أواخــر القــرن الثالث الهجري نهاية للفترة التي يتناولها البحث.

وأردت بهذا العمل لإخراجه إلى الوجود ليكون شاهدا على أصحابه وزادا لطلاب الحقيقة ومتعة لرواد الفن ، وتكوين مدونة لهؤلاء الزهاد، وفي هذه الفترة للإطلاع على ما في شــعرهم مــن رفعة وجلال تخلص من معاني النقص والترابية ، والتطلع إلى معارج النور والتوسل بالحكمــة والمعرفة ، بأن الشاعر الزهدي عالمه وسداه ولحمته العواطف النبيلة.

وقد اعتمدت خطة منهجية، فقسمت البحث إلى ثلاثة فصول بالإضافة إلى مقدمة وفصل تمهيدي وأخرا خاتمة، فتحدثت في الفصل التمهيدي عن المفهوم والمصطلح للنزعة الزهدية وتاريخ شعرية الزهد من حيث نصوصها وأشكالها وموضوعاتها ورجالها، وربط ذلك كله بمفهوم البعد الروحي لثقافية المغرب، كشفت في الفصل الأول عن مصادر المدونة ومكوناتها النصية، فتنوعت بذلك المصادر التي إستقيت منها المادة الشعرية المكونة، والتي تعتبر اللبنة الأساسية للبحث بين مغربية ومشرقية ، أشرت فيها إلى مدى إسهامات المكتبة المغربية والمشرقية على السواء في التعريف بشعر المنطقة ثم انتقلت في الفصل نفسه إلى طبيعة مكوناتها النصية الخليلية ، ويدرس الفصل الثاني موضوعات شعرية الزهد ومضامينها وبنيتها الفكرية ورؤيتها لكون شعرية الزهد ذاكرة للتقاليد الفنية القديمة والمستحدثة وللهوية الدينية ، ويتناول الفصل الثالث الخصائص الفنية لشعرية الزهد وبخاصة صورتها الوجدانية ولغتها الرقيقة الحدسية، وموسيقاها المتلونة بالمشاعر والأحاسيس ، أما الخاتمة قد كانت حوصلة لأهم النتائج التي توصلت إليها.

وحينما عزمت بعون الله ظهرت في الأفق صعوبات جمة، وكأي باحث يحاول التاريخ لفترة من فترات تاريخ المغرب الإسلامين وخصوصا إذا كانت تلك بداياتها الأولى ، لأنها من أغمض وأصعب فتراتها وذلك يتطلب عملا جديا هادفا، والسبب في ذلك يرجع إما إلى عدم وجود المصادر أو وجودها مع فقرها الواضح للنصوص الكاملة، ولذلك تكبدت العناء الكبير أثناء إستقاء المادة الشعرية من مضانها، وقد بنيت البحث على كتب الأدب والطبقات أما ما أغلق من مسائل كانت المراجع مفاتيحا لها.

وفي ختام هذا أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذي الفاضل الدكتور: معمر حجيج، والذي لم يدخر جهدا لإسداء النصح وتقديم توجيهاته القيمة، كما أنه لم يبخل علي ما بحوزته من مادة شعرية والتي لها علاقة بالبحث، فكان نعم المعين.

نسأل الله العون والسداد وصالح الأعمال، وأن ينفعنا بما نتعلم وأن يجنبنا الخطأ الظاهر والخفين فهو نعمة المولى ونعم النصير.

تمهيد

يقف الإنسان في لحظة من لحظات الكدر أو الصفاء متأملا ملكوت الله فيتــراءى لـــه الوجود على أنه ذكرى عابرة، حيث تتوالى فيه الأحداث، وهي تتصارع وفجأة تزول وتختفي في لمح البصر، وكل مخلوق يلهث وراء سعادته ، وبعد غفلته تلك وصحوته يجد فكره متجـــه ومشرئب إلى العالم الآخر، فينتابه الجزع وأهوال القبر فيسارع إلى التوبة والندم على ما فات، فيرجو ويأمل رحمة الله ونيل رضاه بما أعده الله للمتقين، بينما نجد آخرين فـــي نفـــس حالتـــه يهرعون إلى الاستمتاع والحصول على زخرف الحياة قبل أن تدركهم الشيخوخة ثم الفناء، وبين هذا وذاك تختصر الحياة في نهجين : نهج اللهو والمجون ونهج الزهد والتقشف، وفي الحـــالتين يسعى الإنسان إلى التنفيس عن محنته باختياره التعبير بأنساق فنية دلالية رمزية تتكشف لـــه من خلالها الحقيقة "منارة هدى لا تموت بموته ولا يقف نورها عن حـــدود المكـــان والزمـــان، وكيف يدعها تتلاشى هباء، والكلمة عنده سلاح يقهر الفناء.

إنه ينبري للكلمة يجسد فيها نظراته حكمة باقية ما بقيت أصولها راسخة في أرض الواقع التي تشرب منه ماء الديمومة، وما بقيت نار الكلمة تشعل بوقد الأدب، وتتوهج بوهج الفن"[1].

وإذا كان التعبير الشعري عن الزهد من الاتجاهات الوجدانية التي تقوم علـــى التبـــصير بحقيقة الحياة عامة، واستخلاص العبرة بنهج فني خاص فإن الشاعر الزاهد في بثه للمتلقي هذه العبر الدالة على الزهد يركز خاصة على اختيار موضوعات منها تـــصويره لتقلبـــات الـــزمن وغدره والتذكير بالموت واستحضار صورة القبور لأخذ العظات وتجاوز صـــورتها المفجعـــة بمد أواصر الألفة معها من خلال النزعة الزهدية؛ ونصل الآن إلى الكشف عن سياقها المعرفي من حيث دلالتها اللغوية والفكرية، و جذورها التاريخية.

---

[1]-ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل, بيروت، لبنان، ط3، 1980، ص114-115.

أولا ــ السياق المعرفي:

1- الدلالة اللغوية والاصطلاحية:

ولنبدأ بكلمة النزعة وسنأخذ مقتطفات من معجم متن اللغة، "نزعه نزعا من مكانه، قلعه وجذبه من مقره "وهو الأصل في المعنى" فهو منزوع ونزيع ... ونزع نزعا ونزوعا عن الأمر: انتهى وكف – وأباه إلى أبيه في الشبه: أشبه ... وتنزع: تسرع ورأيت فلا منتزعا إلى كذا أي متسرعا إليه وللصيد سهما: رماه به، وبالشعر تمثل ... نازعه غالبه فغلبه والنزوع الكثير النزوع والحنين إلى الأوطان"[2].

ونازعت النفس إلى الأمر نزاعا ونزعت إليه إذ اشتهته، نزع حول الشيء عن موضعه وأزاله ونازعني هواها نزاعا: غالبتني.

أما اصطلاحا: فنزع يعني: رغبة أو ميل نحو عمل إرادي، عند ليبنتز مبدأ باطن في الموناد يحدث تغييرا وانتقالا من إدراك إلى آخر، وعند سبينوزا: الرغبة الواعية التي تسوق الإنسان إلى العمل[3].

ويبدو من هذا المنظور بأنها شعور يتغلب على النفس فيسرع في التشكل وتتمثل به، ويكون هذا الشعور عن ميل ورغبة واعية، وهي أيضا ظاهرة أدبية في العصر الحديث مقابل الاتجاه،أوالمذهب (doctrine of systeme) الذي هو عبارة عن: " معتقد ديني أو فلسفي أو سياسي يسلم به المرء، ويوفق بين تصرفه في الحياة ومضمونه ما يعلم به هذا المعتقد ... [و] فنيا: آراء وتقنيات يعتمدها الفنان أو الأديب في تحقيق آثاره ويقرب هنا معنى الكلمة من مدلول المدرسة"[4].

أما لفظ الزهد في اللغة فله دلالات متعددة ومختلفة تتقارب أو تتباعد بحسب الاستعمال وبحسب الإطلاق، وتركيباته التعبيرية تعني عدم الرغبة بحيث " يقال زهد في الشيء إذا لم يرغب فيه، رغب عنه، وموضوعه الدنيا، فالزهد ضد الرغبة، والحرص على الدنيا، وتارة تعني الإعراض عنه وتركه لاحتقاره أو لتحرجه من أو لقلته وزهيد الأكل قليله. وتارة أخرى:

---

[2]–أحمد رضا، .معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ط، 1960، ص 436–438–439.

[3]–يوسف خياط، معجم المصطلحات العلمية والفنية عربي – إنجليزي– لاتيني، لسان العرب بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص664.

[4]–جبور عبد النور،المعجم الأدبي, دار العلم للملايين, بيروت, ط1, 1979, ص245–247.

أزهد الرجل إزهادا إذا كان مزهد لا يرغب في ماله لقلته وهذا الانصراف انصراف عن وجه من أوجه الدنيا وهو الزهد في المال" [5].

ويلاحظ بأن أغلب المعاني الواردة تدل على الانصراف عن لذائذ الحياة، ومتعها وعدم الركون إليها، وتحقيرها والإقبال على العبادة، وهذا هو المدلول اللغوي للكلمة باعتبار الزهد نزعة روحية[6].

وجاء في المعجم الصوفي أن أصل حروف كلمة زهد: "الزاء والهاء والدال تدل على قلة الشيء"[7].

ويفرق الجرجاني بين معناه اللغوي والاصطلاحي فيقول عنها بأنه: " .. في اللغة: ترك الميل إلى الشيء، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة، وقيل هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك"[8]، ويعرف الغزالي الزهد بأنه: "عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه [و] يستدعي [ذلك] مرغوبا عنه ومرغوبا فيه، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه"[9]، ويعرفه شقران بن علي الفرضي[10] لأبي عثمان سعيد بن عباس الخياط فيقول له : ".. اعلم أن الزاهد في الدنيا قوته في الدنيا ما وجد، ومسكنه حيث أدرك، ولباسه ما ستر والخلوة مجلسه والقرآن حديثه والله العزيز الجبار أنيسه، والذكر رفيقه والزهد قرينه، والصمت جنته والخوف محجته، والشوق مطيته، والنصيحة نهمته، والاعتبار فكرته، والصبر وسادته، والتراب فراشه، والصديقون كسبه، والجوع أدامه، والله عونه"[11].

---

[5]–ينظر ابن منظور, لسان العرب, دار صادر، بيروت، ط3، 1994، مج3، ص 196–198، والزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد العزيز مطر، مطبعة حكومة الكويت، 1970، مج2 .ص 50.

[6]–spiritualisme: تعاليم مثالية عن الأصل الروحي للعالم فعند بعض أصحاب النزعة الروحية، العالم المادي هو وسط لتجلي الله وقدرته على حين أنه في نظر البعض الآخر وهم اخترعه الوعي الإنساني، ويذهب دعاة النزعة الروحية إلى أن النفس توجد مستقلة عن الجسد.
مصطلح يستخدمه بعض الفلاسفة للإشارة إلى المثالية–ينظر: وضع لجنة من الأكاديميين السوفيات ترجمة سميع كرم، الموسوعة الفلسفية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط4، 1981–ص524.

[7]–سعاد الحكم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1981، ص 552.

[8]–أبو الحسن علي بن محمد الشريف،التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، ص67.

[9]–الغزالي, إحياء علوم الدين, دار الفكر, طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافية, 1975, ج5, ص208.

[10]–قال أبو العرب في الطبقات: كان أبو علي رجلا صالحا ضرير البدن والبصر وكان يقال أنه يستجاب له، وكان مؤاخيا للبهلول وعالما بالفرائض، وله فيها كتاب لم نجده عند علمائنا عن شقران وغيره، روى عنه سحنون وعون بن يوسف وكان سنه نحو سن البهلول، ينظر المالكي رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1994، ج1، ص312.

[11]– الغزالي, إحياء علوم الدين، المصدر السابق، ص315.

وأما الزاهد فيعرفه الكفوي بأنه " المعرض عن متاع الدنيا وملذاتها،والعابد هو المواظب للعبادة مثل: قيام وصيام النهار، والعارف هو المستغرق في معرفة الله ومحبته"[12].

لقد رصدنا مجموعة من التعريفات، وهي تتجه كلها إلى المعنى الديني للزهد وهو العدول عن الدنيا، والإعراض عنها بحيث يخلو القلب من ذكر ما هو دنيوي باعتبار أنها ليست في متناول اليد، وهنا قد توجه نظرة إلى الظاهر الباطن معا (اليد والقلب)؛ ومن ثمة فهو ميل النفس على شيء تتوق إليه، وأن تصد عن شيء ترغب فيه ،وهو أخذ القليل مما يسد الرمق والتفرغ لعبادة الله والتوكل عليه.

كما صنفوا الزهد بحسب المراتب العابد ثم الزاهد ثم العارف، وبالإمكان اعتبار الزاهد عابد وليس العكس صحيحا.

وإذا كان الزهد "تقشف ونهج خلقي يقضي بالعزم على فعل الخير بقطع النظر عن اللذة والألم وتحقيق الغرائز الطبيعية"[13]فإن التجربة الشعرية من التجارب التي تنحو إلى كل ما هو روحاني[14]، وتصد عن غيره لأن بدايتها حيرة وآلام ونهايتها آمال ويقين، والتوتر بين الاثنين يختصره الزهد بكونه "اعتناق نهج ديني يفضي بتقبل الألم والسعي إليه في سبيل التكفير عن الذنوب أو قهر الغرائز." [15]

2 – وجهات تشكل المفهوم الإسلامي للزهد :

أ ــ وجهة مفهوم الزهد في القرآن والسنة:

ما دام الزهد هو طهارة النفس وانصراف عن الدنيا والإقبال عن العبادة، وهي ظاهرة دينية برزت بوضوح في الحياة الدينية والاجتماعية بعد الفتنة الكبرى حيث أراد الزهاد في عزلتهم البحث عن الصفاء الروحي،وإذا كان هذا هو مفهومه بصفة عامة فكيف ورد في الإسلام؟

---

[12]–أبو البقاء بن موسى الحسيني، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أعده للطبع عدنان درويش محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط1، 1992، ص 490.

[13]–جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 137.

[14]–الروحانية: "روحانية كل شيء حظه من صلته ما وراء الطبيعة، ومما يقوي هذه الروحانية بالنسبة للأفراد قيامها على المجهود الشخصي لا على التعاليم المعلومة والحدود الموسومة، عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى آخر القرن 3 هـ، مطبعة الرسالة، مصر، د.ط، 1955، ص9.

[15]–جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 137.

إن القرآن لم يذكر الزهد ولا الزاهدين، ولم ترد هذه الكلمة إلا في موضع واحد "وشروه بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين"[16]؛أي اشتروه على زهد فيه.

ويقول الإمام الغزالي: "معناه باعوه، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض، فإذا كل من باع الدنيا بالآخرة، فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا، فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا"[17].

إن الكلمة هنا لا تحمل أي دلالة روحية أو أي معنى لمفهوم الزهد Astisme، باعتبار أن: "الزهد في القرآن لم يشكل ترغيبا من حيث أنه لم يرد نص قرآني يحبب الله للزهاد، كما ورد في التوابين والمتطهرين وغير ذلك"[18].

وإذا كان للفظتي الذكر والتوكل رنين واضح في القرآن فإن لفظة الزهد تبدو فيه خافته، فلم ترد مادته قوية واضحة، ومع هذا فإن "آيات كثيرة حثت على التقلل من الدنيا وإيثار الآخرة، وامتلأت السنة القولية، بالأحاديث التي دعت المؤمنين إلى الزهد في الدنيا"[19].

ويبدو أن الشريعة قد اكتفت بما في العبادات من تكاليف فلم تشأ أن تثقل على الناس مثلا بصوم غير الصوم المفروض وإن كان مفهوما أن في زيادة ممارسته تطهيرا وتنقية ... أما حياة النبي فهي نموذج للتطبيق العملي لروح الإسلام ولا يتوقع أن يقلد الناس جميعا النبي كما لا يمنع أن يتخذه بعض الناس أسوة ومثالا"[20]،وفي هذا السياق يقول الله تعالى: "اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر..." [21]،ويقول عز وجل: "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة"[22]. ويقول أيضا: "الهكم التكاثر حتى زرتم المقابر"[23].

---

[16]–الآية، 26 سورة يوسف.

[17]–الغزالي، ج5، ص108.

[18]–سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص553.

[19]–علي أحمد مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول, مشكلاتها وأساليبها ومواقفها (132 هـ– 232 هـ), دار العاصمة للنشر والتوزيع, ط1, 1414هـ, ج1، ص151.

[20]–إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف بمصر، 1969، ص67.

[21]–آية 20 من سورة الحديد.

[22]–أية 14 من سورة آل عمران.

[23]–سورة التكاثر.

إن دعوة الإسلام للزهد لم تأت في آيات صريحة ومع ذلك ففي ثناياها تدعونا إلى أن لا نرتمي في أحضان الملذات، فكانت بذلك هذه الآيات: "بيان لحقيقة الدنيا، وأنها حطام فان ومتاع زائل. كما توضح ما عند الله من النعيم والثواب، فهي تتضمن دعوة إلى الزهد في الدنيا والانشغال بالآخرة، ولقد سار القرآن على هذه الوتيرة، فقلل من شأن الدنيا، إن تطغى وجعلها مجالا لعمل الطاعات وسبيلا إلى الفوز والنجاة"[24].

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس"[25].

ويوضح لنا هذا الحديث أن الزهد في الدنيا طريق إلى الله وحبه، والعفة والعزة طريق لمحبة الناس فمن أحب الدنيا أبغضه الله والناس لأنها مفتاح كل شر وطلب الكفاية من الدنيا واجب، والزهد ترك الزائد منها) [26].

وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق ....يجدي أسك ميت[27]. فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال "أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا شيء وما نصنع به ؟ ثم قال: أتحبون أنه لكم ؟ قالو: والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك. فكيف وهو ميت !! فقال: فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم"[28].

ونلمح من هذه الأحاديث: "التحذير الشديد من الافتتان بالدنيا والتنافس فيها لأن عاقبة ذلك الهلاك، وهذا ما يخشاه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته، إن هم انصرفوا إليه كما جاءت الأحاديث آمرة بالزهد مبينة فضله وثمرته وهي محبة الله تعالى ومحبة الناس"[29].

والإسلام قد "وضع حدود بين الإفراط والتفريط ونظرا لما يعلمه الله من أن بعض البشر لهم استعدادات خاصة، فقد جعل الفرائض، واجبا على الجميع وترك النفل والتطوع للنفوس التي تريد الترقي والسمو، وتقدر على ممارسة أنواع الرياضات التعبدية"[30].

---

[24]–علي مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول, مشكلاتها وأساليبها ومواقفها (132 هـ– 232 هـ), ص152.

[25]–يحي بن شرف الدين النووي، شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1982، ط2، ص105–107.

[26]–المرجع نفسه، ص107.

[27]–صغر الأذن ولزوقها بالرأس وهو أسك وهي سكاء، الصغير الأذن.

[28]– أحمد مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول, مشكلاتها وأساليبها ومواقفها (132 هـ– 232 هـ), ص153–154.

[29]–المرجع نفسه، ص 153–154.

والإسلام يدعو المؤمن أن يأخذ نصيبه من الدنيا كما لا ينسى نصيبه من الآخرة وخلاصة القول أن الزهد هو الحرص على ترك كل ما يشغل عن ذكر الله، وقد يكون معناه الواسع أوسع من الورع، وقد يأتي بمعنى التقشف التام، وتخلية القلب من ذكر ما هو دنيوي، وقد تأتي بمعنى أوسع من القناعة التي هي كبح جماح النفس وشهواتها.

ب ـ وجهة مفهوم الزهد في الفكر السلفي:

وقد جاء عن السلف عدة تعريفات ذهب بعضها إلى مظهر أو نوع من أنواع الزهد والاختلاف فيما بينها إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

(فقد سئل مالك بن أنس عن الزهد ؟ فقال هو التقوى، وكان الفضيل بن عياض يقول: الزهد في الدنيا هو القناعة، ويأتي بشير بن الحارث فيعرف الزهد في الدنيا: هو الزهد في الناس ولربما أجمع ما قيل في الورع والزهد قول ابن القيم الجوزية رحمة الله عليه: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الزهد هو ترك ما لا ينفع في الآخرة والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة" وبهذا يكون الزهد أوسع من الورع. وعرف بعض السلف فقال: الزهد في الدنيا: هو الزهد في الجوف وما يدخله من الطعام والشراب[31].

أما سفيان الثوري: "ليس الزهد بأكل الغليظ ولا بلبس العباء، ولكنه قصر الأمل وارتقاب الموت"[32].قصرا الأمل وارتقاب الموت يشمل كل أنواع الزهد من حب للمال والجاه، وكل ما يدخل في الجوف من طعام وشراب، وحب للباس والمسكن وكل ذلك من الشهوات، وقصر الأمل يقطع كل لذة وينسى كل شهوة فتكثر أعماله دون أن ينسى الموت، ويكون بذلك قطع أواصل الود مع الدنيا بعدم الطمع فيها ولا في ملذاتها، وبالتالي يتفرغ لعبادة الله ويستعد للموت التي هي الحقيقة الوحيدة الواضحة والأكيدة) [33].

وقال عبد الخالق المتعبد[34]: يا أخي أقصر نفسك عن شهواتها، ولا تمكنها من هواها، فترديك فإنها لا تشبع ولا تقنع ولا ترضى منك إلا بهلاكك، إن أطعتها، ولتعلم يا أخي أن الفقر مع الدين خير من الغنى مع الفجور، وارض من الدنيا باليسير، فإن القليل منها يجزي ولا

---

[30]–إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، ص 67.

[31]–الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الفكر، طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية، 1975، ج5، ص158.

[32]–القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص56.

[33]–ينظر علي أحمد مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، مشكلاتها وأساليبها ومواقفها، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ط1–1414هـ– ج1–ص158.

[34]–رياض بالقباب، قال أبو العرب: كان من طبقة المجتهدين في العبادة، ومن أصحاب البهلول، وكان راغبا في الآخرة، كثير الخوف، دائم الحزن، كثير المعروف، قليل الهيبة للملوك، الرياض، ج1، ص324.

تشغل بحبها ولا بطلبها عن الآخرة التي لا غنى لك عنها، ولا بدلك منها، واعلم أنه ليس أحد ينظر لك إلا أن تنظر أنت لنفسك، فاعمل لها قبل أن يحال بينك وبين العمل واغتنم بقية عمرك وصحة بدنك، واتعب نفسك في الدنيا تجد ذلك وأنت أحوج ما تكون إليه حين يندم طالب الدنيا الذي يستعرض لها ولم يدرك منها إلا ما قسم له وضيع آخرته حتى قدم ولم يقدم لنفسه شيئا فلا دنيا بقيت ولا الآخرة حصلت"[35].

فهو يتحدث عن جمح النفس عن شهواتها وتطهيرها بعدم تمكينها منها والقناعة بالقليل تهذيبا للنفس وإتاحة الفرصة للتعبد والتأمل والانصراف عن الدنيا والدعوة إلى ذلك والتزود للآخرة بالعمل الصالح.

ثانيا ـ السياق التاريخي لنزعة الزهد في الفكر الإنساني والإسلامي:

و ننتقل إلى تاريخ نشأة الزهد، وهنا تصادفنا قضيتان الأولى في تاريخ ظهور معناه، والثانية في تاريخ ظهور مصطلحه وما يدل عليه من علم وفكر وسلوك تعبدي.

أ ـ في التاريخ الإنساني :

يبدو أن نشأته ترجع إلى بداية " شك الإنسان في قيمة الحقائق الإنسانية، يوم رأى لكل قوة ضعف، وكل وفاء إلى غدر، وكل حياة إلى موت، وكل شروق إلى غروب، لا تسألوا متى اهتدى الإنسان إلى قيمته الذاتية، ويكفي أن تتذكرو أن البيئات العربية عرفت كثيرا من الأنبياء الذين آثروا الزهد والفرار من اللذات"[36].

ومن هذا المنظور التاريخي الإنساني فإن الزهد بحسب الروايات وجد منذ القدم عند الأمم القديمة، كقدماء المصريين والهنود...فقد استعمل "في تاريخ الرهبانية المسيحية أو في تاريخ العديد من النساك الهنود المنتمين إلى مختلف الأديان، وهي تعني الاجتناب الاختياري للملاذ العادية والابتعاد عن الحياة الاجتماعية، وخصوصا الزواج عند المسيحيين وتجنب الأشياء التي تعلق بالنفس وتعيق تقدمها الروحي، ولكن هذا الاصطلاح لا يعني الزهد بمنتهى الدقة بل يعني كبح جماح النفس وتطهيرها، والبساطة التي ترفض كل أبهة وترف، وتحاول بمحض اختيارها المحافظة على أسلوب في العيش بسيط وبدائي ومنكر للذات"[37].

---

[35]-المصدر نفسه، ص 329-330.

[36]-زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، 1-2، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص5.

[37]-صابر طعمة، الصوفية معتقدا ومسلكا، دار عالم الكتب والنشر والتوزيع، ط2، 1985، ص54.

وعلى هذا الأساس قد يحل الزهد " محل النسك المرادف له في النصوص القديمة ويدل بوضوح على معنى أوسع من القناعة ... بل أوسع من الورع أيضا، واتسعت فكرة الزهد من عهد الحسن البصري إلى عهد الدارين، ثم استقر بين القرنين الثاني والثالث فأضحى الترك مقتصر على اللباس والمسكن والطعام الشهي بل يشمل أيضا النكاح ثم نشأت فكرة محاسبة النفس التي توسع فيها (المحاسبي والملامتية) فأصبح التعويل على زهد النفس بترك الأغراض والشهوات مما يؤدي إلى فكرة التوكل"[38]،وهذا تاريخ يخص الأمم الشرقية القديمة.

ب ـ في التاريخ الإسلامي :

أما تاريخ الزهد في الإسلام فقد نشأ من خلال معاني القرآن وحياة الرسول ذلك أن عائشة سئلت عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت "كان خلقه الإسلام" وأول جماعة مارست الزهد هي جماعة أهل الصفة حتى أن السهوردي يعدهم أقدم مثال للأربطة والزوايا"[39].

ـ أسباب وعوامل ظهوره:

هناك جملة من الأسباب أدت إلى ظهور وانتشار هذا النمط الديني، الذي يسلكه الأفراد منذ وقت مبكر في الإسلام منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أخذت حركته في الاتساع بمرور الزمن بما وجد من عوامل متباينة ،ومن هذه الأسباب نذكر الآتي:

1-إعجابهم بالسلوك العملي للرسول صلى الله عليه وسلم وحياة زهد الصحابة والتابعين الذين استوطنوا الشمال الإفريقي منذ الفتح الإسلامي للمغرب من مثل" عقبة بن نافع الفهري، وأبي ذر الغفاري، وعبد الله بن الزبير وغيرهم كثير ... ولا شك أن سيرة بعض هؤلاء الصحابة والتابعين قد انتشرت بين الناس في مجالسهم يتداولونها في إعجاب يدعو إلى التأسيس بما كانوا يفعلون"[40].

2-تمكين الدين الإسلامي من قلوب البعض، ودعوته إلى الزهد دون الابتعاد عن الناس ومشاغلهم، لكن جولد تسهير يذهب إلى أن خوف العامة هو الذي عجل بظهور الزهد وسيطرة

---

[38]-أحمد الشناوي، إبراهيم زكي خور رشيد عبد الحميد يونس، دار المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، مج10، ص451-452.

[39]-بسيوني، نشأة التصوف، ص67.

[40]-عبد العزيز نبوي، الشعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص91.

نزعته في القرن الأول، ونسى رجاء العامة الثواب والنعيم، وخوف الأوساط من القطيعة والكدورة في صفاء المعرفة إذ "ارتبطت بالمبالغة في الشعور بالخطيئة والرعب الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة"[41]، وقد بنى صاحب هذا التفسير على بعض "التصورات الآخروية التي عرضها القرآن، فقد احتشدت السور المكية فيه بآيات الوعيد التي تجسم في الشعور بالصور المتنوعة للنكال من سرابيل من قطران ومقامع من حديد والماء كالمهل وطعام من ضريع، وشوب من حميم، وفي آيات أخرى قرن الخوف بالإيمان كقوله **(فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)** [42]. وقوله **(ولمن خاف مقام ربه جنتان)**[43]... ولئن كان في بعض آيات القرآن وعيد ونذير فليست آيات القرآن كلها كذلك فإن هناك صورة مقابلة يشع في النفس الاطمئنان والرجاء بما يثيره شوق إلى النعيم الذي أخرج أيضا في صورة محسوسة بيد أن هذا الرجاء فإنه لا يرجو من المرجو سواه[44].

3-كثرة الثورات والفتن (الحروب والاضطرابات)، وردة فعل الأشخاص، وقد أخذ جولد تسهير هذا التفسير التاريخي إذ "رأي أن الحروب الأهلية الطويلة الدامية والتطرف العنيف في الأحزاب السياسية، وازدياد التراخي، والاستهانة بالمسائل الخلقية، وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين عوامل حركت في نفوس الناس الزهد في الدنيا ومتاعها وحولت أنظارهم نحو الآخرة ووضعت آمالهم فيها"[45].

وهذا الرأي الثاني له من التطرف الحزبي واستبداد السلطة والتراخي والذي هو موقف واحتجاج أو رد فعل مضاد يمثله الزهاد الذين يعبرون بسلوكهم التقشفي عن الوجه الآخر للحياة الاجتماعية، ولقد نتج عن بعد الحكام عن روح الإسلام ومبادئه وظهور الفساد ويأس وإخفاق بعض الناس تحقيق أمانيهم والانهماك والانغماس في الشهوات كردة فعل عن فعل الزهد حيث كلما: "اتسع هذا التيار الجارف، وكثر المنخرطون في اللهو والمجون والفساد زاد الزهاد والوعاظ ورجال الدين على اختلاف منازعهم من نشاطهم وزاد عددهم وكثر اتباعهم،

---

[41]-عاطف جودت نصر، شعر عمر بن الفارض، دراسة في فن الشعر الصوفي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1982، ص13، نقلا عن رينولدنيكولسون ،في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلاء عفيفي، ط 1956، ص20.

[42]-سورة آل عمران، الآية 175.

[43]-سورة الرحمن، الآية 46.

[44]-عاطف نصر، شعر عمر بن الفارض، ص13.

[45]-المرجع نفسه، ص46.

والمستجيبون لدعوتهم، ولو من بعض الجوانب، بل إن جانب الإيمان والميل والالتـــزام جانـــب الدين كان أقوى وأكثر عددا، إذ قيس هؤلاء بالملحدين والشكاك والمتحللين"[46].

5-المحيط المهيئ لذلك، فأهل المغرب أهل زهد منذ القدم لتواجـــد الـــديانتين اليهوديـــة والمسيحية، ويمتد الوجود اليهودي[47] في المغرب العربي منذ القرن الثالث قبل المـــيلاد عنـــدما هاجر إليها بعض اليهود من فلسطين في أعقاب سقوط أورشليم، ولكن هذا الوجود قد تغذى من خلال موجات لاحقة في عهد الرومان"[48].

أما الهجرة الثانية: "فقد حدثت بعد الفتح الإسلامي لهذه المنطقة، فقد جاءت مجموعـــات مهاجرة منهم من شبه الجزيرة العربية مع القبائل العربية المهاجرة، وأخرى من مصر، واتخذوا المدن الساحلية مقرا لهم كما انتشر بعضهم في المناطق الداخلية"[49].

6-نظام الرباطات[50] المغربية: ودوره الإيجابي في انتشار الزهد، حيث كان مـــن أكبـــر الحوافز المساهمة في تألق المناحي الروحية في المغرب، وقد ساعد على بنائها الحكـــام وولاة الأمور، وكرموا المرابطين ليتقربوا من الجماهير التي تحب من يحسن معاملتهم وتكبرهم) [51].

لقد كانت إفريقية[52] قبلة للزهاد والمرابطين فهي دار رباط وجهاد عبادة، وبـــذلك قامـــت بإعطاء دفعة قوية سريعة لانتشار الإسلام، وفي أهل المغرب يقول أبو الأحوص:

---

[46]- محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره،ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ج1، ص44.

[47]-لقد بدأت الهجرات اليهود إلى المغرب العربي منذ القرن الثالث ق.م عندما سقطت أورشليم وطردوا من فلسطين، وكانت وجهتهم المغـــرب العربـــي ونزلوا تونس لوجود الفينقيين فيها ... ثم تلت هجرات في عهد الرومان إلى المغرب الأقصى، وعمل هؤلاء على نشر اليهودية من قبـــل قبائـــل البربـــر وتمكنوا من إدخال بعض البربر إلى الدين اليهودي، كذلك هاجرت جماعات يهودية أخرى إلى منطقة من مصر وبرقة، ودوافع الهجرة في الفترة القديمة كانت سهولة الهجرة نحو المغرب العربي لوجود العنصر السامي المتمثل في الفينيقيين الذين عاملوهم معاملة حسنة بالإضـــافة إلـــى خيـــرات المنطقـــة وموقعها الهام على البحر المتوسط، ينظر: عبد المالك خلق تميمي، الخليج العربي والمغرب العربي، دراســـات فـــي التـــاريخ الـــسياسي والإجتمـــاعي والاقتصادي. دار الشباب للنشر والتوزيع، قبرص، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص113.

[48]-المرجع نفسه، ص230.

[49]-المرجع نفسه، ص113.

[50]-الرباط: هو الدفاع عن أرض الإسلام والجهاد في سبيل الله والعباد، الحركة المرابطية: أهم ظاهرة دينية وعسكرية عرفها العـــالم الإســـلامي وبـــلاد المغرب على الخصوص، فإذا كانت الربط في إفريقيا والمغرب الأوسط قد ظل فيها أناس اعتزلوا حياة المدن التـــي شـــملتها الفوضـــى والاضـــطرابات السياسية وفساد العقيدة فانقطع هؤلاء على الربط والممارسة للعبادة وتلقين علوم الدين، ينظر: محمد الأمين بلغيث، رسالة الـــربط بـــالمغرب الإســـلامي ووردها في عصري المرابطين والموحدين،رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف عبد الحميد حاجيات، 1986-1987 ، ص147.

[51]-إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شاعر المغرب حتى خلافة المعز, دار الثقافة للنشر والتوزيع, 1991 ، ص119.

[52]-يمكن أن تكون قصور طرابلس الغرب وقاعدة المغرب الإسلامي "القيروان" هي فجر حركة الرباط والمرابطية في هذه المنطقة إذ كـــان علـــى هـــذه العاصمة الإسلامية الأولى في المغرب الإسلامي أن تقوم بدور رئيسي وفعال في نشر الإسلام وامتداد نفوذ في القارة الإفريقية، ... أصـــبحت القيـــروان رباط المسلمين النساك والمرابطين، وهم الجيل الذي أعطى للمغرب الإسلامي ثقافة ودينا جديدا". ينظر: محمد الأمين بلغيث، رسالة الـــربط بـــالمغرب الإسلامي ودورها في عصر المرابطين والموحدين، ص 99-101.

أبـــــو أن يرقـــدوا الليـــل فهـــــــــم لله قـــــــوام

أبـــــو أن يخدمـــوا الدنيـــا فهـــــــــم لله خـــــــدام"[53].

تعد الأربطة والثغور من أشد المناطق تدينا وإغراقا في الزهد بانتشار الزهاد فيها، فقــد ساهمت الأربطة كالأديرة بالنسبة للمسيحية في نشرها وحركة التبشير التي تعد الأداة الروحيـــة فانتشرت الحماسة الدينية فيه، وليس بغريب عنها منذ الوهلة الأولى بما أن العالم مزقته ودكــت أركانه الحروب، وطفحت بالشهوات في العاصمة والتقشف على الحدود الثغور.

7-الصلة الروحية بين المشرق المغرب: كان المغرب عامرا بالزهاد كالمشرق واتصاله به دائب وحلقات التواصل بين طلاب العلم أخذ وعطاء، تأثير وتأثر فعلى سبيل المثال تتلمــذ ذا النون المصري على يد الصوفي أبو علي شقران المغربي، هذه الصلة "التي مهــدت لانتقــال الاتجاهات الدينية والفكرية المختلفة إلى الغرب الإسلامي وهي الصلة التي يظهر أثرها بجــلاء في ذي النون المصري على يد صوفي مغربي هو أبو علي شقران علي الفرضي حيث قــصده ذو النون في المغرب وسمع منه"[54].

ج ــ روافده الفكرية والروحية:

إن الحياة الروحية لم تحمل في الإسلام هذا الاسم بما يرادف كلمة Astisme، ولم يطلق على النبي ولا على الصحابة لأنه مصطلح ظهر بعدهم بزمن طويل وأطلق على طائفـــة مــن العباد والنساك حيث يقول ابن عربي أن كلمتي "الزهد وزهاد أصبحتا علم على طائفة مع مطلع النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، ويرجع السبب في تأخير ظهورها كمصطلح أن الزهــد في القرآن لم يشكل ترغيبا لرواد الروح الأوائل في الإسلام".

كان هؤلاء الرواد ممثلين بطائفتين يصورون الحياة الزاهدة في عصر الرسول: طائفـــة القراء وطائفة أهل الصفة، كما أنه وجد إلى جانب هاتين الطائفتين طائفة التـــوابين والبكـــائين بصورة أفراد غير منتظمين في حلقات، وقد ظهرت حركة الزهد بطابع سني نصي طول حكــم بني أمية، ثم تطورت بالتدريج إلى أقدم صورة نعرفها عن التصوف"[55].

---

[53]- القاضي عياض، تراجم أغلبية، مستخرجة من مدارك القاضي عياض، نشر الجامعة التونسية، 1968، ص 99-101.

[54]-إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المغرب، ص119، وعبد العزيز النبوي محاضرات في الشعر المغربي القديم، ص91.

[55]-سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص553.

يظهر من هذا النص أنه لم يكن ملحوظا في كلام الناس ولم يختصه بـدرس ولا بيـان، وكانت الأعمال الروحية تتدرج في الأعمال الدينية ويؤكد هذا القول القشيري: "لم يتسم أفاضلهم في عصرهم تسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا فضيلة فوقها، فقيـل لهم الصحابة.

ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين، ثم اختلـف النـاس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة العناية بأمر الدين: الزهـاد والعبـاد، ثـم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعى فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف"[56].

ويفهم من كل هذا أن الزهد كان نبتا إسلاميا، استمده الصحابة من الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم سرت في التابعين وتابعي التابعين، أما تطور الألقاب التي تدل على العبادة وأهـل النسك، ثم تحديده بمقامات المتصوفة لم يكن يعنيهم بالمرة (البتة)، فهم ليسوا في حاجـة إلـى توسيمهم بالزهد لأن صحبة رسول الله لا تدانيه ولا تضاهيه فضيلة أو أي علم من الأعـلام أو لقب من الألقاب، أما بعدما دخلت تلك الأمة من اقبال الجمهور على اللذة والمال والجاه واختص العاكفون المقبلون على العبادة والانقطاع إلى الله باسم الزهاد والعباد، تمييزا وتفـضيلا لهاتـه الفئة من الناس: "فالقشيري يذكر النساك والزهاد على أنهم صفوة عصر متـأخر، وقـد كـانوا مهتمين اهتماما عظيما جدا بأمور الدين، ... إذ أن الأولياء في مطلع عهد الإسلام قـد ألهـتهم روح التمسك الدقيق بحياة أسلافهم فرفضوا الترف على أنه بدعة ... وظل الزهـد فـي هـذه الحقيقة موجودا إلا أنه في الحين الذي بدأ فيه يتخذ شكلا أكثر دقة ووضوحا في تعمـد طلـب الفقر، وتعذيب النفس من ناحية، كان من ناحية أخرى يتقهقر إلى مركز ثانوي على اعتبار أنـه مجرد مرحلة تمهيدية في حياة المتصوف"[57].

والبحث عن الدوافع قد أخذ جانبا واسعا من اهتمام الدارسين فمنهم من يرجعه إلى فكرة شاعت مؤداها أن نشأة الزهد الإسلامي متأثر بالمسيحية، وغيرها من المؤثرات الأجنبية، وقـد اعتمدوا في ذلك سلبية بعض الزهاد المسلمين في عدم مشاركتهم في معترك الحياة واللجوء إلى العزلة والعبادة، وعدم الاهتمام بما يدور حولهم، وهذا تجني على العرب والمسلمين وتجريـدهم

---

[56]–مصطفى علم الدين، الزمن العباسي, دار النهضة العربية للطباعة والنشر, بيروت, 1993, ص245، نقلا عن الرسالة القشرية في التصوف، القاهرة، 1963، ص9.

[57]–صابر طعمة، الصوفية معتقدا و مسلكا، ص56–57.

من مظهر القوة الكامن في الحياة الروحية، وقد تابع الدارسون التشبث بهــذا الــرأي وخاصــة المستشرقين.

وفي هذا يقول محمد عبد الغني الشيخ: "أما عن سلبية الزهاد المسلمين، وتجنبهم للحيــاة فالمغالطة هنا ناتجة من الإطلاق وتعميم هذه الظاهرة على الزهد الإسلامي، والحــق أن هــذا المسلك عرف عن بعض الزهاد الذين كانوا يهتمون بإيمانهم وأخرتهم، ولا يعبــأون بمــا وراء ذلك مما يدور حولهم، ولكن أكثر الزهاد كانوا على خلاف ذلك تماما، إذ كان مفهــوم الزهــد عندهم يتفق ومبادئ الإسلام وتعاليمه وروحه وتوجيهاته الواضحة التي تحث على العمل للــدنيا والآخرة معا، ... ولكنه لم يفهم من الزهد أن يعزل الزاهد عن الحياة ومشكلاتها، أو يمنع مــن الجهاد بالتنسيق في ميادين الحرب أو الجهاد في الحياة لكسب الرزق ولنشر العلــم ومحاربــة الشر"[58].

وكيف لنا أن نتجاهل الموروث الزهدي الإسلامي من عهد الرسول والصحابة والتــابعين ... ونغفل التأثير بالقرآن وعدم تجاوز أوامر الله ونواهيه، فنشأة الزهد إسلامية بحتة بعيدة عن أي تأثير أجنبي، ومصدرها القرآن أو سيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي امتــازت بخــشونة العيش والبساطة التي لا تخلو من الأسودان (الماء والتمر) كي يظفر بــالنعيم المقــيم والحيــاة الطيبة وكذلك جما غفيرا من الصحابة آثروا حياة الزهد على ما سواها من الشهوات فلم تتجــه إليها قلبهم ولم تتعلق بها آمالهم بل اتجهت إلى طاعة الله تعالى ونيل رضاه وتعلقت بوعــد الله وما أعده لهم يوم لقائه"[59].

فكانوا عملين معتدلين يعنون بأمور معاشهم وواجباتهم الاجتماعية، يواجهون ويكــافحون المشاكل ويجهدون لإيجاد أحوال أفضل في المجتمع فعمر بن الخطاب كان يحكم بلاد متراميــة الأطراف، ومع هذا يرتدي لباس الزهد والورع، ويترك الدنيا، وليس أدل من أن عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بغسل جعل يدير الإناء في يده ويقول أشربها وتذهب حلاوتهــا، وتبقــى تبعتها، اعزلوا عن حسابها وتركها"[60].

فما أكثر صور الزهد ومظاهره في حياة الصحابة والتابعين من إنفاق الطعام الطيب على الناس واقتصارهم على أكل الزيت والخل، وعدم نخل الدقيق ...

[58]–محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص48–49.

[59]–ينظر علي مشاعل، الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، ص 154.

[60]–الغزالي، إحياء علوم الدين، مج2، ج4، 6، ص217.

فأبو عبد الله محمد بن مسروق[61]. من أغنى الأغنياء، وبعد موت والده نفذ يده من المتاع فكان يمر بالقرية من قرب أبيه فيخرج إليه أهلها ومن فيها ويقولون: نحن عبيدك، وكل ما لنا في هذه القرية فهو لك، فيقول إن كنتم صادقين فأنتم أحرار ومالكم لكم..."[62].

وكان إبراهيم بن أحمد الأمير يزور الأحوص المتعبد[63]، فإن وجده يطحن قوته بيده جلس على التراب، وإن وجده فارغا جلس على جلد المطحنة لأنه لم يكن في بيته حصير ولا غيرها[64].

نضيف لما سبق أن معنى الزهد ترسيخ في النفوس بعد الفتنة التي قتل فيها عثمان وإلى غاية القرن الهجري الأول، و"لم يكن هناك اتصال له خطره بين العرب وغيرهم، ولم يكن أمر الترجمة قد شاع وانتظم بل كانت محدودة إلى حد بعيد فمن أين كان التأثير الأجنبي في الصحابة والتابعين عند منشأ الزهد الإسلامي وظهور الزهاد في الصحابة"[65].

إن التأثير الأجنبي لم يكن في نشأة الزهد الإسلامي، بل كانت النشأة إسلامية خالصة وإن كان هناك تأثير فقد أتى "في وقت متأخر بعد الاختلاط والامتزاج بين العرب وغيرهم بعد استقرارهم في البلاد المفتوحة والإقبال على الترجمة، وغير ذلك من وسائل الاتصال، التي يمكن أن يكون له أثر، وكان هذا الأثر الأجنبي من أكبر العوامل في تحول الزهد نحو السلبية، واللامبالاة بشؤون الحياة، ثم كانت من أهم الأسباب في انحراف التصوف أو مدعيه"[66].

ومن الخطأ أن نرد هذا الزهد الإسلامي إلى الزهد المسيحي "الذي يمثله الرهبان بمجرد التشابه في بعض المظاهر والأعراض الخارجية ؟! أليس الأولى أن يرد إلى الإسلام نفسه ؟

---

[61]-يعرف بالزاهد، كان رجلا صالحا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة، ترك الدنيا عن مقدرة رغبة منه فيما عند الله عز وجل ذكر ابن اللباد بإسناد يتصل بسعيد الأدم المتعبد بمصر أنه قال: كان يقال إن رجلين كان في الدنيا فزهدا فيها، وهما عمر بن عبد العزيز، ومحمد بن مسروق هذا"، المالكي، رياض النفوس، ج1، ص193. وينظر: إبراهيم الدسوقي جاد الرب، الشعر المغربي حتى خلافة المعز، ص123.

[62]-المالكي رياض النفوس، ص193.

[63]-أحمد بن عبد الله المتعبد بسوسة ت 284 هـ، يوم الجمعة قبل الضحى، وصلى عليه الناس يوم السبت قبل الضحى، قال أبو العرب: كان أصله من المغرب سكن سوسة، وأوطنها، وكان ثقة متعبدا كثير العمل والاجتهاد، كان يصلي من الضحى إلى العصر ثم يجلس فيسمع الناس وقد كان كف بصره. المالكي، رياض النفوس، ج1، ص482-483، جاد الرب، شعر المغرب، ص123.

[64]-المالكي، رياض النفوس، ج1، ص382-483.

[65]-ينظر محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول، ص 51-52، وينظر شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، ط7، 1981، ص57.

[66]-نفسه.

وقد امتلأ كتابه بالآيات التي تصور الدنيا لعبا ولهوا وزينة وتكاثرا وتفاخرا وأن الأولى الأولين تركوا ما خولوا فيه من جنات وعيون وزروع ومقام كريم"[67].

وعند الدراسة يتجلى لنا هذا الزهد السني النقي الخالص الذي كان في صدر الإسلام وأوائل عصر بني أمية. والذي ساد المشرق،و هذا هو المفهوم الذي نرتضيه في الدراسة وهو أيضا يتلاءم مع شعر الزهد المغربي القديم، الذي كان بسيطا ولم يخالطه زهد الأمم الأخرى، كما وحدث في المشرق وتلك المغالاة التي تعود إلى النموذج المسيحي، أضف إلى العلاقة بين الفكر والدين، الذي اتسم بالبساطة وعدم التعقيد كما هو عليه حاله في وقت متأخر.

و"هناك ظاهرة بارزة في الحياة الدينية الاجتماعية تميز بها المغرب عن المشرق، وهي ظاهرة التصلب الديني والاعتدال فيما يتصل بحياة اللهو والمجون وخاصة عند الجماهير كما نجد الفقهاء أنفسهم أكثر تشبثا والتزاما، وأحيانا تزمتا في الحياة الدينية، من زملائهم في المشرق الذين كانوا أكثر تسامحا في الدين بوجه عام، وأقل سخطا على اللهو والمجون وخاصة عند الجماهير كما نجد الفقهاء أنفسهم اكثر تشبثا والتزاما وأحيانا تزمتا في الحياة الدينية من زملائهم في المشرق الذي كانوا أكثر تسامحا في الدين بوجه عام، وأقل سخصا على اللهو والمجون "[68]، وكذلك إتباعهم واعتناقهم المذهب المالكي لميله للبساطة.

إن الزهد شأنه الوجدان في الأديان كلها قديما وحديثا، وهو ظاهرة اجتماعية نفسية وسلوك فردي وليس تعبيرا عن واقع معيش فقط أرجعها البعض كينكولسون إلى بعض العوامل الخارجية التي صورتها على أنها هي المسؤولة عن اختيار الزهد بدليل أنه لو كانت هذه النزعة قد تطورت نتيجة للعوامل التاريخية والاجتماعية في ذلك العصر من شيوع الترف والبذخ والمجون والاحتيال على الدنيا نتيجة الفتوحات ودخول عدد من أهل البلاد في الإسلام لأصبح الكل زهادا فكيف تفسر تواجد شاعران في زمان واحد كأبوا العتاهية والنواسي وتوجه أحدهما إلى الزهد والآخر إلى المجون على الرغم من أنهما ينتميان إلى نفس العصر أي إلى عصر واحد "لو افترضنا مع نيكولسون هذه الدوافع وأنها عامة، لكانت النتيجة الحتمية لهذا الافتراض أن يصبح جميع الذين خضعوا لهذه الظروف العامة زهادا، والأمر ليس كذلك على ما أعتقد لأننا نجد أنماط شتى من الناس خضعوا لهذه الدوافع الخارجية العامة، أنماطا من رجال الحرب

[67]–عاطف نصر، شعر عمر الفارض ، ص11.

[68]–عبد الله شريط، أبو القاسم محمد كرو، شخصيات أدبية من المشرق والمغرب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1966، ص147.

والشطار وشذاذ الآفات والطفليين والمكتدين الصوفية والماجنين وماذاك إلا أن هــذه العوامــل والدوافع المشار إليها ليست المكون الوحيد للزهد"[69].

إن الزهد نمط سلوكي إنساني "يؤدي إليه التكوين النفسي لبعض الأفراد من جهة وتساعد عليه الظروف الاجتماعية من جهة أخرى فالناس بحكم تكوينهم النفسي منهم الانبساطي المنفتح للحياة والمقدم عليها في نهم، منها الانقباضي العازف عن الحياة الزاهدة فيها المنطــوي علــى نفسه، وكما يكون الخوف من المصير الإنساني من الموت دافعا لــبعض النــاس فــي بعــض الحالات على الإسراف في الانغماس في الحياة والانشغال بملذاتها فإنه يكون كذلك لدى بعضهم في بعض الحالات داعيا إلى الزهد في الحياة والانصراف عن مغرياتها"[70].

وخلاصة القول فأن الزهد ظاهرة في المغرب وذلك تقليدا للمشرق وللماديات المرهقــة والسلطة في علاقتها بالدين وبمفاهيمها في الحكم، وقد نشأ إثر انغماس بعــض المــسلمين فــي الشؤون السياسية والملذات الدنيوية في القرن الأول الهجري، فيما اختار فريق آخر التعلق بالله وبالدين وأن هذا الاختيار تجعلهم يشعرون بالاستعلاء على الآخرين واعتبار أنفسهم من خواص أهل السنة[71].

ثالثا ــ التزاوج بين التجارب الزهدية والتجارب الشعرية :

إن النزعة الزهدية وتجاربها الفكرية والروحية والسلوكية عموما قــد رافقهــا تجــارب شعرية غزيرة صبوا فيها الزهاد كامل مواجدهم وقرائحهم وأصبح "بذلك فنا من فنــون الــشعر راج على ألسنة الشعراء في كثير من الآداب، وبرز لدى العرب في قصائد أبي العتاهية وأبــو العلاء المعري كما يتجلى في إنتاج رجال التصوف"[72]؛ فما حظه عند الشعراء المغاربة ؟.

قبل التكلم عن شعر زهد المغاربة نشير إلى أن هذا التيار إنساني عرفته كل الأمم فــي شعرها ومنهم القدماء من المعالم الشرقي وعند العرب قبل وبعد الإسلام.

والمتصفح لأعمال القدماء من مصريين ... يجد شعر الزهد قد جاء في شكل هــواجس كما يتضح في هذا النموذج لأحد شعراء المصريين القدماء:

---

[69]–عاطف نصر شعر عمر بن الفارض ص 14.

[70]–عز الدين اسماعيل في الشعر العباسي الرؤية والفن ص 77.

[71]–مصطفى علم الدين ،الزمن العباسي دار النهضة العربية والنشر بيروت 1999 ص 276.

[72]–جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 137.

ما التكاثر في الأرض والنهاية القبر؟!

تشبه بالحي الأبدي العادل

الذي لا يظلم أحدا

السلام الذي لا يحب تعكير الصفاء أبدا

إليه يرجع الناس كلهم...

إذا خلق الإنسان، دعى إلى سبل الرشاد

ووعظ بأن يكون سليما معافى،

يعمل الخير، ويذكر الموت

حتى إذا جاء أجله استقبل القبر جذلان مغتبطا

أيها الكاهن إن الموت الذي تتحدثون عنه ليس إلا الاتحاد بأرباب الأبدية[73].

كما نجد التوراة يكثر ويعج بهذا النوع من الخطاب الزهدي ، وذلك عند العرب "فالنزعات الروحية ... قد بدت في ألوان هي الحكمة المتصلة بما وراء الطبيعة في شعر الجاهلين ثم الروحانية الدينية في الشعر الجاهلي ثم شعر التحنف[74].

ولا يمكننا اعتبار الحنفناء[75] وغيرهم زهادا لأن "حياة الرهبان والمتحنفين هي لون من ألوان الزهد وليست زهدا فهذه الفئة من الناس التي رفضت المجتمع بكل قيمه"،وهذه الجماعة راحت تبحث عن الحقيقة واتخذت لنفسها مسلكا معينا، وأمرها يختلف عن الزهاد إذ الزهاد يرفضون حقيقة جملة من السلوكات الاجتماعية ولكن يفعلون ذلك عن قناعة ولأن الطريق واضحة أمامهم وفق مبادئ معينة ومن هنا لا يمكن اعتبار الحنفاء زهادا[76]،يقول عدي بن زيد العيادي[77] في قصيدته المشهورة:

أرواح مروع أم بكور   أنت فأنظر لأي أمر تصير

[73]-خليل شرف الدين ،أبو العتاهية من الرفض إلى القبول، ص56.

[74]-عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري ص 08.

[75]-لقد أجمعت المصادر "على أن الحنفاء قد اختطوا لأنفسهم مسلكا عمليا مميزا قوامه تهذيب النفس وتصفيتها وإتاحة الفرصة للتعبد الذاتي والمعرفة التأملية إذ لجأو إلى الزهد فحرموا على أنفسهم الخمر كذلك حرموا ما أحل العرف من أطايب الطعام كاللحم والدهن وارتدوا ثيابا من الشعر كمظهر من مظاهر الزهد الخالص وليس بعضهم الصوفية كأمية بن أبي الصلت"، ينظر إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، ص47.

[76]-مصطفى هدارة, اتجاهات الشعر العربي, ص 280-281.

[77]-لقد كان مصابحا للنعمان بن المنذر في رحلة ترحاله وكان يعظه حتى تنصر فهو شاعر يكون هو النموذج المقتدى من قبل أبي العتاهية لأن شعر عدي لا تتضمن غير فكرة عابرة عن الموت الناس وزوالهم بعد أن كانوا وملاحظة تغير الزمن ودورانه المرجع نفسه ص 281.

أيهـــا الشامــــــت المعبر بالدهر	**أأنت المبـــــــرأ الموفـــــــــور؟**
أم لديــــك العهـــد الوثيــق مــن	**الأيــــــام؟ بــــــل جاهـــل مغرور**
مــن رأيت المنون خلـــدن أم مــن	**دا عليــــه مــــن أن يضــــام حقير**
أيـــن كســــرى الملــــــــوك	**أنــو شروان أم أيـــن قبلــة سابور؟**
وبنو الأصفر الملوك، ملــوك الروم	**لـــــم يبـــق منهـــــم مذكــــور**
وأخــــو الحصن إذ بناه وإذا دخله	**تجبـــــي إليـــــه والخابـــــور**
وتذكــــر رب الخورنـــــــق إذ	**أشــــرف يوما وللهــــدى تفكيــــر**
شـــاده مرمـــــرا، وحللـــه كلســا	**فللطيـــــر فـــي ذاره وكـــــور**
ســـــره مالــــه و كثرة ما يملك	**والبحــــر معرضـــا والسريــــــر؟!**
فأرعـــوى قلبـــه فقـــال وما	**غبطـــت حــــي إلـــى الممـات يصير**[78]

إن واقع الشاعر وما يعتريه من حالات اليأس والشك وتقلب الدهر من نعيم إلى جحيم، ومن شباب إلى شيخوخة لم يجد أمامه سوى التأمل واستجلاء حقائق الحياة من وراء سرابها الخادع فأنطقته بالحكمة الاعتبارية ولعله بهذا الشعر يهدئ من روع نفسه وهناك الكثير من الشواهد الشعرية تتحدث عن: "المصير الإنساني وما يقتضيه من ضرورة أن يتأمل في الحياة ويوجه سلوكه من منظوره"[79].

لكننا نكتفي بهذا الشاهد في هذا العصر المتقدم لنصل إلى الشعر الإسلامي الذي يعبر عن تأملات وأفكار عن الحياة والموت ويعظ الناس ويبصرهم بأمور دينهم مع العلم أن هاته "الأفكار الخاصة بالموت والفناء كانت مطروقة من قبل في الشعر الجاهلي، والفارق بينها واضح، وهو أن الشعراء الجاهليين يطرحون هذه القضايا بنوع من الحيرة، أما شعراء هذه الفترة ، فقد كانوا على بنية من أمرهم بتأثير من الإسلام لهذا يعتبر هذا الإرهاص الشعري جديدا في الشعر العربي "[80].

وإذا كانت هذه النزعة تبدو في إطار جزئي ضمن الموضوعات المعروفة في الشعر العربي فإن شعر الزهد في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، استقل من ناحية الموضوع وتخصص في هذا الموضوع بشعر التدين، وقد " ارتبط مصيره بمصير الحياة الروحية في

---

[78]–عز الدين إسماعيل، الرؤية والفن، ص 275.

[79]–المرجع السابق، ص 75.

[80]–عبد الحليم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص155–156.

الإسلام منذ هذا التاريخ فبقدر تميز الحياة الروحية، وانعزالها على المجتمع الإسلامي العام كان تميز هذا الفن الشعري، وانعزاله عن الشعر العربي العام من ناحية الموضوع، وكما حققت هذه الحياة الروحية الصورة التي رسمها الإسلام وحاولت أن تطبقها في محيطها قــدر المــستطاع حقق هذا الفن الشعري المفهوم الإسلامي للشعر وحاول قدر المستطاع تطبيقه في محيطه"[81].

إن الحياة الروحية في نهاية القرن الأول لم تكن استمرار للحياة، التي طبقها الإسلام في صدر القرن بل تطبيقا جديدا لتعاليمه في الحياة، وبالتــالي تتــاول الــشعر الــديني "بــالتعبير والتصوير كل ما كان يظهر في الحياة، إذ ذاك بما في ذلك العواطف والتأملات الدينيــة، وقــد وجدت البذور الأولى للشعر الديني في تلك الخطرات التي كانت تجرى علــى ألــسنة أولئــك المعتبرين بأمور الحياة والموت حين تعرض لذلك مناسبة تبعــث علــى الاعتبــار وتــستدعى التذكير" [82]،ولم يكن لهذا الشعر شعراء متخصصون للقول فيه "وإنما مقطعــات علــى ألــسنة الشعراء المختلفين الذين كانوا يقرضون الشعر في أغراض أخرى"[83].

أما فيما يخص موضوعاته، فقد قامت على غرضين رئيسيين: الوعظ والتذكير والــذي يتناول فكرة الموت كفكرة رئيسية ويتبع ذلك بذكر التوكل والقبر وأهواله والحكمة الدينية التــي تعتمد على النظرة الثاقبة في الحياة والناس وكلها نظرة من وجهة دينية،وفي هذا الصدد يقــول الحجاج بن يوسف التميمي وهو من شعراء الدولة الأموية:

إذا كانــــت السبعون سنك لم يكــن **لدائــــك إلا أن تمــــوت طبيــــب**

وإن أمرأ قــــد سار سبعين حجــة **إلـــى منهل مــــن ورده لقريــــب**

إذا ما مضى القرن الذي أنت فيهــم **و حلفــــت مــــن قرن فأنت غريــب**

إذا ما خلوت الدهر يوما ما فلا تقــل **خلــوت ولكن قــــل علـــى رقيــب**

84

ويقول الفرزدق [85]:

ألــــم ترني عاهدت ربـــي و أنني **لبنــــــن رتـــاج قائــــم ومقــــام**

---

[81]– عبد الحليم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص146.

[82]–المرجع نفسه، ص 147.

[83]–المرجع نفسه، ص 149.

[84]–الجاحظ, البيان والتبين, نشرة السندوس, ط1, 1936 , ج3 , ص 174.

[85]–ولد في خلافة عمر بن الخطاب في أسرة استقراطية من قبيلة تميم، أما أمه من ضبة من أسرة شريفة، وهي أخت الشاعر العلاء بن قرظــة، أســرته تعتز بنفسها وكرمها وجودها، فطبعته بطوابعها وأنجبته على غرارها، وديوان الفرزدق في حقيقته يكاد يكون دفاعا خالصا عن قومه، وتمجيدا غالبا لهم، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب قيلت في مديحهم، والفخر بهم فخرا لا تجف مادته في نفسه، إذا كان ليستمد من معين لا ينضب.

علـــى قسم لا أشتـــــم الدهر مسلما ولا خارجـــا بــــن في ســــوء كلام

أطعتك يـــا إبليـــس سبعين حجة فلمـــا انتهـــى شيبي وتـــم تمامي

فررت إلى ربـــي وأيقنت أننـــي مـــلاق لأيـــام المنـــون حمامي[86]

وهاته الأبيات من قصيدة في هجاء إبليس وهي: "إفاقه من غفوة الصبا، وصحوة علـــى الحقيقة العارية للحياة والناس وإنابة إلى الله بعد حياة شوهت من نقائها الذنوب وشابت بياضـــها الآثام"[87].

وهذه القصائد و المقطعات تتلون بألوان نفس صاحبها وتصطبغ بصبغتها، ومن أشـــعار الحكمة الدينية نذكر على سبيل المثال قول أبو الأسود الدؤلي عندما دخل على معاوية فقال له:

لقد أصبحت جميلا يا أبا الأسود، فلو تعلقت تميما تنفي عنك:

أفنـــى الشبـــاب الذي فارقت جدته كـــر الجديدين مـــــن آت ومنطلق

لم يتركا لـــي فـــي طول اختلافهما شيئـــا يخاف عليـــه لذعه الحدق[88]

الإنسان غير مخلد وفيم طول الغفلة عن الموت، والشباب فان ذكرت الدنيا عنـــد الحـــاد البصري فأنشد:

أحـــــلام نـــــوم أو كظـــل زائـــل إن اللبيـــــــــب بمثلهـــــــــا لا يخـــــــدع[89]

إن فن شعر التدين في القرن الأول الهجري له من المقومات والخصائص التي تجعله فنا مستقلا عن الشعر العام استقلالا موضوعيا يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1.تمثيله للحياة الروحية: التي سادت القرن الأول الهجري وبخاصة في نصفه الثاني، تلك الحياة التي كان لها طابعها الخاص الذي يميزها عن الحياة العامة آنذاك، والتي كانت من أهم صفاتها السلبية وعدم المشاركة في الشؤون العامة.

2.انحصار أغراضه: في دائرة يرضى عنها الدين كالوعظ، والحكمة والأخلاق.

3.غلبة العنصر العاطفي: في هذا الفن على العنصر العقلي.

4.غلبة صفة التعويض: على هذا الفن، فإنه يعتبر دائما أدب أولئك الذين يؤملون في الآخرة ما فاتهم في الدنيا.

---

[86]-عبد الحكيم حسان, التصوف في الشعر العربي, ص 154.

[87]-المرجع نفسه، ص 153.

[88]- عبد الحكيم حسان, التصوف في الشعر العربي، ص 159.

[89]- عبد الحكيم حسان, التصوف في الشعر العربي، ص 159.

5.انعدام الغرض السياسي: والنزعة الحزبية، فإن الشعر الشيعي والخوارج لا يدخلان ضمن مفهوم هذا الفن.
6.اليقين الظاهر: في شعر التدين، والحيرة المطبقة في الشعر الجاهلي[90].

ـ تطور شعر الزهد في القرن الثاني الهجري:

تطورت الحياة الروحية بمرور السنوات ولم تمض فترة من القرن الثاني (حتى أخذت الحياة الروحية في الاستقرار والتعمق فظهر الكلام في بعض المعاني الروحية. وأخذ شكله التنفيذي العملي بشكل أقوى وأعنف بما تفترضه تعاليم الدين، وأخذت آثار الأفكار الأجنبية في الظهور، مما أعطى الحياة الروحية استقلالا عن الحياة العامة أكثر مما كان لها)[91].

لقد استجاب الشعر للأفكار الجديدة وكل المعاني التي طرأت على الحياة الروحية في الإسلام ومن أغراض ظهوره: الدعوة إلى ترك الدنيا، وذم الإقبال عليها، والاكتفاء منها بما يقيم الرمق، والإقبال لكن الهمة على الله تعالى، والانقطاع إليه والقناعة به، والثقة بما عنده، والمجاهدة في سبيل مرضاته، وظهر كذلك تجنيد التبتل، وعدم الانشغال بالنسل عن العبادة، والتزام ألوان من العبادة لا يفرضها الدين[92].

إن الحياة الروحية تحولت من مجرد إقبال على العبادة، وانصرف عن مشاكل الدنيا التي لم تبين فيها وجه الحق في القرن الأول إلى مبالغة في العبادة وانصراف عن الدنيا ،وأطلق على هاته الفكرة اسم الزهد "ومن الطبيعي إذن أن يطلق على شعر التدين في صورته الجديدة التي اكتسبها من التعبير عن حياة الزهد في القرن الثاني "شعر الزهد أو الشعر الزهدي هو طور جديد من أطوار شعر التدين ويختلف عن طوره الأول في شدة توغله في الروحانية، واشتماله على المقومات الجديدة للحياة الروحية في القرن الثاني"[93]،ولقد تخصص في هذه المرحلة بعض الشعراء للقول في الزهد نذكر من شعراء الطليعة عروة بن أذينة:

لقد علمت و ما الإسراف من خلقي	**أن الذي هو رزقي سوف يأتيني**
أسعى له فيعينني تطلبه	**ولو جلس أتاني لا يغنيني**
وإن خط امرئ غيري سيبلغه	**لابد لابد أن يجتازه دوني**
لا خير في طمع يدني لمنقضية	**وغيره من كفاف العيش يكفيني**

[90]-المرجع نفسه، ص 165-166.
[91]-المرجع نفسه، ص 169.
[92]- عبد الحكيم حسان, التصوف في الشعر العربي، ص 169.
[93]- المرجع نفسه، ص 173.

لا أركـب الأمر تذرى بي عواقبـه   ولا يعـــاب بـــه عرضي ولا ديني
كـم من فقير غني النفس تعرفـــه   ومــن غنـــي فقيـــر النفس مسكين
ومــن عدو رماني لو قصدت لـــه   لـــم يأخـذ النصف من حين يرميني
ومــن أخ لــي طوى كشحا فقلت له   إن الظواءات عـني ســـوف يطويني
إني لأنطـــق فيما كان مـــن أربي   وأكثر الصمت فيمـــا ليـــس يعنيني
لا أبتغي وصـــل من يبغي مفارقتي   ولا ألــين لمـــن لا يـشتهـــي لِيني[94]

إن الأبيات الأولى تقرر مبدأ التوكل على الله والدعوة للقناعة، واتقاء الـشبهات وإيثـار الصمت، وهاته الأبيات أشبه ما تكون بالشعر الديني، فهي تعبر بوضوح عن فكرة التوكل على الله التي شاعت في بيئة الزهاد وما يتصل بها من الثقة بالله وطمأنينة النفس وقناعتها،وأما شعر عبد الله بن المبارك[95]: فتبدو معالم الزهد فيه في هذا النص:

الصـــمت أزيــن بالفتـــى   مــن منطـــق في غيـــر حينه
والصـــــدق أجمـــل بالفتـــى   فـــي القـــول عنـدي من يمينه
وعلـــــى الفـــتى بوقــــاره   سمــــة تلـــوح علـــى جنبيـــه
فمـــــن الـذي يخفـى عليـ   ـك إذا نظـــــرت إلــى قرينـــة
رب امـــــرئ استيقـــــن   غلـــب الشقـــاء علـــى يقينه
فأنزلـــــه عـــــن رأيـــه   فإتبـــــاع دنيـــــاه بدينـــــه[96]

هذا المقطوعة تبين لنا بعض الآداب الواجب التحلي بها وهي الصمت والحكمة واتصاف المسلم بالصدق "ولكن البيتين الأخريين يعتبران قفزة روحية جزئية فحتى ذلك الحين لـم يكـن الزهد يتناول المسائل النفسية بعمق، بل كان يمر عليها مرورا سريعا دون ثبت ومكث...، وفي البيتين ربط بين العقيدة والعمل، وترتب ثانيهما على أولهما، وبقدر ثبوت العقيدة يكون إطـراء العمل وقوته واتزانه"[97].

وهناك ظاهرة جدت على الحياة الروحية في القرن الثاني وهي ظـاهرة المجـانين ولا نقصد بهم المرضى بل مجانين ينطقون بالحكمة فهو جنون في طاعة الله والتعلـق بـه، وهـي

---

[94]–المرجع نفسه، ص 178.

[95]–له شعر غزل ومعدود من الفقهاء والمحدثين، روى عنه مالك بن أنس، ولقد ذكر عند عمر بن عبد العزيز فأثنى عليه واستثنى غزله.

[96]–عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص179.

[97]–المصدر نفسه، ص179.

طائفة نشأت في التدين، وعكفت على العبادة وانصراف عن الدنيا، وزينتها وعزوف عن متعها. وفي تاريخ الزهد يسجل الدارسون جملة من الشعراء يشاركون في الحياة ويخوضون غمارها مع الخائضين، وقد استهوتهم المتع والملذات، فاجترحوا السيئات، ولم يجتنبوا كبائر الإثم والفواحش، ومضوا يعبون من الشهوات بنهم، ويبادرون اللذة قبل أن تحل بساحتهم الشيخوخة[98].

هذه الفئة هي فئة التائبين من مجان الشعراء، والدافع إلى التوبة يختلف إما خوفا من عذاب الله أو من سوء الأحدوثة كعبد الله بن مسروق، أو أن تلك المخلفات لا تتفق واحترامه لنفسه وفكرته عنها، أو خوفه من الموت كالرياشي أو رجاء من عند الله من حسن الثواب للتائبين والعابدين كآدم بن عبد العزيز، ولا ننسى النواسي الذي امتاز بإخلاصه في مجونه وزهده على حد السواء[99]. ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه الفكري في الشعر العربي أبو العتاهية[100]. والذي يعد رائد الأول للزهد فنيا والرائد الثاني تاريخيا بعد سابق، بما امتاز به من غزارة المادة وكذا لتخصصه القول فيه، وأما سابق المطماطمي فقد سبق أبو العتاهية ،وتفرغ للقول في الزهد وقصائده التي وصلتنا تدور كلها حول الزهد مما يعنى أنه أسبق من أبي العتاهية وبالتالي كان الأحرى أن يعد رائد هذا الفن الشعري الزهدي ؛ ولنعد إلى أكبر دعاة الزهد ولنتركه يرسم لنا صورة عن حياة الزاهد :

رغيف خبز يابس — تأكله في زاوية

وكوز ماء بارد — تشربه من صافية

وغرفة ضيقة — نفسك فيها خالية

أو مسجد بمعزل — عن الورى في ناحية

تدرس فيه دفترا — مستندا لسارية

معتبرا لمن مضى — من القرون الخالية

خير من الساعات في — فيء القصور العالية

---

[98]–المصدر نفسه، ص187.

[99]–ينظر المرجع السابق، ص188.

[100]–نشأ أبو العتاهية في الكوفة، وفيها تأدب، ثم نزح إلى بغداد، واتصل فيها بالمهدي والهادي والرشيد والمأمون على التوالي، فأعجبوا جميعا بشعره، وشعره سهل المبنى حسن الديباجة، يجري في الغالب على البحور القصيرة، ويطرد على السبحية والطبع، وقد كان في شبابه ينادم الخلفاء على الشراب ويكثر من قول الغزل لكنه لم يلبث أن سئم الخمرة ومل المنادمة واعتكف ينظم الشعر في مهازل الحياة، وخداع الدنيا، وأباطيل المجد ويدعو إلى الاعتبار بحوادث الحياة ومصائر الرجال وجبروت الموت، كمال اليازجي–معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، دار العلم للملايين, بيروت, ط5، 1974, ص110–111.

تعقبهـــــــــا عقوبــــــــــة تــــــصلــــــى بنـــــــــار حاميـــــة[101]

إن هذه الحياة هي الصورة التي يدعو إليها، وينصح بها لأنها السبيل الوحيد للنجاة مـــن فاقة الحاجة وفقر الحرص، فيقنع برغيف يابس وكف من ماء، ويعيش بعيدا عن الدنيا والنـــاس في خلوته متعبدا، ويعتبر بما مضى قبله بتلاوة ما ورد في القرآن أو الاعتبار بكتب الأخبار.

وأبو العتاهية "قد استجمع ... بين يديه تراث القرن الثاني في الشعر الزهدي وقد امتـــد عمره حتى أوائل القرن الثالث فشهد ظهور النبت الأول للمعاني الصوفية... وقد استطاع... بما امتاز به شعره من سهولة وكثرة وقبول عند العامة والخاصة أن يجعل من الشعر الزهدي فنـــا عاما يتناوله الناس جميعا بالإنشاء والرواية، ومهمة يجب أن يقوم بها الشعراء، وقد ورد عنـــه أداء هذه المهمة ابن له بعد موته"[102].

وخلاصة الفصل أن الحياة الروحية كانت استجابة للمؤثرات جـــدت علــــى المجتمعـــات الإسلامية فقد تطورت "كما يتطور الكائن الحي من الطفولة إلى الصبا، فالشباب ثـــم الكهولـــة فالشيخوخة، فكانت في أول أمرها تدينا، ثم تطورت إلى زهد، وتطور الزهد إلى التصوف"[103].

لذلك بدت النزعات الروحية في الشعر العربي في صورة "الأبيات المفردة والمقطعـــات الصغيرة التي تأتي عرضا في قصيدة تعالج موضوعا آخر إلى أن عولجت فـــي فـــن شـــعري خاص بها كان له استقلال عن الشعر العربي العام من حيث الشكل والموضوع على السواء في أواخر القرن الثالث الهجري"[104]. وكان أبو العتاهية أشهر من تخصصوا للقول فيه، ثم انتهـــى في أواخر القرن إلى أن صار فنا يعبر عن حاجة اجتماعية، فتناولـــه شـــعراء صـــانعون لـــم يصدروا في شعرهم عن زهد عملي[105]، ونصل لطرح هذا السؤال؛كيف كان شأن شعر الزهد في المغرب؟

مما لاشك فيه أن المغرب كانت مهوى أفئدة الزهاد ولما رحنا نلتمسه ألفيناه صـــبغ أدب المغرب في تلك الفترة، والناظر إلى ما يمر بنا من أبيات الشعراء كبكر مثلا يرفع شأن أبياتـــه ويكشف مآخذ في غيرها.

---

[101]–عبد الحكيم, حسان التصوف في الشعر العربي, ص 209 نقلا عن ديوان أبو العتاهية, ص204–205.

[102]–عبد الحكيم حسان, التصوف في الشعر العربي, ص 235–236.

[103]–المرجع نفسه, ص 05.

[104]–المرجع نفسه, ص 05.

[105]–المرجع نفسه, ص 200.

ومع ذلك فقد واصل الشعراء العزف على قيثارة الزهد بحيث سنرى أن نص الزهد في المغرب حضر أولا على مستوى الدال العقيدي، بحيث أتت تلك الأشعار في البداية على شكل بدايات تتعلق بالزهد وتجسدت في شعر التدين، بعدها انزاحت القصيدة نحو الزهد حيث سنرى بعض الملامح الأولى والبدايات المشكلة للزهد، باعتبار أن الحضارة المغربية هي من صنع إسلامي عام ألا وهي الحضارة الإسلامية[106]، ولكن بخصوصيات مغربية تشكلت في ظل الدويلات التي نشأت بالمغرب، فحاولت بذلك أن تجد لنفسها خصوصيات عقدية وفكرية؛ حيث اتسم الإنسان المغربي بالتزامات أكثر بالدين، وبالبساطة عكس المشارقة الذين اشتهروا باللهو والمجون، كذلك طبيعة الدولة في المغرب الإسلامي التي فرضت حضور الفقيه في الأدب، ولا ننسى أثر البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبد العزيز والتي تتألف من عشرة من التابعين يشتركون في صفة أو يتميزون بها وهي: "الزهد في عرض الدنيا والعاطفة الدينية القوية، وسماحة النفس، ولين الجانب".

وأكبر الظن أن أثرهم...كان كبيرا في المجتمع الإفريقي، وأنهم استطاعوا أن يظفروا بقلوب أهل إفريقية، ويصلوا ما بينهم وبين العامة، وأن يؤدوا عن الإسلام صورة بعيدة عن صورة السيطرة والجبروت التي كان بعض الأمراء والعمال يظهرون بها.

رابعا ـ مصادر شعر الزهد في المغرب:

تعد المدونة التي جمعت فيها شعر الزهد المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثالث الهجري الركيزة الأساسية التي يستند إليها البحث للكشف عن البنية الفكرية المغربية المولدة لسائر البنيات الأخرى الشعرية والثقافية والحضارية.

وقد حاولت قدر الإمكان الإحاطة بالمادة الشعرية اللازمة والكافية، وعليه فقد اعتمدت في جمع المادة الشعرية على مجموعة مصادر ينحصر أغلبها في كتب سير الزهاد وأخبارهم، ومنها:

1-رياض النفوس:

يعتبر رياض النفوس من المصادر الأساسية للأدب العربي المغربي حتى القرن الرابع الهجري، واغلب الباحثين في الشعرية المغربية يعتمدون عليه، وقد مدني بالمادة

---

[106]–الحضارة الإسلامية في صميمها أدبية لغوية ومعنى الأدب التعبير الدقيق الجميل عن النفس الإنسانية في شتى حالاتها ومختلف خوالجها وهو أبرز ظواهرها.

الشعريـــة الموثقة اللازمة لهذا البحث بكونه يحيلني في مرات كثيرة بإشـــاراته المختلفـــــة إلـــى ما كان ناقصا من تلك النصوص أو ما كان مشكوكـــا فيـــه.

وعلى الرغم من أن صاحبه أبو عبد الله بن محمد المالكي قد خصصه لطبقات العلمـــاء والزهاد والنساك في القيروان وافريقية، وذكر لسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، فقـــد اهتم أكثر من غيره بنصوص أشعارهم والسياقات والأجواء الزهدية التي قيلت فيها ،وحقائق عن سير أصحابها، ومن ثم فقد حقق المهمتين معا ؛فهو مصدر سير وتراجم لهؤلاء الزهاد و مصدر لرواية أشعارهم ،ويعكس في الوقت نفسه تطور الحياة الفكرية والروحية بالمغرب إبان القرون الثالثة الأولى الهجرية بعد الفتح، إذ كانت القيروان وإفريقية في تلك الفتـــرة مقـــرا لطائفة من علماء الفقه والأدب والزهد والتصوف، ولا ننسى أن صاحبنا كان زاهدا وعالمـــا، وأحد الذين رسخوا المذهب السني والفقهي في المغرب والذي لا يزال المذهب الـــسائد فـــي دول المغرب العربي إلى غاية الآن.

2-ترتيب المدارك:

يجد الباحث في المكتبة المغربية مجموعة من كتب التراجم عـــرف مؤلفوهـــا بـــأعلام المغرب، ويعد كثير من هذه الكتب من مصادر الشعر المغربي، وذلك بما تتضمنه من نصوص وأخبار، وهذه الكتب تمثل نمطين : أولها ترجمت لشعراء وسجلت نماذج من إبداعهم، وأخرى ترجمت صنفا أو أكثر من الأعلام منهم الشعراء ومنهم غير الشعراء، وهذه الكتب ليست كلها وقفا على المغاربة، ولا هي كلها من تأليفهم.

ومن الطائفة الأخرى " ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض، واسمه الكامل أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، ت455هـ.

وكان الهدف من تأليف هذا الكتاب محاولة القاضي عياض دحض خصوم المالكية شرقا وغربا، فهو مصدر فقهي فكري ثقافي ضخم أقيم تشريفا وتمجيدا للمالكية في عصورها المختلفة.

ومن الذين اختصروا الكتاب أحمد بن محمد بن علوان التونسي، الشهير بالمصري توفى 787سنة هـ بالإسكندرية، وكذلك ابن حماد أو حماد السبتي هو من أصحاب القاضي أو تلاميذه، وكذلك الديباج.

3-تراجم أغلبية:

لمحققه محمد الطالبي، وهو مؤلف لتراجم شعراء الدول الأغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، وقد أورد المؤلف ترتيب أصحاب مالك من الفقهاء في ثلاث طبقات

وقد استفدت من كتابي ترتيب المدارك وتراجم أغلبية في العودة إلى ترجمة بعض الشخصيات والاستفادة من بعض النصوص التي لم أجدها في الرياض، الذي لم يحاول الانطلاق من البداية الأولى الخاصة بالشعر العربي في هذه المنطقة، بينما كان ترتيب المدارك أكثر استيعابا للنصوص الشعرية التي قيلت في تلك الفترة، كما امتاز بالدقة في ترجماته للشعراء الذين تحدث عنهم.

4-الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد:

ومن المصادر ما جاء في شكل مجموعات خاصة على غرار ما جمعه محمد بن رمضان شاوش من شعر بكر بن حماد التاهرتي: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، والذي ضاع أكثره ولم يبق منه إلا القليل متفرقا في كتب الأدب والتاريخ ،ولقد تناوله المؤلف بالشرح والتعليق ، وهذا بعد أن قدم عدة فصول يبين فيها حالة المغرب وتيهرت التي نشأ بها الشاعر أثناء القرن الثالث الهجري، وذلك من حيث الحضارة والرقي الفني والأدبي، وقد خصه بترجمة مفصلة عن حياة الشاعر وأثاره الأدبية ليكون القارئ على بصيرة من قيمة هذه الشخصية .

ولقد عثر على نحو المائة وعشرة أبيات من شعره، وبعد علمية إحصائية حسابية لعدد المقطوعات والقصائد التي تتألف منها هذه الأبيات ألفينا مجموعة تسعة عشرة مقطوعة وقصيدة، والمقطوعات منها هي الغالبة: أربع عشرة مقطوعة وخمس قصائد فقط وأطول قصيدة له هي القصيدة التي عارض بها الشاعر ابن حطان الخارجي على أنها لا تتضمن إلا ستة عشرة بيتا لكن أغلب القطع المثبتة له ناقصة لا تتألف إلا من ستة أبيات أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو بيتين أو حتى من بيت واحد فقط، وقصرها هذا يدل دلالة واضحة على ضياع أكثر شعره لأسباب عديدة[107].

وتراوحت أغراضه بين الزهد والوعظ (له فيها قصيدتان الأولى من عشرة أبيات والثانية من اثني عشرة بيتا وثلاث مقطوعات الأولى من أربع أبيات والثانية من خمس أبيات والثالثة من ثلاث أبيات)، والوصف (له فيه مقطوعة من أربع أبيات) وهجاء (له فيه قصيدتان الأولى من ستة عشرة بيتا والثانية من تسعة أبيات ومقطوعة من ستة أبيات)، ومدح (له فيه ثلاث مقطوعات الأولى من بيتين والثانية من ستة أبيات والثالثة من ثلاث أبيات)، واعتذار (له فيه مقطوعتان كل واحدة منهما مؤلفة من ستة أبيات) ورثاء (له فيه قصيدة من تسع أبيات وأربع مقطوعات الأولى من ثلاث أبيات والثانية من خمس أبيات والثالثة والرابعة من بيت واحد)،والملاحظ في هذه الأغراض خلوها من الغزل[108]،وقد اعتمدت في بحثي تسعة نصوص من هذا الديوان.

5 ــ عبد الله سابق البربري،:

لصاحبه عبد الله كنون، الذي تعد مؤلفاته نموذجا للدراسات الرائدة للأدب المغربي، وقد أخذت من مؤلفه هذا ثلاثين نصا تعد من أنفس وأندر النصوص الشعرية التي لم أجد لها حضورا في غيره من المصادر، وهذه المادة الشعرية لأحد رواد الشعر المغربي سابق المطماطي، والتي لا تزال أخباره وأشعاره محل تضارب للآراء ومع ذلك لم يحظى بالاهتمام والدراسة التي يستحقها على الرغم مما يتسم شعره من الجودة بمكان في تلك الفترة الزمنية المتقدمة.

107– لمزيد من الإيضاح ينظر الديوان ، صفحة 54 .

108–لا ندري إن كان ذلك راجع إلى ضياع ما قاله في هذا الغرض أو كان ذلك تعففا ورغبة عنه.

طبيعة مكوناتها النصية:

إن المادة الشعرية التي توصلت إلى جمعها والتي تمثل غرض الزهد خلال القرون الثلاثة الأولى الهجرية قد صنفتها تصنيفا كميا حسب عدد الأبيات، والجدول الآتي المدرج يوضح ذلك:

نوع النص	عدد التجارب
البيت المفرد	**10**
النتفة	**31**
المقطعة	**33**
القصيدة	**24**
المجموع	**98**

تضم المدونة 98 نصا موزعة على 585 بيت يعج بجميع أنماط التجارب الشعرية الخليلية، فقد جاءت تجاربهم في قصائد أو في شكل مقطوعات شعرية أو نتف؛ وهي أشكال قديمة موروثة عن الأدب العربي وقد أظهروا فيها براعة وإبداعا فيما يصوغونه فيها من تجارب شعرية، وكانوا يستأنسون بها ويكيفونها بما ينسجم مع متطلبات مجتمعهم وبيئتهم وهذا التوزيع كان بحسب المقاييس النقدية العربية القديمة التي ما تزال معتمدة وصالحة.

ويبلغ عدد القصائد 24 قصيدة؛ والقصيدة هي التي تتجاوز عدد أبياتها السبعة ولو بيت واحد، وكان ذلك اعتمادا على ما رواه ابن رشيق على العرب: "قبل إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس، ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو بيت واحد"[109]،والرأي الأول هو الذي أخذت به في هذه الدراسة.

والمدونة موزعة بين القصيدة القصيرة التي تتراوح أبيات الواحدة منها ما بين الثمانية والعشرين بيتا (8-20)، وقد أحصيت في المدونة ثماني عشرة قصيدة قصيرة، كما حصرت القصيدة المتوسطة والتي يتأرجح عدد أبياتها بين واحد وعشرين وخمسين بيتا (21-50)، وقد بلغ عدد استعمالها خمس قصائد متوسطة، ولم تخلو أيضا من القصائد المطولة (51-100) وقد ظهرت في قصيدة واحدة.

[109]-ابن رشيق أبو علي الحسن، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وشرح مفيد قميحة، دار الكتاب العلمية، لبنان، ط1، 1983، ص134.

أما المقطوعة والتي تسمى المقطعة أيضا "والتي تتجاوز عدد أبياتها البيتين ولم يتعد العشرة"[110].

ولقد وجدت مقطوعات شعرية كثيرة بلغ عددها 33 مقطوعة وذلك لأنها أكثر شيوعا وأعلق بقلوب وأفواه الرواة والناس وأنها أسهل للحفظ[111]،كما أنها يحكمها موقف واحد وتعبر عن موضوع واحد.

كذلك المصادر الأساسية التي روت الأشعار كان مؤلفيها في أغلب الأحيان لا يرون القصائد كاملة وإنما ينتفون منها أبياتا بما يلائم أذواقهم أو ينسجم مع الطرح الذي يسير في كتابهم، ولهذا كثرت المقطوعات.

أما بالنسبة للنتفة فأحصيت في المدونة 31 تجربة: ويطلق اسم النتف على البيتين الشعريين أو الأبيات الثلاثة المفردة[112].

وهي في الحقيقة مقطوعة قصيرة لا تتميز عنها إلا في عدد الأبيات وأعتقد أن هذه النتف هي كل ما وصلنا من تلك النصوص الشعرية التي أصابها الاتلاف والضياع أو التي خضعت لأهواء الشعراء ومتطلباتهم الذوقية.

وبالنسبة للبيت المفرد أو كما يطلق عليه بعض النقاد اليتيم فقد أحصيت عشرة تجارب شعرية، والبيت المفرد سواء قيل منفردا أصلا أم أخذ من نص طويل وصار مثلا سائر[113]، يعد أقصر هذه الأشكال وينفرد بميزة التكثيف والإبداع.

ومن جملة الحقائق التي ظهرت في هذا الجزء من البحث وجوب التنويه بأن معظم المصادر تتشابه وتتقارب إلى حد التطابق في عدد الأبيات فما وجدته في رياض النفوس للمالكي من كم شعري، يتكرر في ترتيب المدارك هو نفسه في تراجم أغلبية وفي الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات المستقلة، وكذلك ما وجدته في الدر الوقاد لبكر بن حماد يتشابه ويتقارب إلى حد بعيد بما وجدته في الجزء الثاني لرياض النفوس.

---

[110]–المصدر نفسه، ص134.

[111]–أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، حققه وضبط نصه مفيد قميحة، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص193–194.

[112]–رشيد حاوي، الشعرية العربية الأنواع والأغراض، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991، ص11.

[113]–المصدر السابق، ص12.

كما يجب التأكيد بأن المغرب لم يكن معزولا أبدا عن المشرق سواء من جهة السياقات المعرفية والفكرية أم من جهة الحضور الشعري لهذه النزعة بل إن المغاربة كانوا روادا لهذه النزعة في تاريخ الشعرية العربية بفضل شعرية سابق البربري المطماطي ،ومن هنا جاز لنا القول بأن هذه النزعة تعد من أقدم النزعات الدينية الروحية التي طبعت الشعرية المغربية في القرون الأولى من الفتح الإسلامي للمغرب.

الفصل الأول

الهواجس والموضوعات

أحاول في هذا الفصل أن أمتص من شعر الزهد الملفوظ الذاتي الذي هو جوهر نصوص شعراء هذه النزعة الزهدية، وأكشف عن علاقتها بأحاسيسهم نحو قضايا الوجود والكون، والزمن ، ومصير الإنسان ،ودلالتها على خالقه، ولقد انضوت تلك الأحاسيس في غرضي: الوعظ والتذكير، والحكمة الدينية والأخلاقية.

أما بخصوص الوعظ والتذكير فيتولد من هاجس الموت بكونها ".. الفكرة الرئيسية... يتبع ذلك ذكر التوكل والعمل الصالح وفساد الناس والزمان، والقبر وأهواله، وما بعد القبر من مواقف لا ينفع فيها إلا العمل الصالح... أما الحكمة الدينية فتعتمد أساسا على النظرة الثاقبة في الحياة والناس"[114].

ومن هذا المنطلق فإن هذه القضية من أهم الموضوعات المتواترة في أشعار هؤلاء الزهاد ،و سنحاول الكشف عن هذه المعاني والصور ذات الدلالة عن الزمن والحياة والموت و العاكسة لموقفهم وسلوكهم.

1 ـ الزمـــان ومفهومه المعرفي والشعري:

إن تحول دلالات الزمن من الحقيقة الفيزيائية إلى الحقيقة الشعرية يجعل منها هاجسا نفسيا جماليا متمردا عن الزمن الفيزيائي، لأمر الذي يجعل منه موضوعا من الموضوعات الإنسانية الفلسفية والشعرية الكبرى ،وقد تكبر هذه الهواجس وتتكثف دلالتها بفعل الواقع الدرامي الخارجي والواقع الداخلي الزهدي الذي يمتلئ بهاجس الموت، و يضفي عليه ديمومة فلا ينقطع من تيار الشعور الإيماني .

أما واقعه المأساوي فيرجع إلى كون منطقة المسلمين كانت تعج بالصراعات "وعدم الاستقرار والموت المتواصل بسبب الحروب التي كانت تدور بين المشركين والمسلمين أو بين المسلمين بسبب السلطة أو المذهبية التي منها الشيعة والخوارج والسنة أو غيرها من المذاهب إذ كل ذلك يعلم الإنسان ويجعل منه حكيما"[115].

[114]– عبد الحكيم حسان, التصوف في الشعر العربي, نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري, ص150، 158.

[115]– العربي دحو, الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية الرستمية الإدريسية، ص 54.

ونظرا للأهمية التي تكتسيها الرؤية الشعرية للزمن من كونها تخلق أسلوبا معينا في الحياة بل "هي الحياة نفسها"[116]؛ لذا كان حريا بنا أن نعرفه من حيث معناه الفيزيائي والفلسفي والنفسي الشعري ، والأول ".. عبارة عن ساعات الليل والنهار، وقد يقال للطويل والقصير منه"[117].

و لفظ الزمن يكبر ويصغر ويتلون بألوان الواقع بحسب أحاسيس النفس فالزمان العصر، و الدهر و الفصل ومدة ولاية الرجل "... ويقع على جميع الدهر وعلى بعضه، ويقال زمن الورد والرطب، وزمان الحر والبرد ...والدهر لا ينقطع والزمان مدة قابلة للقسمة ولهذا يطلق على الوقت القليل والكثير."[118].

وهذا رأى الكثير من العلماء حسب قول جواد علي: "واختلفوا في الزمان فقالوا الزمان الدهر وعارضه آخرون إذ قالوا يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر والدهر لا ينقطع والزمان يقع على فصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه"[119].

وأما فكرة الزمن الفلسفية فأفلاطون يرى بأن : "في عالم الأمر جوهرا أزليا يتبدل ويتغير ويتجدد وينصرم بحسب النسب والإضافات إلى المتغيرات لا بحسب الحقيقية والذات، وذلك الجوهر باعتباره نسبة ذاته إلى الأمور الثابتة يسمى سرمديا، وإلى ما قبل المتغيرات يسمى دهرا وإلى مقارنتها يسمى زمانا، ولا استحالة في أن يكون للزمان زمان عند المتكلمين الذين يعرفون الزمان بالأمر المتجدد الذي يقدر به متجدد آخر"[120].

وقد عرفه الأشاعرة بأنه متغير غير متعين: "متجدد معلوم يقدر به متجدد مبهم لإزالة إبهامه كما يقال: آتيك عند طلوع الشمس، فإن طلوع الشمس معلوم ومجيئه موهوم، فالزمان غير متعين، فربما يكون الشيء زمانا لشيء عند أحد ويكون الشيء الثاني زمانا للشيء الأول عند الآخر، فقد يقال جاء زيد عند مجيء عمرو، وجاء عمرو عند مجيء زيد، وفيه ضعف أيضا"[121].

---

[116]- صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، رسالة ماجستير، إشراف العربي دحو 1988، 1989، ص35.

[117]- ابن الأثير، الكامل دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج1، ص 10.

[118]- أحمد رضا، معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان 1959، مج3، ص 60، 61.

[119]- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ومكتبة الهضبة، بغداد، ط2، 1978، ج8 ، ص436.

[120]- محمد علي الفاروقي التهانوري، كشاف إصلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، ص 122، 124.

[121]- محمد علي الفاروقي التهانوري، كشاف إصلاحات الفنون، لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972 ، ص 122، 124، نقلا عن شرح المواقف، ج1، ص 472، 478.

ويتضح مما سبق أن الزمن يتغير ويتبدل ويتجدد بتكرره.

ولا ننسى اهتمام اللغة العربية بالزمن، بحيث خصصت لكل زمن نوع من الأفعال حيث يقول عبد الكريم اليافي: "وأنا أجد اللغة العربية كاملة، وأفضل في التعبير من اللغات الأجنبية عن فكرة الزمان، ولكن الأفعال ليس تقوم بالإبانة عن فكرة الزمان بل تأتي الظروف والحروف أيضا، فحرف الشرط (إن) على سبيل المثال التي تجزم فعلين موضوعة للزمان المستقبل لا الحاضر ولا الماضي"[122].

ونستعرض نظرات الشعراء المغارب في الدهر وتقلباته، وهي تشخصه وتتهمه بأنه مصدر ما يتعرض له الإنسان في حياته من شرور وتبدل، ونتيجة خوفه وذعره الشديد إما حرصا عليها وعلى مفاتنها، أو جزعا لمآله، فتراه تارة يذم غرورها وتلونها، وتارة أخرى يعتريه الندم والتوبة على ما فات، ووفقا لمدى عمق إحساسه وشعوره به تختلف مواقفه من الحياة، فإما مشارك دون إفراط وتفريط، وإما منعزل انعزال تام ،وقد تأتى دلالة الزمن مقترنة بدلالات المكان .

أ ــ هاجس الزمان والدنيا:

لقد أحس الشاعر العربي والمغربي بالزمن إحساسا عميقا يشبه إلى حد كبير إحساس المتصوفة الذين: "اهتموا بالوقت، واعتبروه أهم شيء في حياة الإنسان، ولذلك لا ينبغي ألا يفوتهم"[123].

فالزمن بما يمثله من أيام وشهور يبدل ويغير الحياة والدنيا من حال إلى حال فهو مصدر خير وكذلك لكل الشرور التي تلاحقنا بحيث لا يسلم منها حتى البطل الجسور المغوار، يقول في ذلك الحكم أبو جعفر أحمد بن سليمان داود الصوف الربعي[124]:

أرى الدنيا تغمرها الليالي وأياما مؤلفة شهورا

أرى يوما يجيء بكل خير ويوما بالحوادث مستطيرا

---

[122]– عبد الكريم اليافي، ندوة المعرفة والتصوف ومفهوم الزمان في الفكر العربي، مجلة المعرفة السورية، ع 233 ديسمبر 1981، ص 115.

[123]– المرجع نفسه، ص114.

[124]– من تلامذة الإمام سحنون، اشتهر بالحكمة لأن أكثر كلامه كان حكمة، وهو فقيه كانت له بالشعر عناية في أول أمره، مولده سنة 206 هـ أو 208 هـ، توفي سنة 291 هـ ينظر القاضي عياض تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض – تحقيق محمد االطالبي، نشر الجامعة التونسية 1968، ص271، 274 وبكر بن حماد، الدر الوقاد، تقديم وشرح وجمع محمد بن رمضان شاوش – طبع بالمطبعة العلوية بمستغانم، ط1، 1966، ص49 –أبو العرب محمد بن تميم القيرواني –طبقات علماء إفريقية وتونس تقديم وتحقيق علي الشابي ونعيم حسن الياخي، الدار التونسية للنشر ، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985، ص194، و245.

كذا أحوال دهرك حـــال أمـــن وحـــــال تجـــزع البطـــل الجسورا[125]

يستهل الشاعر الأبيات بالرؤية المعبرة عن تغير الدنيا بفعل الأيـام وتـوالي الليـل والنهار،

و الشهور، إن فعل التغير متروك للوقت قصرت مدته الزمنية أو طالت،لكن نلاحظ أن كلمـة الرؤية تهيمن عليها دلائل الزمن من ليالي وأيام وشهور مما يـشير إلـى أن الـشاعر مكتـف بالملاحظة فقط ،وهذا ناتج عن عجزه أمام سلطة وقوة الزمن، ويأتي البيت الثاني والثالث ليؤكد تلك الحقيقة، فما يصبه ويجيئه من خير أو شر، فهو غير قادر على صـده ،فالـدهر إن طـال سيطول الجميع :القوي والضعيف، ويبث الهلع حتى في نفوس الجبابرة، وما هـذه الأبيـات إلا تعبير عن برمه بالدنيا المتقبلة وخوفه من مصيره ومصير الشرف:

حياة الفتى ما عاش بؤس وحيرة ومـر الليالي قـد يسـر ويفجع

كأن خطوب الدهر بينـي وبينها ســوالف ثـــأر فهـي بـي تتوقع[126]

ومن الشعر المغربي الذي يعبر عن موقف زهدي هذه الحكمة لـسابق المطمـاطمي[127] الكاشفة لحال الدنيا وإقبال الناس عليها مع علمهم بسرعة زوالها ومكرها وخداعها:

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى سفاها وريب الدهر عنها يخادعه

ويطمع فـي سوف ويهلك دونها وكم من حريص أهلكته مطامع[128]

وتوضح هذه الأبيات للإنسان جهله للحقيقة من جراء خداع نفسه بمفاتن الدنيا التي تعمي بصره عن نوائب الدهر، وكر الأيام التي لا تبقي على حال أو جاه أو مال ، وأنظر إلى هؤلاء القراء عندما أقبل عليهم أحمد بن معتب[129] فقال بعضهم:

---

[125]- المالكي رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، تحقيق: بشير البكوش، محمد العروس المطوي، دار الغرب الإسـلامي، ط2، 1994، ج1، ص 512 والعربي دحو، الشعر المغربي إلى نهاية الإمارات، ص197.

[126]- المالكي، الرياض ج2، ص112.

[127]- أول شاعر نبغ في الشعر، ولد بعد الفتوحات، شاب تمكنت منه العقيدة فصاغها إبداعا، ذكر غير واحد من مترجميه صلته بأعظم خليفة عمـر بـن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، والذي كانت له عنده مكانة وقدر، ويطلب منه أن يعظه وينشده من شعره الحكمة أو من شعر غيـره، لأنـه كـان متحققا من زهده وورعه، وإنه لا ينظم ولا يروي إلا ما كان من قبيل ما قيل إن من الشعر لحكمة، ينظر: رابح بونار، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص51.

[128]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ،1969، ص

دع الدنيـــــا لمـــن جهل الصوابا فقـــــد حضـــر المحب لها وخابا

يصلـــــي فتـــــارة يبكـــــي يبيت ويطـــوى الليـــــل بالأحـــــزان دأبا[130]

وما الدنيا إلا سفر يأتي بعده سفر يقول سابق في قصيدته الرائية[131] الكبرى عن هذه الحقيقة :

إن الأمـــور إذا استقبلها اشتبهـــت إذا انقضى سفـــر منها أتى سفر

لهـــا حلاوة عيـــش غـــير دائمـــة وفـــي العواقـــب منهـــا المـــر والصبر[132]

نلاحظ بأن تجربة الشاعر الزاهد قادرة على استيعاب قضايا الوجـــود وحقائقـــه فهـــي واضحة الرؤية لكنها جاءت نتيجة التأمل والتفكير الشعري، وما تلك الرحلة إلا رحلـــة الـــذات المؤمنة – (إذا انقضى سفر منها أتى سفر) –التي تحلم وتأمل بخاتمة الأتقياء من خلال رنـــين شعري في دلالتهما دون حاجتهما إلى تأويل أو توضيح ، ثم تأتي بعـــدها الأبيـــات المواليـــة لتضيف صورة فنية مشخصة مراوغة عن مكر الدنيا وخداعها وتقلبهـــا وتغريرهـــا بالإنـــسان بإظهاره له مفاتنها (حلاوة عيش) ،وتخفي له (غير دائمة) وفجـــأة تظهـــر الحقيقـــة فتكـــون (العواقب منها المر والصبر)،ولهذه الدنيا صورة أخرى ،ويأتي صوت الشاعر ليحذر منها :

فحتـــــى متـــى نلهو بمنزل باطل كأنـــــك فيـــه ثابت الأصل قاطن

وتجمـــع مـــالا تأكـــل الدهر دائبا كأنـــــــك فـــــي الـــدنيا لغيـــرك خازن[133]

---

[129]– كان ثقة ثبتا نبيلا عالما بالحديث والرجال وحسن التفسير، سمع منه الناس، صاحب ابن المبارك، ينظر القاضي يصف ترتيب المـــدارك وتقريـــب المسالك المعرفة أعلا من مذهب مالك، دار مكتبة الحياة بيروت ودار مكتبة الفكر، طرابلس ليبيا، ج3، ص 230، 233، وأبوا العرب بن تميم، طبقـــات علماء إفريقية وتونس، ص 241.

[130]– القاضي عياض ،ترتيب المدارك، ص231.

[131]– بسم الذي أنزلت من عنده السور والحمد لله أما بعد يا عمر: وردت هاته القصيدة في كتاب التصويف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخـــر القرن الثالث الهجري لعبد الحكيم حسان ص 126 منسوبة إلى عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة، لكن الأبيات في الأصل منسوبة إلى سابق فقد ذكرها ابـــن الجوزي في كتابه مناقب عمر بن عبد العزيز قال (ذكر ما وعظ به عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) عن أبي سليمان أحمد بن عبد الله الجوزي، قال سابق البربري لعمر بن عبد العزيز (القصيدة الرائية).

[132]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 8

[133]–عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 5

ويصف الشاعر الذات قلقة ومضطربة غير مستقرة، وتأتي كاف الخطاب لعموم البشر، ثم تأتي دلالة فعل (نلهو) التي تربط بين الحياة وما ينسجم مع فكرة الرحلة ، واللهو أو الرحلة سعي وحركة في مقابل البحث عن الاستقرار من خلال دلالات ألفاظ (منزل، ثابت، أصل، قاطن)، والتي تشير إلى السعي للحفاظ على التقوى وضمان استمراره، ولكن دوام التقوى من المحال أمام سطوة الدنيا.

ويأتي البيت الموالي حاملا معه مركبا إضافيا (جمع المال الدائب) ليوضح الوسيلة التي اختارتها الذات بإرادتها لتأمن دنياها، لكن هذه الأخيرة تعاكس فلسفة الذات الفردية فتصدم بفلسفة التفريق الجمعي الذي تخشاه (لغيرك خازن).

و يتراءى لنا مما أنشده أبو الفضل الرياشي تعبيره عن مدى غفلة الإنسان واستهتاره ،وهو في هذه الدنيا الفانية ،ويحاول بناء الديار والضياع، ويتصارع من أجلها مع غيره، ويفعل المستحيل من أجل تحقيق رغبته وشهوته تلك، وكأنه خالد فيها لا يتزعزع، وأن جذوره منتصبة في الأعماق، ثم يدرك بعد فوات الأوان بأنها زائلة ،فينتابه الحزن الشديد :

ما مبتني الدار التي	**هو مسرع عنها الرحيلا**
وإن لم تنل خيرا أخا	**ك فكن له عبدا ذليلا**
وتجنب الشهوات واحذر	**أن تكون لها قتيلا**
فلرب شهوة ساعة	**قد أورثت حزنا طويلا[134]**

ويتعجب الشاعر من الإنسان الذي يبني قصور الخلود والبقاء والآمال والأحلام، وهو غافل عن حقيقة أنه آيل إلى الرحيل ليجد في استقباله ثمار أعماله.

وقد تبدو الدنيا مسفرة بغير نقاب على الرغم من سرعة زوالها وخداعها ، وتقبل النفس عليها فترتكب المعاصي ، وهي دائمة التطلع للمزيد ، وهذا يدل أن النفس ضعيفة أمام مغريات الحياة والدنيا قوية بأسلحة الزهد نتيجة التقوى، يقول سابق:

قد يوبق المرء أمر وهو يحقره	**والنبي بالنفس ينمي وهو يحتقر**
لا يشبع النفس شيء حين يحرزه	**ولا يزال لها في غيره وطر**

[134]– عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب ،ص 20

ولا يزال وإن كانت بهـا سعـــة لهـا إلى الشيء لـم تظفـــر بـه نظر[135]

ويلوم الشاعر في أبيات أخرى تهافت الإنسان على الدنيا ولذاتها وترك للذكر:

حتــى متى أنا في الدنيا أخو كلف فـــي الخدم منى إلى لذاتها صعـر

لا أرى أثرا لذكـــر فـــي خلدي والحبـــل في الحجر القاســي لـه أثر[136]

ونلاحظ هنا رغبة قوية عن الفكاك من أسر اللحظة الراهنة ،وارتباط الـسؤال بـصيغة "حتى متى "يدل على أن الفعل لم ينحبس في داخل ذاته بل سيظل مستقبلي ومعلقـا بـه حتـى يدركه وكأنه في سباق محموم مع ما تبقى من الزمن، وتتسم المواجهة بين الذات والزمن بعـدم هدوء الذات على مصيرها نتيجة كلفها بالحياة، ولكي تتغلب عليها وتقهرها يجـب أن تحـاول إدراك اللغز الذي تحمله وتبحث عن الحقيقة باللجوء إلى الذكر المؤدي إلى الزهـد والمحقـق للتقوى، ولقد روى الجراوي في كتابة صفوه الأدب المعروفة بالحماسة المغربية هذه القـصيدة التي تبين أن الشاعر اهتدى أثناء بحثه وتأمله إلى أن النفس الكلفة بالدنيا تكمن سـلامتها فـي تركها لها وكل ما فيها، ؛لأن كل ما يجمعه من أموال ويبنيه من قصور ودور سـوف يعـود لغيره وككل شيء في هذه الأرض سيفنى، وقد اختص الشاعر ظروف الزمن بالليل دون النهار لأنه ستر له، وبالتالي فهو ستر للدنيا والحياة، وهذه دلالة رمزية إيحائية لطيفة:

النفـــس تكلــف بالدنيا وقــد علمت أن السلامـــة منهـــا تــرك ما فيها

والله مـــا قنعـــت نـــفس بـــما رزقت مـــن المعيشـــة إلا ســوف تكفيها

أموالنــا لـــذوي الميــراث نجمعهــا ودورنــــا لخـــــراب الدهــر نبنيها

قــس بالتجـــارب أحداث الزمان كما تقيــــس نعـــلا بنعل حيــن تحذوها

والله مـــا عبـــرت في الأرض قاطرة إلا وصــــــرف الليـــالي ســوف يفنيها[137]

ويصل في النهاية إلى دعوتنا لهجر الدنيا وطرحها والتفرغ للآخرة لما في الحياة مـن غي ونسيان للحقيقة :

---

[135]– المصدر نفسه، ص 7

[136]– المصدر نفسه، ص 7

[137]– عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 4

ولا تبطـــروا وهجروا الدنيا فإن لها　　غيـــا وخيمـــــا وكفـــر النعـيم البطر[138]

وهذا نص آخر لآبي القاسم الفزاري[139] يحذرنا فيه من الدنيا ، ويدعو الزاهد إلى التوجه إلى الله فيقول:

وإن ببابـــك اللهـــــم عبـــــدا　　مـــن الخـــذلان أصبـح يستجير

دعـــــاك وقـــد رجـاك فصنه مما　　يحــاذر ذو المراقبـــة الجـــــذور

ولا تسلمــــه للدنيـــــا فتهوي　　بـــه منهــــا بطـــــون أو ظهور

سلامتهـــا وإن دامـــــت سقـــام　　ونعمتهـــــا وإن راقـــت غــرور

ومرعاهـــا لراعيهـــــا وخيـــــم　　وكثرتهـــــا لمكثرهـــــا يسيــــر

تســــر المــــرء يومـــا ثم تغدو　　فتسلـــــب مــــا أتاح لـــه السرور

وإن وانتــــك إقبــــالا ونعمتـــي　　فعقباهـــــا الفجائــــع و الصبـور

وكـــــل الخيـــر فيهــا مستعار　　وســـوف يــــرد ذاك المستعيــــر

وإن عزيزهــــــا عمـــــا قليـــــل　　ذليـــــل و الغنــــي بهـا فقيـــر

وكـــــل مؤمـــــل أمـــــل طويل　　وعمـــــــر لــــــو تأملـــه قصيـــر[140]

يقول في هذا الشعر إن مغريات الدنيا كثيرة، وصعبة، والإنــسان ضــعيف أمامهــا،ولا يستطيع مقاومتها وقد تصيبه الخيبة ،وهو يحاول الحصول عليها فتخذله، فلا يجد مفرا ومهربا منها إلا اللجوء إلى الله، فرحمته وعفوه تبعث على الراحة والطمأنينة التي كان يبحــث عنهــا الإنسان ،و يدعو الله ويرجوه (دعاك وقد رجاك)،ونتنقل إلى شاعر آخر ونظرته للزمن والحياة

[138]– المصدر نفسه، ص 8

[139]– اسمه الكامل على أصح الروايات، أبو القاسم بن عمر بن إبراهيم الفزاري بفتح الفاء ثم زاي، نسبة إلى فزارة بن ذبيان، اللباب: 229/3، عرف به وجمع شعره الأستاذ محمد اليعلاوي في فصله المعنون شعراء إفريقيون محاضرون للدولة الفاطمية، المنشور في حوليات الجامعة التونــسية، ع10، 1973، ص119، 141. ينظر هامش المالكي، رياض النفوس، ج2، ص302.

[140]– المصدر السابق، ص 490، 491، وينظر إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 267، 268.

التي تتسم بكثير من التشاؤم ، فتراه سيستقبل القرن الرابع شاكيا من الدهر،بل هو شر الأزمان في رأيه ، وهو من الشعراء المعمرين إنه سعيد بن الحداد[141]:

مازلـــت مـــن حادثات الدهر معتجبا	**حتــــــى انقضى عجبي بعد الثلاثمائة**
لا بـــارك الله فــــي عام وفي سنة	**كانــــت لشـــر زمان كـــان محبته**
عـــادت أسافلــــه طـــرا أعاليه	**ولا أعالــــــــي إلا وهـــــــــي منكفئـــة**[142]

تكشف هذه الأبيات عن إحباط وإحساس بالصدمة إزاء هذا العالم الذي تقوضت فيه القيم الإنسانية بعد أن استفحل الفاطميون واستقام لهم الحكم، وكل ما ارتكبوه من قمع ومجازر ضـــد معارضيهم فغدا بذلك الزمان من أتعس أيام عمره الطويلة، واستعمل كلمة الدهر دون الـــزمن ليدل على طول تعميره الذي أوصله لحضور تولي الشيعة وحكمهم المستبد، ولعـــنهم للرســـول والصحابة الكرام، وكل ذلك أدى إلى سخطه على زمانه (لا بارك الله فـــي عـــام...)، وكمـــا اشتكى سعيد بن حداد من الزمان فقد اشتكاه محمود بن سليمان القطان[143]:

لا تطمئـــــن فـــإن الناس قــــد حالوا	**واقبـــــض لسانــــك عما قلت أو قالوا**
وأحذر زمانــــك إذ أخرت عـــن زمن	**بــــادي النصيحة إما ملـــــت أو مالوا**
وبك الدماء علـــــى ما فات مـــن زمن	**أعلـــى الفضائـــــح آداب وأفضـــــال**
وامتـــــع بجلسك إن تقبـــل نصيحتنا	**أو تـــصمتـــــن فمـــــا يعنيــــــك تسأل**[144]

إن هذه الأبيات والأبيات التي سبقتها توضح ما آل إليه المجتمع والحياة بعدما رفرفـــت رايات الفاطميين، وموقف بعض الزهاد المغاربة منهم ،ومن مذهب الشيعة[145]،كمـــا أن كلمـــة

---

[141]– أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الغساني مولاهم، يعرف بابن الحداد، مولده أو قالوا 219 "ويقال 217 هـــ، توفي سنة 302 هـــ، كان عابـــدا زاهدا ورعا، مجاب الدعوة، له مقامات مشهورة مع بني عبيد (الفاطميين)، ينظر: القاضي عياض، تراجم أغلبيـــة ص 359، 363، المـــالكي، ريـــاض النفوس، ج2، ص 57، 115"، أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 248.

[142]– المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 110، 111، وإبراهيم الدسوقي، جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 115.

[143]– كان ذا أوصاف جليلة وظهرت له إجابات وكرامات،وهو أخو ربيع بن سلميان بن عطاء الله القطان، الذي كان مـــن الفقهـــاء المعـــدودين والعبـــاد المجتهدين والنساك عالما بالقرآن وقراءته وتفسيره ومعانيه، ومن أهل الورع والدين متعينا بالمسائل والفقه، ينظر ترجمة ربيع القطان في طبقات علمـــاء إفريقيا وتونس، ص 109، 245 ورياض النفوس، ج2، ص323، 346. وترتيب المدارك، ج3، ص323، 332. وفي ترجمة محمود القطـــان، ريـــاض النفوس، ج2، ص 346، 349، نسبة الأبيات لمحمود في رياض ولربيعة القطان في ترتيب المدارك، وفي هذا يقول محققي الرياض (أن الأمـــر اشـــتبه على القاضي عياض في ترتيب المدارك فنسب بعض أخباره وحكم وأشعار محمود لربيع). ينظر هامش رياض النفوس، ج2، ص346.

[144]– رياض النفوس، ج، ص 34، وترتيب المدارك، ج1، ص 327، وشعر المغرب حتى خلافة المغرب، ص 116.

الزمن ترددت كثيرا في أشعارهم ، ولربما لا تكاد تخلو قصيدة منها وهذا شيء طبيعي، فقصائد الشعر القديم لم تخل منها أيضا على الرغم من أنها "لم تكن كثيرة الشيوع في الشعر الجاهلي إلا أن معناها كان شائعا بكثرة فخذ كلمة الليالي، والأيام والساعات ..." [146].

وقصيدة أحمد بن أبي سليمان تشمل على الزمن بمعناها الأيام التي لها صرف فهي دائمة التقلب من غنى إلى فقر، ومن يسر إلى عسر، ومن فاجعة إلى أخرى، لكن الشاعر أدرك الداء وتوصل للدواء، فبعد إدراكه لحقيقة الدنيا والزمان، وتضافرهما ضده–الحياة تراوغ الإنسان مستعينة بالزمن–فما كان من صاحبنا إلى أن استخدام ضدها نفس السلاح أو السلاح نفسه ألا وهو الصبر باعتباره زمن نفسي، فالإنسان يحتاج فترة من الزمن حتى تتعود ذاته على ما تحب أو تكره ، ويجب عليه أن يفرح لشيء يحصل له في الدنيا، و ألا ييتئس لما يصيبه منها، فما كان منه إلا أن خلا قلبه من حبها وزهد فيها، فلم يجزع ولم يفرح ولم يضعف ولم يضجر أو يشكو:

ولم ألبس لذل الفقير ثوبا ولم أك في الغي بطرا فجورا

ولم أجزع، وللأيام صرف يعود عسيرها سهلا يسيرا

و كم أفرح لأن لها انقلابا يعيد يسيرها صعبا عسيرا

وإني وإن توالى فجعها لجلدا...صبورا

ولا أنا وإن نابت نائبة خضوعا و لا متضعفا جزعا ضجورا وإن[147]

وفي تتداول المسرات والأحزان والأتراح والأفراح تكمن حكمة الزاهد من الدنيا التي يقول عنها أحمد بن نصر[148]:

لا يعجبك يا فتى حسن فرش ومتكا

إن للعرس فرحة بعدها النوح والبكا[149]

---

[145]– عد إلى رياض النفوس ج2 لتجد فيه أبيات لبعض الشعراء في هجائهم لبني عبيد الله كابن القتار وأبو القاسم الفزاري ص 494، 495، وأنظر أيضا ص 346.

[146]– صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، ص35.

[147]– المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 512، والعربي دحو، الشعر المغربي ص 196، 197.

[148]– أبو جعفر أحمد بن نصر الفقيه التاهرتي،كان من الفقهاء المبرزين، والحفاظ المعدودين لا يدانيه في ذلك أحد في زمانه وله مناقب جليلة توفي سنة 314 هـ،ينظر الرياض، ص 183، 187، وطبقات علماء إفريقية وتونس ص 250.

وقال أحمد بن أبي سليمان داود الصواف أيضا:

ألـــم تـــر أن الدهـــر أوقر أهله همومـــا ، وأن العيـــش صار منكدا

فمـا حـــل يـوم فيـه إلا بفجعـــة وأنـــت لأخـــرى فيـــه منتظر غدا

ومـا فرحـــة إلا ستصبـــح ترحة و مـــا صاحـــــب إلا سيـــصبـح مفـــردا[150]

ويقول سابق المطماطمي:

فمـــا صفـــا لامــرئ عيش سر به إلا ستتبــــع يومـــــا صفـــوة الكدر[151]

وهكذا فإن الصفاء لا بد أن يتخلله الكدر، وكما تعقب الفرحة والسرور ودمـــوع الفـــرح ودموع الحزن والسعادة والطمأنينة والمخاوف والهواجس ما يعكر صفو الحياة بالهموم التـــي تتعلق بالمصير المجهول الذي يخشاه الإنسان غير الزاهد ويرتاب منه.

ب ــ اقتران هاجس الزمن بهاجس الشيب والشباب:

لقد شغل المشيب والشباب حيزا من الشعر المغربي مثـــل أقـــدم عـــصوره ولا غـــرو فإحساسه بوطأته إحساس إنساني، ومن الطبيعي أن يستمر هذا الشعور فـــي ســـائر العـــصور والأمصار، وإن تخللته السمة الإسلامية في ثنايا صوره كسائر شعر التأمل الزهدي ، فهذا أبـــو العرب[152] أحمد بن محمد بن تميم صاحب كتاب طبقات علماء إفريقية يشكو فقده الشباب بعدما أعياه الكبر:

ضعفـــت حيلـــتي وقـــل اصطبـــاري وإلـــى الله أشتكـــى كـــل مـــا بي

وهـــن العظـــم بعد أن كـــان صلبا وفقـــدت الشبـــاب أي شبـــاب

ولقـــد كنـــت والشبـــاب لباســـي أسحـــب الذيـــل عابثـــا في الثياب

وتراني أمـــس كالغصـــن حسنـــا وقـــذ لـــي كمثـــل ريـــش الغراب

149– المالكي، رياض النفوس، ج2،ص 186، والعربي دحو شعر المغرب ص 178 والقاضي عياض، تراجم أغلبية، ص 369.

150– المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 509، براهيم الدسوقي، وشعر المغرب حتى خلافة المغرب، ص 143، والعربي دحـــو، شـــعر المغـــرب ص 193، 194.

151– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 6

152– أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام توفي سنة 333هـــ، كتب رضي الله عنه بيده كتب كثيرة، أكثر من ثلاثة آلاف كتاب، وكـــان ضـــابطا كثير اليقين لكتبه، عالما بما فيها، وكان يصنع الشعر ويجيده، ينظر الرياض ص 306، 312، طبقات إفريقية تونس ص 23، 31.

وتــرى الغانيـــات نحــوي صــورا يتراءيــن مرجعــــي وذهابـــــي
ولقــد كــــن يشتهيــــن حديثـــي فادعهـــــــــن خـــــــشيــــة العقـــــاب[153]

ويبدأ الشاعر كلامه بإظهار ضعفه وعجزه ونفاذ صبره، فهو لا يجد حيلة يبــث منهــا همومه وأحزانه إلا الشكوى لله لأن الشكوى لغيره مذلة ولا طائل منها، وفي البيت الثاني يشير إلى مأساته التي لن تكون غير (الكبر) ،ومن علاماتها وهن العظــم وســقم الجــسم وانتفــاء الصلابة والقوة التي هي رمز الشباب، و يبدي تحسره على فقده ، ثم ويعود إلى التغني بالزمن الأخيلي البائد حيث النساء الحسان والقوة والعنفوان، وما التغني بالماضي إلا " رحلة يبدأ بها الشاعر...ثم يتوغل داخل الذات الفردية والجماعية من أجل معرفة الــسر وعلاقــة الإنــسان بالزمن، وفي هذه الإطلالة يكون الشاعر في موقف ضعف حتى يذرف الدموع"[154].

وما هذا الضعف المنبثق من إحساسه الحاد بالرغبة للانعتاق من زمن الشيخوخة والعودة إلى زمن الشباب إلا تجليا لتلك العاطفة القوية المشدودة إلى الزمن الماضي، ثم يصدم باستحالة رجوعه فتعيش الذات الشاعرة دراما حقيقية ، وبذلك جاءت الأبيات بكاء وتحــسرا وشــكوى. يقول صاحب كتاب شعر المغرب حتى خلافة المعز:"إنه بادي الحسرة على فقد الشباب لا حيلة ولا صبر على الواقع فإلى الله المشتكي ضعف البدن بعد قوة وذهب الــشباب البــديع، زمــن الخيلاء واستواء القامة، وسواد اللمة، واختلاب النساء اللائي لم يكن يصرف عــنهن صـــارف غير مخافة الله"[155].

وتعكس هذه الصورة موقف الشاعر من الزمن، فالإنــسان لا ريــب سيــصلى حرقــة الشيخوخة، وهذا يوضح أن نظرة شعراء الزهد إلى الزمن لا تختلف عن نظرة أي مؤمن تقـــي سواء كان مشرقيا أو مغربيا، لكنها تختلف عن نظرة الشاعر الجاهلي الذي لا يأبى الاستــسلام في قصائده ويواصل صراعه العنيف، ويزداد عمق إحساسه بمجرد أن يضعف جسمه، ويشتعل الرأس شيبا فيحس بعدم جدوى الحياة ،ويزداد اضطرابه كلما طالت به السنون.

[153]–المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 312، القاضي عياض، ، ترتيب المدارك ج32 ص 336، وابراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة، المعــز ص 417.

[154]– صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، ص 49.

[155]– إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 118.

وعلى الرغم من تجنبه النساء في شبابه مخافة الله الذي يوضح اعتدال الشاعر الزاهد، وتقـواه في شبابه لكن هذا لم يمنعه من التوجس من خاتمة مستقبله ومصيره ومآله الذي لا يعلمهـا إلا الله، فهذا عيسى بن مسكين[156] وهو من شعراء الزهد يتحسر من انقضاء شبابه فيقول:

لعمـري يا شبابـي لو وجدتـك   بمـا ملكـت يميـن لارتجعتـك

ولـو جعلت فـي الدنيا ثوايـا   ومـا فيهـا عليـك لمـا وهبتـك

فقدتـك فافتقدت لذيـذ نومـي   وطيـب معيشـي لمـا فقدتـك

ونحتـك وانتحـت عنـك دهـرا   فلـم تغـن النياحـة حيـث نحتك[157]

وتمثل هذه الأبيات انقضاء الشباب الذي يعد مصدرا للقوة في مقابلة الشيخوخة التي تعد مصدرا للوهن والضعف لهذا كانت حسرة الشاعر شديدة وبادية بوضوح في البيت الثالث لأننـا نحس أنه فقد الراحة والاطمئنان بفقده التمتع بلذة النوم والحياة.

ونتوجه إلى أحمد بن أبي سليمان الذي يضعنا هو الآخر في ثنايا نصوصه أمـام زمـن إنساني مفعم بتقلباته وتناقضاته يشكو من حاله بعد الكبر لفقده الشباب، فهو لا يضعنا أمام زمن وجودي بقدر ما يضعنا أمام زمن إنساني يؤدي به إلى توقف الخصوبة والنماء كنتيجـة لفعـل الزمن ، إذ يفتتح أبياته برؤية البرق وهذا نذير لما هو آت، لأن البرق يسبق المطر، ومـن ثـم فهو يصور توقد البرق ثم غياب لمعانه، وهذا البرق ما هو إلا رمز للـشيب، ولمعانـه رمـز للمعان بياض الشعر أما غيابه فهو نتيجة اختلاطه بالسواد ، وقرب أجل الشخص، ثم يدعو في البيت الموالي إلى الإفاقة من غفلته عن الزمن والاعتبار بمن سبق و تبدد وتشتت ، ثم يـذهب ليستذكر ويتذكر أيام كان شعره أسود وشبابه ،وفتوته حيث كانت نساء الحي يهمن بـه، وكـن قريبات منه بدليل منادتهن له بابن عمي، وأما والحال قد تغيرت، وقد غـزا شـعره الـشيب، فابتعدن عنه بدليل منادتهن بيا عمي:

أرى البـرق مـن نحو القريب توقدا   تغيـب طـورا لمعـه وتـرددا

---

[156]–عيسى بن مسكين بن منصور بن جريح بن محمد الإفريقي، من أهل الساحل، كان من أهل الفقه، والورع، مهيبا وقورا، وكان شبيه بـسحنون فـي هيبته، مولده سنة 214هـ وتوفي سنة 275، ينظر: ترتيب المدارك ص 212، 228، وطبقات علماء إفريقية ونـصوص ص 242 وتـراجم ص 252، 253.

[157]–القاضي عياض، ترتيب المدارك ص 226 ج3 ، وتراجم أغلبية ص 250، والعربي دحو، شعر المغرب، ص 175، 176 وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 115.

أفـــق أيهـــا الباكي المسائل منزلا	تشتـــت منـــــه أهلـــــه فتبـددا
كفـــي عجبـا أنـــا جهلناه ما خلا	ملاعـب ولـــدان ونومـــا ومرقـدا
ألفـت بـه غيـــراء إذا هـي ناهـد	وإذا كنـت مرمـــوق الزيـارة أمـرا
وكنـت قريبا إذا دعتني ابـن عمهـا	فلمـــا دعتنـــي عمهـــا كنت معبدا
وكـان نسـاء الحـي يهويـن طلعتي	ليالـــي كـــان الشعر أرجل أسـودا
لبسـت بـه ثـوب الوقـار وكلمـــا	بليـــت وأبليـــت الشباب تجـــددا
جـزى الله طـول العمـر خيـرا فإنه	هدانـــي إلى التقـوى ودل أرشـــدا
ولمـــا نحـــا عمـري ثمانين حجة	وأيقنـت أنـي قـد قربت مـن المدى
تركـت تكاليـــف الحياة لأهلهـــا	و جانبتها طوعـــا جانبـي الـــردى
رأيـــت حليـــم القـوم فيهم مقدما	ومـــن نـــال علما نال جاها وسؤددا
ويحيـــا مـــن الزلفى غدا في معاده	يا ضعـــاف ما يحيـــا الذي قد تعبدا
أراني بحمـــد الله فـــي المال زاهدا	وفـــي شـرف الدنيا وفي العز أزهدا
فخليت مـــن دنيـــاي إلا ثلاثـــة	دفاتـــر مـــن علـــم وبيتا ومسجدا
غنيت بهـــا عـــن كل شيء حويتة	وصرت بـــه أغنى وأفتى أو أسعـدا
وقـــد ذم قـــوم ما فعلـــت جهالة	فعـــدوا مـــن الجهال والجهل أحمدا
ولو فهموا أمري ورأيي لأبصـــروا	وقالـــوا رأي رأيـــا رشـيدا مسددا[158]

وما إن تخلو الذات بنفسها حتى تستحضر صور الماضي الغائب فتهيج الذكرى ويعظم الأسى ويتضاعف الإحساس بالفقد؛ ويترك ذاك الفقد أثرا في حياته، ولكن ليس بنفس الكيفية، والقدر الذي أثر فيه على الشاعر الجاهلي الذي يرى فيه رمزا لذهاب قوته ،و من ثم لا يستطيع مواجهة الفناء الأمر الذي يدخله في صراع رهيب مع نفسه والزمن ،ومما يزيد من مأساته جهله بمصيره ،فيعيش دمار الكآبة، وهذا بخلاف الشاعر الإسلامي وبصفة خاصة الزاهد فيجعل من الشباب ومجيء المشيب كشفا لحقيقة الدنيا ،وسر الكون والوجود،فطمئن ذاته، ويهدئ من روعه، فيزداد تقوى على تقوى، وتلبسه الوقار، ويصبح قادرا على تدبر الأمور

[158]، القاضي عياض،ترتيب المدارك، ج3 ص244، 245، وتراجم أغلبية ص274، 275،والعربي دحو، شعر المغرب، ص193، 194.

بروية وحكمة وتعقل، فتصير لحياته معنى جديدا وحياة أخرى ،ومهمة دعوية متجــددة تختلــف عن السابق، ويتضح له الطريق الصحيح والسليم أكثر ،ويتعمق الأمور ليعرف أكثــر طريــق الهدى والتقوى .

إن العودة إلى الذاكرة التي هي أشبه بوعاء ضخم يستوعب الماضي كله، والحديث عنه بما تحمله من ذكريات طواها الزمن، ومحاولة استرجاع ما ضاع منه، فالماضي الإيماني هــو نقطة البدء، وعليه يتشكل الحاضر الشعري، وهذه الجدلية الزمنية تخص شعر الزهد ، وفــي مقابل ذلك فإن الشاعر الآخر تختلف فيه جدلية الزمن والشعر ،فهو كما يقول أدونيس:" الــشعر العربي القديم هو حركة ابتعاد مستمر عن الأصل الماضي، ولــيس الحاضــر والمــستقبل إلا انحطاط على النموذج الأصلي الذي هو الماضي لهذا كان دور الشاعر هو أن يمــلأ الحاضــر المستقبل بما يرتفع بهما إلى مستوى الماضي الأصل"[159].

وهكذا فإن العلاقات بين الأزمة والشعرية تختلف من نزعة إلى أخرى ،فما هو مأساوي منه عند نزعة يعد حسن ختام عند نزعة أخرى ، وهذا ما نلاحظه عند هذا الشاعر الزاهــد الــذي جعل من دلالة زمنه الأول الماضي وسيلة استكشاف لتأمل زمنه الثاني الحاضر، ومن ثم ينشأ تخالفا دلاليا بين الزمنيين أو تآلفا ،وفي كل الحالات فإن الشاعر الزاهد قد يصبح زمن الشيب أسعد من زمن الشباب إذا اهتدى فيه أكثر إلى طريق التقوى ،وزاد زهده أكثر في كبره إلا في ثلاثة : العلم والبيت والمسجد، وهذا ما يجعله يحس بالاطمئنان في آخر أيامه، وهذه الــصورة التي رسمها الشاعر المغربي الزاهد هي نفس الصورة التي رسمها أبو العتاهية للزاهد يقول:

رغيــــف خبـــــز يابــــــس	**تأكلـــــــه فـــــــي زاويـــــــة**
وكــــــوز مـــــــاء بـــــــارد	**تشربـــــه مـــــــن صافيـــــــة**
و غرفـــــــــة ضيقـــــــــة	**نفســـــك فيهـــــا خاليـــــــة**
أو مسجـــــــــــد معـــــــزل	**مستنـــــــــــــدا لساريـــــــة**
معتبـــــــر لمـــــن مضـــــــى	**مـــــن القـــــرون الخاليـــــــة**
خيـــــر مـــــن الساعـــــات	**فـــــي القصـــــور العاليـــــــة**

[159]، أدونيس (علي أحمد سعيد)، مقدمة الشعر العربي، دار العودة بيروت ط3، 1979، ص 199.

تعقبهـــــــــــــا عقوبـــــــة تـــــــصلـــــى بنــــــــــــار حاميـــــــــة[160]

ونجده في نص آخر وهو في الثمانين يكرر فيه تلك المعاني الخاصة بسن الـشيخوخة ،ووقعها عليه وعلى أقرانه يقول:

ولمـــا محـــا عمري ثمانين حجة هجـــرت تكاليــف الحياة لمـــا فجا

ولاقيت أترابـــــي: فأحـــدب ماشيا وآخـــر مكفوفـــا، وآخـــر أعرجا

وخالــط عينـــي العشـــا بعد حدة وصـــار لسانـــي إن تكلـــم لجلجا

وفــي أذني وقـــر، وظهري به حنا ومـــا ابتغى منهـــا أنـــا فيه مخرجا

رأيــت الذي قد كنت فيه لدى الصبى مـــن الشيـب والشيخ أشنا و أسمجا

وأصلـــح أزمانـــي أو إن زمانـــي لزمــت العصـــا من بعد مشيي تبرجا

وأصبحــت ممـــا كنت أبغي من الغنى إلـــى الزهـــد في الدنيا الدنية أحوجا

وحبست نفسي بيـــن بيتي ومسجدي وقـــد صـرت مثــل النـسر أهــوى التعرجا[161]

تصور الأبيات ما يؤول إليه الإنسان عند الهرم، فقد انتفت عنه كل مظاهر القوة وبثـت فيه مظاهر الوهن بحيث: "ترك الزمن آثاره على وجدان الشاعر وبصره، فقد فعل الشيء ذاتـه مع سمعه ،وكما تحول البصر من الحدة إلى الضعف فقد تحول السمع كذلك، فأصبح غير قادر على السمع والرؤية بعد أن كان يسمع الصوت على بعد ويرى الأشباح في ظلمة الليـل، إنـه التحول الحاد، أو التحول من النقيض إلى النقيض، وأكثر ما يؤرق الشاعر ويعمق مأساته هـو خضوعه لهذا التحول، وإحساسه بأن الزمن ،ومفارقة عصر الشباب الذي طالما كـساه أرديـة الزهو والصحة والمغامرة، وتحول إلى شيخ هرم لا بكاء يسمع أو يـرى ولا يجـد الأنـس أو الأليف"[162]،ولقد استعدى أيضا الزمن على أقرانه ،وأفراد أسرته فمنهم مـن أصـابه الـدهر فاحدودب وتقوس ظهره ، ومنهم من أصبح أعرج يستعين بعصا ، وآخر مكفوفا...

---

[160]– فؤاد البستاني ، أبو العتاهية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص 304، 305، وعز الدين اسماعيل الرؤيا والفـن فـي الـشعر العباسـي المكتبـة الأكاديمية ط1 ص 285.

[161]–المالكي، رياض النفوس، ص 509، 510، العربي دحو، الشعر المغربي ص 195.

[162]– فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة، الناشر، منشأة المعارف بالإسكندرية، جلال جزي وشـركاه، مطـابع القـدس الاسـكندرية، 1997، ص48.

ومادام مرور الزمن ورفضه للشيخوخة لا طائل من ورائه، فالإنسان مرتبط ارتباط وثيق بـــه، وأنه ليس حر في التخلص من زمنه أو بإمكانه ، أو مقدوره العيش طليقا في زمنـــه، فـــلا بـــد للاستسلام للقضاء والقدر ،وقد ينصرم الزمن الذي كان يملك فيه الشاعر غيـــر الزاهـــد إرادة الفعل وزمام الأمور ، ولا يرى في الشيخوخة غير زمن الجدب والخواء ،بينما الشاعر الزاهـــد يزداد قوة أمام كل ذلك بفضل زهده وتقواه.

وهذه صورة أخرى تصور حالة الشاعر الزاهد حين يؤول حاله إلى الشيخوخة وتقبلـــه لواقعه الجديد، وهي صورة تختلف بحسب اعتقادي عما عهده الناس بتغلب الفزع علـــيهم عنـــد المشيب يقول:

دعيـــت معلمـــا إذا صرت شيخـــا	**وأيـــــام الـــشبيـــة كنـــــت بـــــورا**[163]
لئـــن كـــان المشيب اتخـــذ نذيـــرا	**فـــإن ســـوف أدعـــوه بشيـــرا**
فأهـــلا بالمشيـــــب لنـــا لباســـا	**وقـــارا نستزيـــــده وقـــــورا**
وجـــزت تسعـــة وسبـــعين عامـــا	**وقـــد ضمنـــت أصحابـــي القبـــورا**
وصيرت كراكـــع يمشـــي دبيبـــا	**وأصبـــح خاسيـــا بصبـــري حسيـــرا**
وألقـــى الدهـــر وقـــرا فوق أذني	**وفـــي بدنـــي ونطقـــي فتـــورا**
وفـــي فقـــه الفقيه أبـــي سعيـــد	**رأيـــت الحـــق متضحـــا منـــيـــرا**
لزمـــت فنـــاءه عشريـــن عامـــا	**أغاديـــــــه وأغـــــشـــاه هجيـــــرا**[164]

نلاحظ بأن رؤية الشاعر الزاهد تخالف رؤية الشعراء الجاهلي الذي، يهولـــه المـــشيب، ويحن إلى عهد الشباب لكون المشيب نذير لقرب الأجل والفناء كما أثبت ذلك الـــشاعر (لـــئن كان المشيب اتخذ نذيرا) فهو بالنسبة له بشير سعد وليس نذير شؤم (سوف أدعوه بشيرا) لـــذلك نراه في البيت الموالي يهلل ويرحب بمجيئه فقد أكسبه الاحترام والوقار و التجربـــة و الحكمـــة والرأي السديد،بينما يرجح أكثر الدارسين بأن رؤية الشاعر غير الزاهد أمام صيرورة الـــزمن تتجلى ذاته" وهي حالة ضعف وعجز بعد أن فارقت زمن الفتوة والشباب وتحول النظـــر مـــن

163– هناك بيت لأبي العلاء المعري يمكن أن يكون قد عارضه بها يقول: دعيت شيخا، بعدما * سميت في زمن فتيا، ينظر: اللزوميـــات دار صـــادر، بيروت، مج2، ص 249.

164– القاضي عياض، ترتيب المدارك ج3 ص 244، تراجم أغلبية ص 273، والعربي دحو، شعر المغرب ص199.

القوة إلى الضعف، وهو دالة موحية إذ يرتبط بالرؤية التي لا تنسحب على الجسد فحسب بل تنعكس على المرئيات كلها، وتتعمق مأساة الشاعر وإحساسه بالزمن والحياة، فيدرك في لحظة كشف عميقة، ما لم يدركه الآخر، وهو أن الصحة والسلامة تحملان في حقيقتهما بذور الداء لأنهما قابلتان للتحول أو بمعنى أكثر دقة مرهونتان به، لأنهما تؤديان حتما إلى الهرم والشيخوخة"[165].

وتوصل أيضا أن أحسن مؤدب للإنسان الشيب الذي يدل على أن الشخص مرت عليه وبه حوادث وتجارب كثيرة، يشيب من كثرتها أهوالها وتفكيرها وبعد أن خبرها توصل إلى أن أصبح ينظر للأمور بعقلانية وتدبرا وإحقاق للحق،كما يقول أبو القاسم الفزاري:

تلفع في مفارقه القتير   وقوس غصنه اللدن النضير

وليس يؤدب الإنسان شيء   كتأديب الحوادث إن تدور[166]

ويروى بأن استعداد هذا الشاعر لقبول واقعه جاء بعد إطلاعه على فقه أبي سعيد الذي أنار قلبه ودرب حياته ،ووجد فيها ضالته المنشودة في الكون ،وأصبح بفضله متفقها بأمور دينه و يمكن لنا أن نزعم أن أبياته هذه كانت نتاج مرحلة متأخرة من حياته (وجزت تسعة وسبعين عاما) وهي مرحلة استسلم فيها الشاعر للشيب بعد عجزه عن إعادة أيام الشباب، فكانت هذا تعبيرا عن قبول المرحلة جديدة من حياته بكل اطمئنان وإيمان ،ومن ثم يصبح لا يجدي معها الحنين ولا ينفع معها التمني، وبالتالي هذا المديح للشيب وتفضيله عن الشباب ما كان إلا للتوافق مع مرحلة جديدة من أخريات أيامه التي لا رجعة فيها للوراء، وسيحاول فيها زرع تلك الأرض البور بالورود والأزهار التي تعبق منها الرائحة الزكية والأشجار التي تثمر منها الأعمال الخيرة ليتلذذ بمذاقها وطعمها ورائحتها بعد اندثاره النهائي ، مع أن هذه الأبيات نتاج لمحاولة تخفيف وقع الإحساس على فقد الشباب وقرب الآجال إلا أنها أتت على صورة طريفة، تنم عن رقي عقلي، وجهد فكري، ، واستند إلى حسن التعليل ، والنظر في الأمور بعيدا عن نزعات الشباب اللاهية، ومن ثم فالشباب ليل وظلام حالك يضل فيه صاحبه ، والشيب صبح ونور يهديه ، وهذان البيتان من أصدق ما يصف به حاله وندمه على أيام الصبا:

يا لذة قصرت وطال بلاؤها   عند التذكر في الزمان الأول

165– فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة ص 47.

166– المالكي، رياض النفوس، ج2، ص490، وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 267.

لمــــا تذكرهــــا وقــــال ندامــــة   مــــن بعدهــــا: يــا ليتنــــــي لــم أفعل[167]

يقول عيسى بن مسكين مصورا حالته بعد الهرم وتحسره وندمه على فقد الشباب، بحيث تراه إن أراد القيام يتكئي على يده، وإن مشى يتكئي على عصاه:

لمـــــا كبــــرت أتتني كل داهية وكل   ما كــــان مـــن زائــــد نقصـــــا

أصافـــح الأرض إن رمـــت القيام وإن   مـــشيــت تــــصحبني ذات اليميــــن عصا[168]

هذا الموقف من الشيخوخة، وشكواه يتفق مع الشعور الإنساني بالشيب فالضعف يتخلـــل حياته، والفناء يسري في صميم وجوده وكيانه ، وليس أكثر تعبيــرا وجمـــالا مـــن صـــورة المصافحة للأرض الموحية بمقدار الضعف الذي وصل إليه ، وهي مأخوذة من التراث المغربي (مقابر ومدافن المغاربة)،وكذلك الاقتراب الشديد من الأرض وفيها تلميح لموقف الإحساس بدنو الأجل و العودة إليها ليضمه اللحد ويتوسد التراب ،ويستوعب الشاعر الزاهد هذا الموقف بفضل تقواه وثقته في الله ،وعكس هذا التيار يقول محمد النويهي عن هذا الموقـــف عنـــد الـــشعراء الجاهلين:"فمن وراء هذا الشعر يكمن إحساسهم بالزمن ومأساة انقضائه إحساسا قويا بليغا عظيم المرارة، تجلى هذا الإحساس في مختلف موضوعاتهم الشعرية في وصفهم لرحيـــل المحبوبـــة وانفصام الصدقات، وتبدد الشمل وخراب الديار التي كانت آهلة...والشباب الذي يولى ســـريعا بكل عنفوانه ومباهجه وملذاته، وتقلبات الصراع بين الإنسان والإنسان من نصر إلـــى هزيمـــة ،ومن حياة إلى موت"[169]،ولعيسى مسكين نص آخر يصور فيه أيام كان شبابا ،ثم يتحسر عـــن ساقه التي أصابها السقم والوهن:

أصـــــاب الدهـــــر منـــي عظم ساق   بــــه قــــد كنـــــت مشـــــاء جليدا

إلـــــى الفقهـــاء أنقلهـــــا وأطـــــوي   بهــــا للحاجــة البلـــــدا البعيـــــــدا

إذا رجــــــل الفتـــى يومــــــا أصيبــت   وطـــــال سقامـــه ألــــــف القعــــودا

---

[167]– القاضي عياض، ترتيب المدارك ج2 ص 245، وتراجم أغلبية ص 274، والعربي دحو، شعر المغرب ص 193.

[168]– القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص249، ترتيب المدارك، ج3، ص 226، دحو، الشعر المغربي، ص 175.

[169]– محمد النويهي، الشعر الجاهلي:منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ج1، ص 423.

وصــار لبيتـــه جلســا وأمســى مــــن الأخــــوان منفــردا وحيـــدا[170]

يصور الشاعر في هذه الأبيات ما أصابه في كبره من هموم الوحدة والهواجس والفراغ والصمت الموحش والاغتراب النفسي وبخاصة زمن الهرم بعد أن يتفرق من حولــه الأحبــاب والخلان ،وما هذا البكاء على الساق ماهو إلا بكاء على الزمن البديع الجميــل وبكــاء علــى الشباب الذي راح، وهذا أمر طبيعي عند الشعراء كافة،ولكن الشاعر الزاهــد يختمهــا بتقبــل القضاء والقدر بنفس مؤمنة،ومن هذا القبيل نجد بكر بن حماد[171] يرثي نفسه قبل وفاتــه وقــد دخل عليه بعض أصحابه فلم يستطيع القيام فأنشد يقول:

أحبــو إلى الموت كمــا يحبو الجمل قــد جــاء مــا لــيس لـــي فيــه حيل[172]

إن الشاعر صار في حال لا يستطيع معها دفع الموت بحال من الأحوال لهرمه، وضعفه وعجزه عن التصرف، وما دلالة صورة الحبو إلا نذير وناقوس قرب أجله، وأبو العرب أحمــد بن محمد تميم يبكي في شعره نفسه بعد أن عم الشيب مفرقة بكاء الصابر المحتسب لله:

أ إن سجعـــت أيكيـــة بتغـــرد بكـيت بدمــع و أكــف متــــردد

وهاجـــت بي الأحزان حيت تجاوبت حمائـــم ورق فاستبكيــن تجلـــدي

حمام بكـــى مــن غير دمع جرى له فهــاج البكاء مــن حائل الدمع مسعدي

فمـــا تنسى الأيام لـــم أنــس حبتي ومجلسنا والشمـــل لـــم يتـــبدد

ولمــا رأيت الشيب عمــم مقرفـــي ففكـــرت فعـــل الخالــق المتزهــد

وأقصرت عــن ذكــر الصبى وهجرته وصبـــرت فريــــدا لا أبـــالك أوجـــد[173]

---

[170]– القاضي عياض، ترتيب المدارك ج3، ص226، تراجم الأغلبية ص249، 250، العربي دحو، شعر المغرب ص 175.

[171]– هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن إسماعيل الزناتي أصلا التاهرتي نشأة ودار ووفاة فقيه محدث شاعر ولد بتــاهرت عــام 200هـــ، وبعد أن درس ببلده رحل إلى المشرق حيث أخذ عن المحدثين وفي الرجوع توقف بالقيروان أين تعرض له بعض اللــصوص فقتلــوا ولــده وجرحــوه، ارتبطت أخباره بالخليفة المعتصم، وبالشاعر دعبل الخزاعي والحسن البصري، توفي سنة 296هـ، ينظر: أبو العرب، طبقات علماء إفريقيــة وتــونس، ص112، 246، والدار الوقاد، ص43، 53، وعن العربي نبوي، محاضرات في شعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات، الجامعــة –الجزائــر 1983، ص 128، 141، ومحمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع في الجزائر 1981، ص33، 37.

[172]– طبقات علماء إفريقية وتونس ص246 والدر الوقاد ص 22.

[173]– المالكي، رياض النفوس، ص 311.

إن مثل هذا البكائيات تظهر جليا في مقدمات الشيب والشباب عند الشعراء الزهاد التي أتت بعد طريق إيماني طويل أو طارئ، وليست مثل تلك المقدمات لشعراء من غير الزهاد حتى وإن بكى فيها شبابه وجزع من مشيبه فهو لا يتورع في استعراض " تاريخ حياته الحافل بالفتوة والبطولة من تسلل إلى النساء وخروج للصيد ورحلة في الصحراء، وقرى للضيفان ومنازلة الأقران، وتهالك على مجالس الخمر والميسر"[174].

ويلاحظ الاستعراض نفسه من شاعر زاهد لهذه الصور الماجنة لفترة الشباب لكن القصد يختلف عند الشاعر الزاهد الذي يتوخى منها تنبيه الغير، وتذكيرهم من سوء الفعل ، وأصدق من يمثل هذه الظاهرة أبو عقال[175] الشاعر الماجن التائب الذي يعيدنا في قصائده لماضيه لنعيش معه تلك الفترة من شبابه وكأنها وقعت له في تلك اللحظة، فنغوص معه في رحلته تلك ،و يتذكره وتذكره لمغامراته لينهيها باستهجانه لهذه الأفعال، وإعلانه للتوبة:

أيا من يرى الرشد في غيه   وينخبط في الداجيات القتادا

تجاف بنفسك عن حتفها   وخذ لأمانك منك القيادا

أجب داعي الله لا تعصه   فقد جاد بالنصح جهرا ونادى

و لا تله بالموبقات التي   أبادت بوائقها من تمادى

و أفقرت الربع من أهله   وأبقيت حلوف الندامى فرادى

وشتت الشمل بعد ائتلاف   فلم تبق للرائدين ارتيادا

بلوت الزمان ودست البلاد   ونافست كل شيء عنادا

شربت المدام وسست القيان   ورضيت الجياد ورعت الشدادا

أصيد الغزال وأم الرئال   بطرف أراه يجيد الطرادا

وصعلكت في البر والبحر دهرا   أخلف أهلي على حدادا

أسوم البعاد، وأهوى اللذاذ   وأظهر في الأرض مني الفسادا

174– حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، 1970 ص 229.

175 –هو غلبون بن الحسن بن غلبون، نشأته في القيروان العاصمة القديمة ورقادة العظمة المستحدثة، قال في الزهد فأحسن كان صاحب لهو وصبوة مع مروؤة وفتوة في الصبا، خرج من القيروان فأوطن الحرم وسكنه حتى مات وبغض الدنيا وتركها ولزم السهر وسرد الصيام، توفي وهو ساجد خلف المقام. ينظر رياض النفوس ج1 ص527، 545، إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شعر المغرب ص153، 167.

أروح علـــــــــــى هـــــــذا ذاك أديــــــم الـــسهـــاد، وأجفـــــوا المهاد[176]

إن القارئ لأبيات الشاعر وهو يعيد لأذهاننا ماضيه ويسرد وقـــائع مغامراتـــه القديمـــة يتراءى لنا داعيا إسلاميا زاهدا من الدرجة الأولى، وليس كبعض الـــشعراء الجـــاهليين الـــذين يعرجون بمعاني شعرهم نحو حقارة الدنيا بنغمة زهدية غير إسلامية على غرار طرفـــة الـــذي يقول عنه أحد الدارسين بأنه: "لا يعتني بالتفكير فيما بعد الموت الماورائية لأنه غارق في هـــذه الحياة سعيا منه في إشباع غرائزه حيث كان همه الأوحد هو ممارسة الوجود في الـــسعي وراء الملذات حتى لا يلحقه الموت الذي هو في سباق معه"[177]،وهذا موقف يختلـــف عـــن موقـــف الشاعر الزاهد الذي يقول عنه أحد الدارسين : "بوسعنا أن نقول ليس ذكر أبي عقال لآثامه في شعره من قبل الجهر بالسوء، ولكنه من قبيل التحدث بنعمة الله عليه، إذ كان على شفا حفرة من النار فأنقذه وبوسعنا أيضا أن نقول: إنما ذكر أبو عقال الآثام بعد النصح العاصي وتحذيره لكي لا يقنط العاصي وهو يرى الناصح كيف كان وكيف أصبح...ولكننا نميـــل إلـــى القـــول بـــأن النصوص التي على شاكلة الدالية تتلو التوبة، وتسبق نصوص التفكير فلأبي عقـــال...وضـــع خاص، كان شاعرا حاد الإحساس خفاق القلب مولعا بالمباهج فأقبل على الحياة يعب ويعب، ثم تملكه الشعور بالإثم، وأراد الخلاص لنفسه...ولقد كان من الطبيعي أيضا أن يخطر على بالـــه بعد العيش الخشن ...وهو في أول الطريق خواطر سيئة وغير مستحبة تنتمي إلى زمن رقـــادة والقيروان زمن اللحن والشمل فيستريح إلى أن يذكرها في شعره ذكرا مصفاة من الفحش"[178].

وهكذا تغير حال شاعرنا بعد أن تشبع قلبه بالإيمان وأدرك حقائق الأمـــور مـــن خـــلال تعمقه في الدين الإسلامي وتفقهه في الحياة ،وأصبح يتملك قلبه الإيمان والصبر والتوبة والنـــدم مما صدر منه زمن جاهليته:

إلـــى أن تناهـــت حـــدود القضاء وأنفـــــذ سلطانـــه مـــا أرادا

فجلـــي مـــن القلـــب إظلامـــــه وأنـــور مـــا كـــان منـــه سوادا

فألزمـــت نفســـي مـــدى صبرهـــا وخالفتهـــا فـــي هواهـــا عنـــادا

176– المالكي، رياض النفوس، ص539، 540، العربي دحو ص 200، 201 .

177– عبد الله فيدوح، القيم الفكرية والجمالية في شعر طرفة بن العبد، رسالة ماجيستر، إشراف عبد الغني شيخ جامعـــة وهـــران، ســـنة 1983، 1984، ص 58.

178– إبراهيم الدسوقي، جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 162، 163.

وباينـــت ما كنـــت ألهــو بــــــه فأمـــســــى وأصبــــــح عنــــــدي سهادا[179]

وما قلناه عن حاله يؤكده بعض الدارسين فيقول عنه :"يمضي الوقـت ،فتعتـاده حياتـه الجديدة وينهمك في المجاهدات ويوغل ماضيه في الزمن مستعبدا عنه، فتخف وطأة الخـواطر غير المستحبة أما الخواطر الشريرة فما تكاد تكون حتى يطردها ولا يفكر في ذكرها إن نظـم شعرا ثم يهاجر إلى مكة، وهناك ليتزوج ليقيم بينه وبين الخواطر سدا"[180]،ويعبـر عـن هـذا التحول وحالاتها ومواقفها شعرا فيقول:

أبصــــر بالقلـــب سبيـــل الرشــد فبايـــن الأهـــل معـــا والولـــــد

وجـــد فــــي السير إلــــى ربـــه مشمـــرا يطلـــب ملـــك الأبـــد

قـــد صـارت الدنيـــا بأقطارهـــا عليـــــه كالـــسجـــن فمنهـــا شــــــرد[181]

وبعد أن تحول واقعه وحياته إلى سجن كبير استطاع أن يفر منه، لكثرة آثامه، والشخص قد يدخل السجن لجرم اقترفه، ولا يخرج منه إلا بعد نفاذ القصاص، وهذه التصوير الجامع بين الحالين :حال العابث في دنياه الذي يعده تحررا من القيود الاجتماعية والدينية لكنه يصبح فـي رؤية الشاعر الزاهد الإسلامي التقي فقدا للحرية ،والحرية فك الذات من أسر ملـذات الـدنيا وسجنها الرهيب ؛، فما أعذب هذه الصورة التي تقدم الحقيقة بطريقة أخرى لكنها مقنعـة،ولا شك أن هذه الأبيات تقدم صورة عن حاله بعد توبته وندمه مما اقترفه في شبابه :

فلئن مضى صـدر الزمـــان بصفوه فلأخدمـــن لسيــــدي المنــــــان

و لأقطعـــن علائقي مــــع غيـــره حتــــى أحـــل بساحـــة الميـــدان

ولأنفيـــن أحبتــــي ومعارفـــــــي و لأقطعـــن عصابـــة المجـــــان

ولأبكيـــن علــــى الصبا ولما مضى مــن غرنــــي فــي سالف الأزمــان

فلعـــل مـــن شمـــل العباد بفضله يحــــي الفـــؤاد بكثـــرة الأشجـان

يا مـــن إليـــه حسـن ظني قادني أنـــت المؤمـــل عنـد كــــل أوان

---

[179]– المالكي، رياض النفوس، ج1 ص39، دحو العربي، الشعر العربي، ص 202.

[180]– إبراهيم الدسوقي، جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 163.

[181]– إبراهيم الدسوقي ،شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص156 نقلا عن الدباغ، معالم الإيمان تونس 1362هـ، ج2 ص 145.

فامنـــــن علـــــي بمـــا أؤمل منك يا معطـــــــــي الجميـــــل و مـــــسدي الإحسان[182]

قطع الشاعر كل العلائق التي لا تربطه بيده إلا في التي تزيد في زهده في الدنيا وتقـواه و إيمانه بربه.

ج ـ تقاطع هاجس الزمن بهاجس الموت:

عندما نظر الإنسان إلى المصير الذي تنتهي إليه حياته انتابه القلق، وسئم الحياة ،و عـز عليه الاستسلام للموت، وهي ظاهرة طبيعية وحتمية ، وتدخل في جـوهر قـضايا الإنـسان وتفكيره وفلسفته كيفما كان جنسه أو دينه، ويجمع الشعر الزهدي كل هذه الأبعـاد الإنـسانية للموت ،ولا يختلف الشاعر المغربي عن غيره في إحساسه الرهيب لهذه القضية ،ولكن الـذات الشاعرة المؤمنة تخفف من مأساويتها، وتوجهها نحو خير الإنسان وسداد رأيه، فتزيـد شـعره عمقا وجمالا ،ومن المفيد لمنهجية البحث الكلام عن مدلولها اللغوي،ونرجع إلى لسان العـرب فيقول: "الموت خلق من خلق الله تعالي...الموت والموتان ضد الحياة والمؤات بالضم. والموت مات يموت موتا...والأصل فيه موت بالكسر موت، ونظيره دمت تدوم، إنما هو دوم، والاسـم من كل ذلك الميتة،...وقبل الميت الذي مات والميت المائت الذي لم يمـت بعـد،...والميتـة: ضرب من الموت...والميتة الحال من أحوال الموت كالجلسة والركبة...يسمى النوم موتا لأنـه يزول معه العقل والحركة تمثيلا وتشبها لا تحقيقا، وقبل الموت في كلام العرب يطلـق علـى السكون...وقيل المنام: الموت الخفيف، والموت: النوم الثقيل، وقد يـستعار المـوت للأحـوال الشاقة كالفقر والذل والسؤال والهرم والمعصية، وغير ذلك"[183].

ولا ننسى تلك الآيات الكثيرة في القرآن التي جاءت تذكرنا بالميعاد منها قولـه سـبحانه وتعالى: "إليه مرجعكم جميعا، وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق، ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملـوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون"[184].

---

[182]- المرجع السابق, ص 159، والعربي دحو، شعر المغرب ص203.

[183]- ابن منظور لسان العرب، دار صادر بيروت، ط1، 1992، مج2، ص90، 94، ولسان العرب بـالمحيط، دار الجيـل بيـروت، 1983، مـج4، ص546، 547.

[184]- يونس الآية 04.

وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: "**يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول نعيده وعدا علينا إن كنا فاعلين**"[185]. وقال تعالى: "**وكل من عليها فان**"[186]، وقال سبحانه وتعالى: "**إنه يبدئ ويعيد**"[187].

وقد شغل حدث الموت تفكير الإنسان منذ الأزل، وكان محورا أساسيا من محاور تفكيره وشعره ، فكان موقفه منه يختلف من شخص لآخر بحسب فلسفته ودينه وإيمانه ،ومن زمن إلى آخر قبل الإسلام وبعده ،يقول مثلا عفت الشرقاوي عن فكرة الموت عند الجاهلي : "إذا كان الموت كما تصوره الجاهلي هو نهاية الوجود الإنساني والتوقف عن ممارسة الحياة بكل متعها، فإن الموقف الوجودي للشاعر الجاهلي إنما يبرز عنيفا في تحدثه للموت والفناء بالخوض في لذائذها، لا حبا في اللذة بوصفها لذة ولكن حبا في الحياة وتعلقا بها، وكراهية للفناء الذي تتوقف عليه ممارسة هذه اللذات"[188]؛وهكذا فإن الإنسان الجاهلي يجهل ما بعد الموت لذلك انتابه القلق لتوقفه عن ممارسة الحياة بكل متعها لكن الإنسان المسلم يدرك أن هناك حياة أخرى هي دار الخلود؛وهي حياة بعد الموت باعتبارها مرحلة انتقالية إلى تلك الحياة الأبدية ، فهذا عبد الله بن غانم القاضي[189] لما عاده أبو الوليد المهري في مرضه الذي مات فيه قال "هو الموت والغاية التي إليها نهاية الخلق وما لا بد منه فصبر يؤجر صاحبه، خير من جزع لا يقي عنه"، ثم تمثل قائلا:

فهل من خالد إذ ما هلكنا وهل بالموت يا للناس عار[190]

وكلمة الهلاك مرتبطة بالزمن، والخلود أيضا، وأفكار الشاعر عن الزمن ومأساويته جاءت مرتبطة بهما لارتباطها القوى والوثيق بأفكاره عن الموت، فهو بعد أن خبر الدنيا أدرك أن الموت حقيقة الحقائق، وحتما محتوما، وقدرا مقدورا.

---

[185]- الأنبياء الآية 104.

[186]- الرحمن الآية 26.

[187]- البروج الآية 13.

[188]- عفت الشرقاوي، دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، 1979، ص287.

[189]- هو عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحبيل، كنية أبو عبد الرحمان كان ثابتا ثقة، فقها عدلا في قضائه، ومن أهل العلم والدين والفضل والورع والتواضع، مولده سنة 128هـ مع البهلول بن راشد في ليلة، توفي سنة 190هـ وقبل 196 من فالج أصابه وقيل أن بصره كان قد كف والأول أصح، ينظر: طبقات علماء إفريقية وتونس ص 116، 117، ترتيب المدارك ج1 ص316، 325، وتراجم أغلبية، ص8، 21.

[190]- ترتيب المدارك ج1 ص325، وتراجم أغلبية ص20، 21.

لكن هذا لا يعني أن قضية الموت وما تثيره من جزع وخوف تنتفي نهائيا من أشعار الزهاد فهذا سهل الوراق يصور جزعه وألمه الشديد وبكاؤه على فراق حبيبه سعيد بن الحداد الذي أذهب صبره، ويكاد يفقده صوابه لعجزه عن دفع المنية عنه أو فديته، مما يفسر حتمية الموت وعجز الإنسان أمامه، فأخذته بغتة وهو ما يزال في ريعان فتوته، فأمسى في النعش بعدما كان يزهو بشبابه، وما هذا إلا تذكير بالزهد في الدنيا الزائلة الدنيا:

يؤرق عيني من لذيذ غموضها فليس لها إلا سهاد وأدمع

عجبت لنفسي بعده كلف لم تمت و ما بحياة بعد إن مات أصنع

فلو أن شيئا كان يفدي فديته وهيهات ما في الميت للحي مطمع

لقد راح صبري يوم راحوا بنعشه فثووه لحدا ثم آبوا وودعوا

أريحانة قد صرت ريحانة الثرى فأضحي البلا في جسمك الغض يسرع

ألا يأبي الغصن النضير الذي ذوى فعيني على تلك النظارة تدمع

سقى قبرك الصوت الموشى لأرضه وحادث عليه مزنة ليس تقلع[191]

وهذا محمد بن أبي دواد رثى محمد بن سحنون[192]، وكان من أصحابه:

أذر الدموع على أغر محجل بسطت له أيدي المنون حبالها

ما ضرها لو أمتعت بمحمد هيهات ! رب العالمين قضى لها

قل للمنية بعد محمد تكسو الخليقة بعده أحبالها[193]

وهذا محمد بن يزيد الفقيه لما يرثي أبا الفضل الممسي[194]:

آها عليك وليس ذاك بنا فعن وأرى البقاء مني ومنك بعيدا[195]

---

[191]– المالكي، رياض النفوس، ج2 ص 114.

[192]– ابن سعيد سحنون بن حبيب الشنوفي، مولده على رأس المائيين، كان الغالب عليه الفقه والمناظرة، وكان يحسن الحجة والذب عن السنة والمذهب، ألف كتاب المسند في الحديث وكتاب الورع، وتفسيره الموطأ،...توفي بالساحل 256 بعد موت أبيه بستة عشرة سنة وجيء به إلى القيروان، فدفن بها وسنة أربع وخمسون سنة، ينظر تراجم أغلبية ص 170، 188.

[193]– المرجع نفسه ص 187.

[194]– أبو الفضل عباس بن عيسى بن العباس الممسي، استشهد سنة 333هـ فقيها، عالما صواما، وقواما، وكان معه ورع كثير، ينظر الرياض ج2 ص292، 305.

وروى ابن أبي الدنيا عن ميمون بن مهران قال دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده سابق البربري وهو ينشده شعرا فانتهى إلى هذه الأبيات التي تضعنا أمام صورة الموت التي تحمل فجأة وسرعة تفوق سرعة الخاطرة فتأخذ الأصحاء قبل السقام والأغنياء قبل المعدمين، واستحضاره لأجواء الموت من بكاء وعويل، وذكر لمراسم الدفن:

فكم من صحيح بات للموت آمنا أتته المنايا بغتة بعدما هجع

فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة فرارا ولا منه بقوته امتنع

فأصبح تبكيه النساء مقنعا ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع

وقرب من لحد فصار مقيله وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع

فلا يترك الموت الغني لماله ولا معدما في المال ذا حاجة يدع[196]

نلاحظ من خلال هذه الأبيات أن كلمة الموت ومدلولاتها تهيمن على النص، فلا يخلو شطر منها، مما يؤكد أن الموت والذي هو إحدى صور وأشكال الزمن يسيطر على الإنسان بحيث يعجز كليا عن مواجهته وصده، وبالتالي جاءت الأبيات لتوضح حقيقة فاجعته، واستحالة الإفلات أو الفكاك من قبضته، فهو السيد المطلق الذي لا سلطان آخر دونه إلا الله ،وهذا ما حاول أنور روميه وصفه بقوله إنه : "الشاطئ الصخري الذي تتكسر أمواج الحياة العاتية عليه تصارعه دهرا، وتمتد عليه دهرا، وتكليل له الضربات الموجعة، ولكنها تتحطم في النهاية على أقدام هذه الصخور"[197].

وفي هذا الصدد يصور لنا سابق مشهدا دراميا حين آتاه ملك الموت، وحاول الفرار والهروب، ورغم محاولاته المتواصلة والمتسمة بالقوة والإصرار، إلا أنه انهزم أمامها، ثم يصف ما يصنعه به أهله بعد الموت بحيث وضعوه في مدارج الكفن، ثم لحدوه ودفنوه، ثم انتقل إلى وصف مشهد آخر للميت، وما ينتظره في قبره، وبقائه منفردا لا نصير ولا قريب إلا أعماله دون أمواله وخلانه وأحبابه.

وأنشد له الشريشي في شرح المقامات قصيدة زهدية طويلة منها هاته الأبيات يصف فيها فعل الزمن وسطوته في حياة الإنسان والوجود،إنه معول الفناء لكل شيء، وهذا من حقائق

---

[195]– الرياض ج2 ص 302.

[196]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

[197]– أنور رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، مؤسسة الرسالة، ط2، 1979، ص

عظمة الخالق ، واللبيب اللبيب من اتعظ بها ،وهيأ نفسه لذلك, وأحسن منهج لذلك منهج الزهــد الناتج عن إيمان وتقوى:

نلهـــو ونأمـــل أيامـــا تعد لنـــا   سريعـــة المـــر تطوينـــا ونطويها

كـــم مـــن عزيز سيلقى بعد عزته   ذلا وضاحكـــــــة يومـــــا ستبكيها

وللحتوف تربـــي كـــل مرضعـــة   وللحســـاب بـــــرى الأرواح باريها

لا تبـــرح النفــس تنعى وهي سالمــة   حتـــى يقــوم بنـــادي القــوم ناعيها

ولـــن تـــزال طـــوال الدهـــر ظاعنـــة   حتـــــى تقيـــم بــــواد غيـــــروا واديهـــا[198]

يقول إن غياب الوعي والإدراك الصحيح للحقائق الخاصة بمصير الإنسان سببه ما أطلق عليه" اللهو" بجعله منهجا في الحياة، والصحيح إيقاظ الــذات للعظـــة والعبـــرة مـــن غفلتهـــا باستحضار صورة الأعزاء الذين نفتقدهم يوميا، وما التذكر والتدبر إلا إدراك لتلـــك الحقـــائق والوجود والمصير، ثم نراه في البيت الثالث يصور الزمن وهو يمـــارس ملهاتـــه الـــساخرة ،وينسى ما ينتظره من الحساب، ومن ثم يتحول المشهد إلى موقف مأساوي بطله الزمن.

وهذا بكر بن حماد يقابل بين الصورتين: صورة حيـــاة الإنـــسان الهادئـــة المطمئنـــة، وصورة النعش الذي ينتظر الإنسان ،والحقيقة الدرامية للعلاقة بين الصورتين هـــو التحـــول الجدلي للصورة الأولى إلى الصورة الثانية:

أيـــن البقـــــاء وهذا الموت يطلبنا   هيهـــات هيهـــات يـــا بكـــر بن حماد

بينما نرى المـــــرء في لهو وفي لعب   حتـــــى نـــــراه علـــــى نعش وأعواد

هـــــــذا يباكـــــر دنيـــــاه منعضة   فيهـــا حزازات أحشـــــاء و أكبــــاد

وكلتا واقف منهـــا علـــى سفـــــر   وكلتـــا ظاعـــن يحـــدو به الحادي

فـــي كـــل يـــوم نرى نعشا نشيعه   فرائــــح فــــارق الأحبــــاب أوغاد

المـــوت يهـــدم ما بنيـــه من بذخ   فمـــا انتظـــارك يـــــا بكـــر بـــن حماد[199]

---

[198]– عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 5

[199]– رمضان شاوش، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص81، 82، وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص150، 151، والمـــالكي، رياض النفوس، ج2 ص25.

ويتساءل أبو المعمور بن حمزة الربيعي[200] كيف أن اللبيب يلهو ويستلذ عيش ،وهو إلى التراب عائد :

الموت لا بد آت فاستعد له إن اللبيب بذكر الموت مشغول

وكيف يلهو بعيش أو يلذ به من التراب على عينه محمول[201]

الموت كما قال سابق لا مفر ولا مهرب منه إلى بروج مشيدة من قبض أرواح الناس كلهم سواء كانوا بدوا أم حضرا:

الموت جسرا لمن يمشي على قدم إلى الأمور التي تخشى وتنتظر

فهم يمرون أفواجا تجمعهم دار إليها يصبر البدو والحضر[202]

من كان في معقل للحرز أسلمه أو كان في خمر لم ينجه الخمر[203]

إن الإنسان لا يمكنه الاعتصام من الموت، فهو يرقى إلى المعاقل والعقول المخدرة الغير مدركة الشبيهة بحال الميت التي تزول معه الحركة والعقل، فالفناء مصير كل بني أنثى فقد أصبحوا كلهم جزرا له:

إلى الفناء وإن طالت سلامتهم مصير كل بني أنثى وإن كثروا

أصبحتم جزرا للموت يقبضكم كما البهائم في الدنيا لكم جزر[204]

هناك صراع محتدم للذات بين الزمن الداخلي ألا وهو زمن السلامة والخصوبة والزمن الخارجي زمن (الموت والجدب)،وكانت الغلبة للزمن الخارجي باعتباره الطرف الأقوى، ومن ثم تكون السيادة لرموزه الدلالية : الفناء، الموت، المصير، الجزر، وبذلك ينتصر الزمن والموت على الإنسان (كل بني أنثى).

---

[200]– كان من أصحاب سحنون، وسمع منه بكر بن حماد، وكان يقول الشعر ويحسنه، مولده سنة 208، وفاته: 265.

[201]– القاضي عياض، تراجم أغلبية ص328.

[202]– يقول أبو العلاء المعري: الموت حاس ما تعيف آجنا ا * تضيف الأعراف والأنباط، ينظر اللزميات، دار صادر بيروت، مج2، ص105.

[203]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

[204]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 8

تشير دلالة القبر المظلمة التي تعلي جوانبها بالتراب إلى ضبابية الرؤية وعدم اتــضاحها للجهل بالمصير بعد الموت، فيتسرب القلق إلى الأعماق، ويتحول إلى واقع مأساوي مــسكون بالإحباط والانكسار ،ولا علاج له سوى الحلم بالفردوس الموعود ، ولن يكون ذلك إلا بـــالتزود له، يقول (أعشى حمدان):

وبينمـــا المـــرء أمسى ناعما جدلا فـــي أهلــــه معجبا بالعشى ذات أنق

غـــر أتيـــح لـــه من حينه غرض فمـــا تلبـــت حتـــى مات كالصعق

تمــت أضحى ضحــى مــن غب ثالثة مقنعــا غيـــر ذي روح ولا رمـــق

يبكـــي عليــــه وأدنــــوه لمظلمة تعلـــى جوانبهـا بالتــرب والقلـــق

فمــا تــزود ممـــا كـــان يجمعــه إلا حنوطـــا و مـــا زاد لمنطلـــق

وغيـــر نفحـــة أعــواد تشـب له وقـــــــــل ذلـــــــــك زاد لمنطلـــق[205]

وروى عثمان بن عبد الحميد قال: دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز فقال له عظني يا سابق وأوجز. قال نعم يا أمير المؤمنين وأبلغ إن شاء الله، فقال له هات، فأنشده:

إذا أنـــت لـــم ترحل بزاد من التقى ووافيـــت بعـــد الموت من قد تزودا

ندمت علـــى أن لا تكـــون شريكه و أرصدت قبــــل مــوت مــا كــان أرصدا[206]

إنه يدعو إلى التزود لما بعد الموت، والذي لا ينفع بعــده نــدم أو حــسرة وخيـــر زاده التقوى،وقد كان أيضا على بن أبي طالب ،وهو من هو يتخوف من قله الزاد لآخرته فيقول: "يا دنياي إليك عني غر غيري، إلي تعرضت أم إلي تشوقت؟ هيهات قد باينتك ثلاثا، لا رجعة لي إليك، فعمرك قصيرك،...وخطرك حقير، وخطبك يسير، أه من قلـــة الـــزاد وطـــول الطريـــق ووحشة السفر"[207].

وهذا الحكيم أحمد بن أبي سليمان يدعو الناس أيضا إلى التزود بالأعمـــال الـــصالحة ليوم البعث ولحساب، وهذا بعد أن يضعهم أما صورة الإنسان القوي الذي يتخلله الضعف بسبب

---

[205]– المرجع نفسه ، ص 9

[206]– عبد الله كنون، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 19

[207]– عزيز السيد حاسم، الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، دار الأندلس، ط1، 1986، ص50.

الكبر والوهن، فيطاوله الموت، ويسارع الناس إلى دفنه ولا يبقى معه أحد بعد ذلــك ،وكأنــه شخص يودون التخلص منه، ولا يبقى معه إلا غير أعماله:

أرانــي قــد كبــرت ورق عظمي وصــرت مخامــرا ضــرا ضريرا

كأنــي بالبكــاء علــى فــاش وقـد حملــوا بجثتــي السريــرا

إلــى دار البــلا حمــلا سريعـا وينصرفون عــن قبــري نفــورا

وخلونــي بأعمالــي فروحــي علــى الحــالات تنتظــر النشــورا[208]

و يأتي الموت على صغائر الأمور كما يأتي على كبائرها فلا فائدة من جمع الأمــوال لأنها عائدة للورثة، ووأما بناء الدور والقصور فالدهر كفيل بخرابها:

أموالنــا لــذوي الميراث نجمعها ودورنــا لخــراب الدهــر نبنيها

والله مــا عبرت علــى الأرض قاطرة إلا صــرف الليــالي ســوف يفنيها[209]

ويعد هذا الزخم الشعري الزهدي لسابق المطاطمي تجربة متميزة رائــدة فــي الــشعرية العربية التي استطاعت أن تترك ظلالا قوية في شعره المتبقي، فهو شديد الحرص على أخــذ نفسه بالشدة والقسوة، ولا ينفك يذكرها بالموت ويدعوها للتزود بزاد التقوى، وهذا ما جعل من الخليفة عمر بن عبد العزيز ملازما له يأخذ منها النصح والمشورة فكان يغشى عليه لقوة تأثيره عليه [210].

وهذا أبو القاسم الفزاري يعزي نفسه على فقد أبو الفضل عباس بن عيسى الممسي الذي تخيره الموت الذي لا يأخذ إلا كل ذي شأن ،وأكثر الخلق شأنا النبي محمد وصحابته الكــرام، "فالموت مثلما يأتي على الأمور الحقيرة يأتي على الأمور الجليلة، وأن كل امرئ وإن طال بــه الزمان فمآله الموت، ومنزله قبر سحيق، وأن الدنيا عند امتحانها من قبل صاحب العقل المبصر العواقب الأمور المدرك لغرورها ونعيمها–وفناء زينتها يجدها عدوا في ثياب صديق"[211]،ومــن هذا المنظور يقول الشاعر:

---

[208]– المالكي، رياض النفوس، ج1، ص513. وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص145، والعربي دحو، شعر المغرب مــن الفــتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص198.

[209]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 5

[210]– عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، ص 155، 156.

[211]–مصطفى بيطام، مظاهر المجتمع وملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العربي الأول، ديوان المطبوعـــات الجامعية 1995، ص 187.

مضـــى عالم العلم الرفيع طالما أصابـــت قنـــاة الموت كل رفيع
ولـــــولا التآسي بالنبي محمد وأعظـــم بـــــــه مــــن أســوة لمروع[212]

ولنعرج إلى الشاعر بكر بن حماد الذي ترددت كلمة الموت في شعره بكثـرة ،فبـات يذكر به ،وحاجة النفس البشرية إليه لأخذ الموعظة منه :

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت وقـــد مرقــت نفسي فطال مروقها
فيا أسفـــي مــن جنح ليل يقودها وضــــوء نهـــار لا يزال يسوقها
إلى مشهد لا بــــد لي من شهوده ومــــن جـرع الموت سوف أذوقها
ستأكلهـــا الديدان في باطن الثرى و يذهـــب عنهـــا طيبها وخلوقها
سحـــاب المنايا كــــل يوم مظلة فقـــــد هطلـــــــت ولاح بروقها
وللنفــس حاجات تــروح و تغتدي و لكــن أحاديــث الزمـــان تقودها
تجهمت خمسا بعد سبعــين حجــة ودام غـــروب الشمــس وشروقها
وأيـــدي المنايا كــــل يوم وليلة إذا فتقـــت لا يستطـــاع رتوقهـــا
يصبح أقواما علــى حيـــن غفلة و يأتيــك فـــي حيـــن البيـــات طروقها[213]

يبدو هذا النص كالنصوص السابقة التي تدور حول الزهد في الدنيا ،والتأكيد على الأمور الدينية لغرض الوعظ، والشاعر لم يستعمل الزمن استعمالا طبيعيا، بل اســتعمله اســتعمالا وجــدانيا شعريا، وبعد أن شبه النفس بالفرس حين إفلاتها وجموحها من صاحبها التي تلقــى مقاومــة، ولكنه يفشل في كبح جماحها، ويصور مروقها بصورة السهم يخـرج مــن القــوس بــسرعة، وبالتالي فتلك المفردات أوضحت ذلك الصراع بين الشاعر والنفس، ثم ينتقل إلى استعمال الليل والنهار على أنهما رمزان للخير والشر، لكن إذا ربطنا بين الليل الذي يقود النهار وهذا يــسوقه نجد أنه قد استعملهما استعمالا مجازيا لأن الليل لا يقود لظلمته ولا النهار يــسوق لوضــوحه ونوره.

أما البيت الرابع ففيه تصوير تعاقب لليل والنهار على النفس وتهافت كل منهمــا عليهــا للأخذ بقيادتها، وهذا التهافت عليها لكونها تمتلك الاستعداد للانقياد كالشباب والمال وكلهــا مــن الزائل، ويقول: (فقد هطلت حولي ولاح بروقها): وما أشبه دلالة لمعان البرق في السحب على

---

[212]- المالكي، رياض النفوس، ج2 ص 304.

[213]- محمد شاوش رمضان، الدر الوقاد لبكر بن حماد ص78، 79، والمالكي، ريــاض النفــوس، ج2 ص 23، 24، محمــد الطمــار، تــاريخ الأدب الجزائري، ص36، 37، وع العزيز نبوي، محاضرات في الشعر المغربي القديم، ص135، إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص149.

نزول الأمطار بالعلامات تطرأ على الإنسان، وتدل على اقتراب الفناء إليه، وتوقع الموت للغير ما هي إلا توقع موتنا، وبذلك جاء لمعان البرق كإنذار وإشارة إلى المصير نفسه الذي ينتظرنا، وفي هذا التصوير دعوة للعلم والاعتبار[214].

وبما أن فكرة الموت شغلته كثيرا فقد حاول خوض التجربة من خلال غيره، حيث يقول في رثائه لابنه عبد الرحمن[215] الذي اختطفه الموت وهو في عنفوان شبابه ونضارة صباه:

بكيـــت علــــى الأحبــة إذ تولوا	**ولـــو أنـــي هلكـت بكوا علي**
فيـــا نسلــــي بقاؤك كــان ذخرا	**وفقـــدك قـــد كوى الأكباد كيا**
كفـــى حزنـــا بأنــــي منك خلو	**وأنـــك ميـــت و بقـــيت حيا**
ولـــم أك آيســا فيئســـت لما	**رميـــت التـــرب فوقك من يديا**
فليـــت الخلـــق إذا خلقوا أطاعوا	**وليتـــك لـــم تكن يا بكر شيئا**
تســـر بأشهر تمضـــى سراعــا	**وتطـــوى فـــي لياليهـــن طيا**
فـــلا تفـــرح لدينا ليـــس تبقى	**ولا تأسـف عليهـــا يـــا بنيـــا**
فقد قطع البقـــاء غروب شمـــس	**ومطلعهـــا علــــي يــــا أخيـــا**
وليـــس الهـــم يجلـــوه نهـــار	**تـــــدور لـــــه الفراقـــــد والثريـــا[216]**

يصور الشاعر البكاء على الأحبة في الشطر الأول، أما في الشطر الثاني فيصور بكـــاء آخر مستقبلي ضمني متوقع يخص الشاعر نفسه (بكوا علي)، والفرق بين البكاءين زمني إذ لو مات قبلهم لبكوه مثلما هو يبكيهم الآن ، وهو عندما بكى على الأحباب كان عـــاجزا عـــن رد فعل القدر وفعل الزمن، ولقد لجأ الشاعر لهاته الوسيلة ليخفف من شـــدة العواطـــف ، فالـــدهر تربص لبكر بن حماد فأصابه في الكبد بفراق حبيبه،فاشتكى من تلك الغربة العاطفيـــة الناجمـــة عن هذا الفراق،وهو ذو دلالة عن الموت الروحي العميق لأن مثل هذا الفراق يـــشعر المـــرء بنهاية الكون ، والذات "تفقد مقومات الحياة إذا حيل بينها وبين ما تحبه وتألفه وتأنس إليه، وتقع فريسة للوحدة والفقد إذا أقيمت حولها الحواجز والسدود مثلها في ذلك مثل الأقحوانة المحاطـــة بسياج من أشواك"[217].

214– ينظر إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 149، 150، وهامش رمضان شاوش، الدر الوقاد ص78، 79.

215– لما كان بكر بن حماد عائدا من إفريقية إلى مسقط رأسه تيهرت مصحوبا بولده تعرض له اللصوص في الطريق بقلعة ابن حمة فجرحـــوه وقتلـــوا ولده عام 295 هــ، ينتظر رمضان شاوش، الدر الوقاد ص52.

216– رمضان شاوش، الدر لوقاد ص87، 88، وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص191، 192، ومحمد الطمار تاريخ الأدب الجزائر ص 36، وعبد العزيز بنوى، الشعر المغربي، ص136، 167.

217– فوزي عيسى، النص الشعري وآلية القراءة، ص 516.

تكون هذه الصور الشعرية الزاهدة مشاهد مأساوية ،وقد نجدها حتى في الشعر الجاهلي ويجمعهما البعد الإنساني الوجداني على الرغم من اختلاف الخلفية الفكرية والإيمانية لكل منهما وهكذا نجد الإنسان في نظر الشاعر الجاهلي يبدو من جراء الفراق وكأنه: "قطع يتفتت لها قلب الشاعر، فهي تذكره بالرحيل النهائي من هذه الحياة كلها، ومن هنا نجد عبارات التقطع والتمزق تشيع في الشعر الجاهلي عامة والمعلقات بصورة خاصة، ونجد بالمقابل شيوع الألفاظ الدالة على قوة التشبث والارتباط كرد على الحالة الأولى"[218].

الحب هو الحياة، والحياة تحمل الموت في صيرورتها، ويبرز الموت في الحب، فبقدر حبنا للآخر نحيا وتزهر الحياة وتكبر السعادة، وبقدر حبنا له نمقت الموت ونمقت معه الزمن ،لكن الشاعر يستبدل هذا الحب بحب لقاء ربه وحسن خاتمته .

ولقد كان الشعر عند الجاهلين بمثابة الولد بل أعظم بقاء فهو يتضمن العواطف والآمال والرغبات لكونه رمز للخلود ومواجهة الفناء: "فالشعر هو موقفهم_الدنيوي،...فبه يقهرون هذا الموت القهر الوحيد المتاح للإنسان في هذه الدنيا...فهو يبقى بعد أن يفنوا هم...ومهما يكن إيمان الفرد بحياة أخرى، فإنه يحب أن يخلف من ورائه خلقا يبقى، وإذا كان البشر العاديون يجدون في الولد الكافي عن زوالهم من الدنيا فإن الفنان لا يجده إلا في خلقه الفني...فالشعر كان سلاحهم القوي ضد الزمن وردهم القوى على قساوة الحياة وتقلب الدهر وحتمية الموت"[219]،و أنظر سعيد بن الحداد وهو يطلب من خليله أن ينعاه بعد موته :

يا خليلي قد دنا الموت مني فابكياني هديتما وانعياني[220]

إن الحياة ترتبط لسائلها بمقوماتها كالفن والنسل وبانعدامها تصبح موتا، الإنسان لم يستسلم للموت وفي الوقت نفسه لا يواجهه مواجهة الند للند، وإنما يتحايل عليه بالنسل والكلمة ،وما تتضمنه من فضائل أخلاقية لا تفنى، فكان شعرهم حلبة للمصارعة مع الموت، لكن بمجيء الإسلام انزاحت هذه العقدة الذي كان يعاني منها الإنسان الجاهلي حين يفكر في الموت، ونرى بكر بن حماد في هذه القصيدة قد غلب الموت على عقله وفكره و قلبه وعواطفه: وله أبيات أخرى قد تخففت من الحزن وشدته بالمقارنة إلى شعره السابق، واستطاع أن يفكر بهدوء

---

[218]– صالح مفقود، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، ص 36.

[219]– محمد النويهي، الشعر الجاهلي:منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، ج1، ص 432.

[220]– المالكي، رياض النفوس، ج2 ص 111.

وأصبحت أحزانه وآلامه أهون بعد إقراره بالموت ،والنظر إليه على أنه حقيقة لا بد منه ولكنه لا تثير الخوف ، وعلاجها الزهد والإيمان والصبر والتقى:

وهـــون وجــــدي أنني بك لا حق ... وأن بقائـــي فـــي الحيـــاة قليل

وأن ليـــس يبقــى للحبـيب حبيـب ... و ليـــس بـــاق للخليـــل خليـــل

وأن طـــول الحـــزن مما يـــرده ... للازمنـــــي حــــزن عليـــــه طويـــل[221]

بلى ربما دارت علـــى القلب لوعــه ... فيرجعهـا صبـــر هنالـــك جميـل

ولعله من الطريف أن بعض الشعراء إذا أحس داعي الموت ندب نفسه، ووصف مـا يـصنعه أهله بعد موته وانصرافهم لحياتهم، ونسيان محبته باستبداله بلهو آخر:

إذا انقرضـــت عني من العيش مدتي ... فـــإن غنــــاء الباكيات قليـــل

ستعرض عـــن ذكري وتنسى مودتي ... ويحـــدث بعــــدي للخليـــل خليـــل[222]

أما أبو القاسم الفزاري فقد هاله وراعه مآل ومصير الإنسان بعد الموت وأهواله، فحاول تصويره في هذه الأبيات:

وبعـــد المـــوت أهـوال عظام ... يشيـــب لبعضهـــا الطفل الصغير

وتذهـــل كـــل مرضعة لكـــرب ... ليـــوم فيـــه شـــر مستطيـــل

وبعـــد المـــوت للأرواح إمـــا ... نعيـــم فـــي الكرامـــة أو سعيـر

عجـبـت لفتنـــة أعمـــت وعمت ... يقـــوم لهـا دعــــي و كفـــور

تزلزلـــت المدائـــن والبـــوادي ... بهـــا وتلونــــت منهـــا الدهــور[223]

هذا تصوير شعري تعبيري عن الشجو والهم والمرارة والتأسف على مـا انقـض مـن العمر الوهم في لهو وغفلة، ثم تستيقظ ذاته فتفجع على المصير المنتظر، بل مـصير البـشرية

---

[221]-المالكي، رياض النفوس، ج2 ص 420، شاوش رمضان، الدر الوقاد لبكر بن حماد ص89، وإبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص193.

[222]-القاضي عياض، ترتيب المدارك ج1 ص 324.

[223]- إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص267-268.

جمعاء، وامتداد دلالة الموت والفقد تعمق هول المأساة التي تحاصر الإنسان وتفقده القدرة على المقاومة ،فيصير أسير زمن الموت الذي يتخلل ماضيه وينتقل إلى حاضره ومستقبله و أهوال الآخرة.

والشاعر الزاهد قد يرسم للإنسان مستقبلا سعيدا ينتظره كل مؤمن تقي ليتنعم بالجنة ، وما أعده الله له من حور العين، وشراب من سلسبيل...كما يقول أحمد بن أبي سليمان:

وقد حبس اللسان فلا كلام	**وقد سمع الصياح المستطيرا**
فإما مؤمن يرجو خلاصا	**و إما كافر يصلي سعيرا**
فويل للشقي إذا تردى	**وصار إلى التي ساءت مصيرا**
إلى نار تلظيها شديد	**وتزفر في تغيظها زفيرا**
وطوبي للسعيد إذ حباه	**إله العرش في الفردوس حورا**
وصار شرابه من سلسبيل	**وأنهار مفجرة خمورا**[224]

غير أن بعض شعراء يقدمون صورة أخرى ناتجة عن عدم اليقين بالمآل الأخروي وجهل المصير في الحياة الثانية أهي الجنة أم النار ؟ ولا ثالث لهما ، ويصور أبو الفضل مولى نجم هذا الموقف في قوله :

وكيف تنام العين وهي قريرة	**ولم تدري أي المحلين تنزل**[225]

ومع هذا كان إحساسه يتميز بالهدوء والاستسلام والاطمئنان مقارنة بما احس الجاهليون حيث كان إحساسهم "إحساسا قويا بالموت وحتم وقوعه ورأوا رأي العين تلاعب القدر بهم وتغلب صروفه عليهم في هذه الحياة المحدودة الفانية، صحيح أن غيرهم من الشعوب في مختلف الأزمان والبيات أدركوا هاتين الحقيقتين فأثرتا فيهم لكن إحساس الجاهلي بها كان زائد الحد يبلغ درجة العنف"[226].

---

[224]– المالكي، رياض النفوس، ج1 ص 512، 213 , العربي دحو, شعر المغرب, ص197، 198.

[225]– المالكي، رياض النفوس ص 244، القاضي عياض، تراجم الأغلبية، ص244.

[226]– محمد النويهي, الشعر الجاهلي, منهج في دراسته وتقويمه, ص419.

وهذا يعود إلى عدة أسباب منها: تذكير الأشعار بالموت ودعو تها للاستعداد لما بعده، ووعظ أصحاب نزعة المجون للاستقامة، والدعوة في شعرهم الزهدي إلى تحبيذ العزلة والاعتكاف، وجمعهم بين الشعر والفقه والورع والتقوى .

ج ـ ذكر ذهاب الأمم والملوك وما وقع لهم وهاجسه الشعري:

يدعونا شعراء نزعة الزهد إلى التدبر والتأمل والتذكير بأحوال البشر وتجاربهم في مواجهة الزمن وذلك باستدعاء قصص الغابرين وتذكير الذات بماضي البشرية لأخذ العبرة وتحقيق التوازن بين الماضي والحاضر والمستقبل ، ونستهل الكلام بيوسف عبيد الله القفصي[227] الذي صرح أن الدهر لديه ما هو إلا ليلة بعد يومها ونجم طالع ثم أفل:

وما الدهر إلا ليلة بعد يومها	**ونجم تراه طالع ثم آفلا**
وقرن جديد خلف قرن ودولة	**تعاقب أخرى لا يزلن شوامل[228]**

ولبكر بن حماد أبيات يصور فيه الانتقال إلى الدار الأخرى بغير عمل صلح بصورة السفر بغير زاد، وفي صنيع الزمان بالأمم والملوك، إذ حدثنا عن الزمن الذي يمشي بين خطواتنا، ويلاحقنا أينما ذهبنا ،ويغير أشياء كانت ثابتة أو يضيف أشياء أخرى فيقول:

نهار مشرق وظلام ليل	**ألح بالبياض وبالسواد**
هما هدما دعائم عمر نوح	**ولقمان وشداد وعاد**
نمت على فراشك مطمئنا	**كأنك آمنت من الميعاد**
فيا سبحان من أرسى الرواسي	**وأوتدها مع السبع الشداد[229]**

---

[227]– زهد في كل ما يتنافس فيه الناس من الدنيا وأسبابها، يقول الشعر الجيد، توفي سنة 332هـ، ينظر المالكي، رياض النفوس، ج2 ص278، 282.

[228]– المالكي، رياض ج2 ص278، هذا البيت الأول للشاعر شبيه بما قاله كل من أبو الخير العيد وأبو ذؤيب الهذلي:

ما الدهر إلا ليلة * من بعدها يوم جديد وكلاهما بكا فاعل * ما تريد ولا تريد.

(و) هل الدهر إلا ليلة ونهارها * إلا طلوع الشمس ثم غيارها ؟!

لقد أحس كل من أبو الخير وأبو ذؤيب الهذلي بمأساة إنقضاء الوقت وأثره على الإنسان وما يصحبه من إنقضاء العمر فعز عليهما ذلك فصوراه في هاته الأبيات إلا ليوصلا لنا جزعهما من الدهر ومن عواقبه التي لن يسلم منها فهو فاعل ما لا نريد، ينظر المالكي، رياض النفوس، ج2، ص439، وأبو ذؤيب الهذلي، حياته وشعره، دراسة توثيقية نقدية وتحليلية وفنية، ص212. نقلا عن ديوان الهذليين، طبعة دار الكتب، ص21.

[229]– رمضان شاوش، الدر الوقاد لبكر بن حماد ص76 وعبد العزيز نبوي، محاضرات في الشعر الجزائري، ص135، هذا البيت أصله وأوتدها على السبع الشدائد وقد أصلحه أحمد بن أبي سليمان عندما أنشده الشاعر هذه الأبيات بالقيروان ينظر رمضان شاوش، الدر الوقاد ص49 وما يليها.

وتعد كلمة الليل " شعرية موحية لعلها أعظم كلمات الشعر رومانطقية لدى سائر الشعراء فالليل وهمومه، وما يكتنفه من سويداء ويحيط به من قلق ووجل متصورا لخيال الشاعر الرومانطقي ثوبا أسود شاملا يرخيه القدر على كيان امرؤ_القيس"[230] مثلا، فالنهار عنده مثل الليل الذي يحل ومعه الهواجس، كذلك الصباح ظلام آخر فمن ورائه قدر غاشم يخبئ للإنسان ما لم يعلم:

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل   بصبح وما الإصباح منك بأمثل[231]

وقد رأى الشعراء الجاهليون هذا المستقبل وهو يحمل لهم الموت كما قال عمرو بن كلثوم:

وأنا سوف تدركنا المنايا   مقدرة لنا ومقدر بنا[232]

فسئم الحياة وتكاليفها، لأن المنايا خبط عشواء من تصبه تمته ومن تخطئه يعمر حتى يهرم، فهو يسير على غير علم بمصيره كما قال زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

وأعلم ما في اليوم والأمس قلبه   ولكنني على علم ما في غد عم[233]

مثل هذا السأم نجده مرويا عند لبيد بن ربيعة إذا يقال أنه حين بلغ سبعا وسبعين قال:

قامت تشتكى إلى النفس مجهشة   وقد حملتك سبعا بعد سبعين

فإن تزادي ثلاثا تبلغي أملا   و في الثلاث وفاء للثمانين[234]

---

[230]– علي شلق، نقاط التطور في الأدب العربي، دار القلم، بيروت، لبنان، ص25.

[231]– أمرؤ القيس، ديوان أمرؤ القيس بن حجر الكندي لأبي الحجاج يوسف بن سليمان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص68.

[232]– ابن الأنباري، شرح القصائد السبع الجاهلية، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، بمصر، ط2، 1980، ص374.

[233]– الأصفهاني، الأغاني ج14، ص213.

[234]– صالح مفقود، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، ص64.

وإن صحت هذه الأبيات "فإن لبيدا صار بعد كبره يشكو الزمن وطوله، وهذا ليس لأنه كره الحياة بل لأنه لم يستطع أن يحيا كما كان، فقد أصبح مغلوبا على أمره، وأصبحت الأيام لا تعنى عنده إلا أرقاما تتابع ليل ونهار من جديد سوى ضعفه وهزاله، وهذا الموقف المعبر عن الضجر نجده بصورة خاصة عند الشعراء الذين عمروا طويلا، والذين اشتهروا بالحكمة أو التعقل أمثال زهير ولبيد"[235]، وسعيد بن الحداد الذي عمر طويلا فكره الحياة وسيطرت عليه فكرة الموت نتيجة واقعه المرير:

كم عساني أعيش كم عساني كم عساني أبقى على الحدثان

بعد سبعين حجة وثمانين فقد توفيتها من الأزمان[236]

إن الزمن الذي يمثله الليل والنهار كان من نتائجه أخذ نوح بعد أن عاش زمنا طويلا، وكذلك لقمان وأذهبا قوة عنترة من شداد وقوم عاد. فهو في سرعة ودوران، فلما التعجب إذن من رحيل قوم وأناس إلى ديارهم الثانية دون زاد وأعمال تشفع لهم؟. فهو يحاور نفسه ويكلمها حوارا داخليا: أنت تتعجب وتحسب نفسك قد اكتفيت من أعمال الخير، فلا تطمئن كل الاطمئنان، وأعمل لآخرتك، لأن الحياة الدنيوية "مزرعة الآخرة، ومطية لها، وأن مثل بقاء الإنسان فيها مثل الراكب قام في ظل شجرة ثم راح وتركها، وأن دار البقاء: دار الآخرة نسبة هذه الدنيا الفانية كما قال (ص): "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدهم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع".وأن الفرصة الموالية لكل إنسان لها أهميتها وأبعادها، حيث يترتب على حسن استغلالها أثر طيب في الحياة الآخروية ويترتب على سوء استغلالها أثر سيء متأسف في الآخرة[237].

أو كما قال محمود القطان: "الدنيا أمل ووجل، والآخرة جزاء وعمل والمتوسط بينهما أجل"[238].

235– المرجع نفسه، ص64.

236– المالكي، رياض النفوس، ج2 ص111.

237– وكيع بن الجراح، صحيح كتاب الزهد، حققه وأخرجه أحاديثه عبد الرحمن بن الجبار الفريوائي اختصره بن عبد المقصود، مؤسسة الكتابة الثقافية، ط1، 1993، ص20.

238– المالكي، رياض النفوس، ج2 ص349.

إن بكر بن حماد لا يختلف كثيرا عن غيره من الشعراء فهو يعي تاريخ الفناء ،وقصصه مع الملوك والعظماء ليعتبر بها من أراد أن يعتبر، وبخاصة صورة المحمول على آلة والناعين خلفه، وفي هذا السياق يقول سابق:

وكيـــف يأمـــن ريب الدهر مرتهن	**بعـــدوة الدهـــر إن الدهـــر عداء**
ألقى علـــى الجيـل من عاد كلا كله	**حتـــى سقاهـا بكأس الموت ساقيها**
غـرت زمانـا بمـلك لا دوام لــه	**جهـــلا كمـــا غـر نفسا من يمينها**
وصبحت قـــوم عـــاد فـي ديارهم	**بمفظـــع يـــوم عادتهـــم عواديها**
وتبعـــا ثمـــودا بحجـــرا غادرهم	**ريـــب المنون رميما فـــي مغانيها**
فكيـــف يبقى علـى الأحداث غابرنا	**كأننـــــا قـــــد أظلتنـــــا دواهيهـا**[239]

والشاعر لم يكتف بهذا القدر فقد أورد في غير هذا الموضع شعرا ينم عن تجربـة شـعرية رائدة، ورؤية أصيلة للحياة والناس والمصير:

كـم من جموع أشتت الدهر شملهم	**وكـــل شمـل جميع سوف ينتشر**
وكـــم مـن أصيد سامي معتصب	**بالتـــاج نيرانـــه للحرب يستعر**
يظـل مفتـــرش الديباج محتجبا	**عليـــه تبنى فباب الملك و الحجر**
قـــد غادرته المنايا وهو متسلب	**مجـــدل تـــرب الخديـن منعفر**
أتعـــد آدم ترجون البقاء وهـــل	**تبقـــي فـروع لأصل حين ينقعر**
كـم بيوت يمستن السيول وهـــل	**تبقى على الماء بيت أســـه مـدر**
إلـــى الفناء وإن طالـت سلامتهم	**مصير كل بني أنثى وإن كثـــروا**
إذا قضت زمـــر آجالهـــا نزلت	**على منازلها مـن بعـد زمـــــر**
ثم اقتقدوا بالأولى كانوا لكم غررا	**وليـس مـــن أمـة إلا لها غرر**
حتى تكونوا علـــى منهاج أو لكم	**وتـــصـــبروا عـــدم الـــدنيا كمـــا صبروا**[240]

---

[239]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 5

[240]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 8

وفي ذكر الغابرين والاعتبار بمصيرهم يقول أحمد بن أبي سليمان:

أرى الدنيا تغيرها الليالي	**وأياما تؤلفه شهورا**
كذا أحوال دهرك حال أمن	**وحال تجزع البطل الجسورا**
وكم ملك عظيم ذي احتيال	**أعد خزائنا وبني قصورا**
وكان مداه ذا خطر عظيم	**فصار مؤجلا أجلا قصيرا**
ومن ذاك التملك و التعالي	**وسكن قصره، سكن الحقيرا**
واضطجع في التراب بلا مهاد	**يضيق اللحد منجدلا عصيرا**
وكم من طالب للمال يسعى	**ويركب في مطالبه البحورا**
فصاره يود أن لو كان أضحى	**على تقريب ما حوى قديرا**
وعاد يود أن لو كان أمسى	**وليس بمالك منه نفيرا**[241]

يصور الشاعر في البيت (1)و(2) عدم استقرار الدنيا على حال وتغيرها وتقلب الزمان وهذا يتضح جليا من خلال الأبيات الموالية حيث يذكرنا بمصير الناس ،ومنهم الأبطال الجبابرة والملوك العظماء،و"إن الالتفات إلى صنيع الزمن أيامه ولياليه بالإنسان والاعتبار بمصير النفس والآخرين من العظماء والعلية وغيرهما من المناحي المعروفة في الشعر العربي منذ الجاهلية، غير أن هذه المناحي قد لقيت رواجا، فصارت تتكرر في الشعر الروحي، ولاسيما ديوان أبو العتاهية"[242].

ونجد الصورة نفسها قي رثاء بكر بن حماد لمدينة تيهرت بعد تخريبها فيندمج مع الجماعة ويقف على أطلال الدنيا، وما حوته من قبور دون تخصيص ليحقق البعد الإنساني لشعره:

زرنا منازل قوم لن يزورنا	**إني لفي غفلة عما يقاسونا**
لو ينطقون لقالوا: الزاد ويحكم	**حد الرحيل فما يرجو المقيمونا**
فالآن فابكو فقد حق البكاء لكم	**فالحاملون لعرش الله باكونا**

---

[241]- المالكي، رياض النفوس، ج1 ص512، والعربي دحو، الشعر المغربي ص197.

[242]- إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص146.

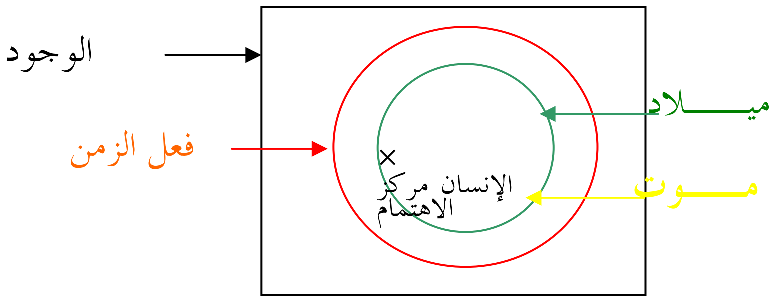
مــــاذا عسى تنفع الدنيا مجمعها	**لـــــو كــان جمــع فيهــا كنــز قارونا[243]**

وهذه دعوة أخرى منه للوقوف بالقبور:

قف بالقبور فنـــاء الهامدين بها	**من أعظـــم بليت فيهـــا أجساد**
قـــوم تقطعـــت الأسباب بينهم	**من الوصال وصاروا تحــت أطوار**
راحوا جميعا على الأقدام وابتكروا	**فلــن يروحــوا ولــن يغـدو لهــم عــاد[244]**

"لقد نجح الزهاد بمسلكهم في كشف حقيقة الدنيا وتهوين شأنها، وآثــاروا فــي الحــاكم والمحكوم فكرة الموت والقبر واليوم الآخر، وآثاروا فيهم في نفس الوقت الــشعور بالخطيئــة وعدم الخلو من الذنوب، فطبعوا شعر العصر بمسحة لا تخلو من الانقباض، لأن وقفة الإنــسان أمام الموت وقفة رهيبة تتمثلها الخواطر سواء في لحظات النعمة أو لحظات الحرمان...ولهــذا الانكار نجد شاعرا قصر في حديث الموت من شعراء العصر"[245].

تمثل النصوص السابقة الصورة الواضحة لموقف الشعراء من الكون والوجود، والتــي كان فيها الإنسان مدار شعرهم الزهدي، فهو يرمز للزمن في جميع أشكاله وصوره من [مــيلاد وموت، وتجدد وزوال، وقوة وضعف، وشباب وشيخوخة، وخلود وفناء،...] وما بين ذلك مــن اطمئنان ووجل، وسعادة وتعاسة، وإليك هذه الترسيمة التي توضح هذا التصور:



د ــ السلوك والأخلاق:

243– رمضان شاوش، الدر الوقاد بكر بن حماد ص90، المالكي، رياض النفوس، ج2 ص23، والعربي دحو، شعر المغرب ص150.

244– شاوش رمضان، الدر الوقاد لبكر بن حماد ص80، المالكي، رياض النفوس، ص24، 25، العربي دحو، شعر المغرب حتى خلافة المعز ص150. وعبد العزيز نبوي، محاضرات في الشعر المغربي، ص170.

245– إبراهيم بيسوني، نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف بمصر، 1969، ص101.

لم يتكلم الزهاد وحدهم في الأخلاق "فالأخلاق موضوع هام تناوله الفلاسفة منذ أقدم العصور، واهتمت به الأديان منذ عرف الإنسان التدين...وقد عرف الصوفية والزهاد منذ القديم باهتمامهم بالأخلاق، والمؤكد أن الجاحظ حين اهتم بهم لحظ فيهم شيء: جودة الأدب، وقوة الأخلاق، ولذلك تراه يقول في مطلع كتاب الزهد: نبدأ باسم الله وعونه شيء من كلام النساك في الزهد وبشيء من ذكر أخلاقهم ومواعظهم"[246].

وما ذاك الإقبال إلا تفسير لاتساع أشعارهم لكثير من النظرات، ومنها، تلك التي تتصل بالكسب،والغناء ،والقناعة ،وموقف شعراء الزهد واضح فهم من دعاة القناعة، وتربية النفس على هذا المسلك يقول سابق:

والله ما قنعت نفس بما رزقت   من المعيشة إلا سوف يكفيها[247]

يقول أحمد بن أبي سليمان "وليس شيء على الأبدان أروح من الزهادة في الدنيا ولا للقلوب أروح من القناعة"[248].

أما أبو عقال الشاعر الماجن التائب بعد أن أكثر من اقتراف المحرمات والشبهات، وكل ما فيه ريبة ورغبة ولذة شعر بأنه لا بد من التحول نحو طريق المريدين و الزهاد و المتعبدين:

فلم أرى عيشا كعيش القنوع   ولم أر مثل التقي لي مرادا[249]

وفي تفضيل الناس على بعضهم في الرزق وهي دعوة ضمنية إلى القناعة يقول بكر بن حماد:

تبارك من ساس الأمور بعلمه   وذل له أهل السموات والأرض

ومن قسم الأرزاق بين عباده   وفضل بعض الناس فيها على بعض

فمن ظن أن الحرص فيها يزيده   فقولو له: يزداد في الطول والعرض[250]

---

[246]– عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، ص258، 259.

[247]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 4

[248]– القاضي عياض، تراجم الأغلبية ص276.

[249]– المالكي، رياض النفوس، ج1 ص540.

ومن الأخلاق التي يتواصى بها الزهاد التوكل ولا أدل على ذلك من حادثة أبي الأحوص المتعبد بسوسة الذي أتى إليها مرابط فأقام بها مدة حتى نفذت نفقته وأراد الرجـوع إلـى بلـده المغرب، فأتى إلى جامعها ليركع فيه وينصرف ،فبينما هو راكع إذ رأى عصفورا دخل الجامع وفي فمه شيء يطعمه فراخه فسقط من فم العصفور ما كان فيه فخرج من خلف الحصير فـأر فأكل ما سقط من فم العصفور فخاطب نفسه بان قال: فأر خلف الحصير فيفى الله تعـالى مـن رزقه كما قد رأيته.

"ولم يضيعه فكيف أضيع أنا؟ الله على ألا أدع مدينة الرباط إلى غيرها أبدا فاشتهر بهـا ولزمها حتى مات"[251].

وكذلك قصة إبراهيم المتعبد[252] الذي طلب من الله عز وجل أن يمـوت وأن لا يتـرك لبناته عدة من الدنيا إلا الله عز وجل[253].

وأنشد أبو بكر سعدون الجزيري[254] في حزن الناس للقوت مخافة الجوع وعدم تـوكلهم على الله في طلب الرزق هذين البيتين :

إذا القـــوت تـــأت لــك الصحـــة والأمـــن

أصبحـت أخـــا حـزن فـــلا فارقـــك الحـــزن[255]

وكان أبو إسحاق الجيباني[256] يسمع في الليل إذا بقي أهل بيته بلا شـيء يقتـاتون بـه فيقول:

مالـي تلاد أستطرقت مـن نسب ومـا أومـل غيـر الله من أحد

إن القنوع بحمـد الله يمنعنـي من التعرض للمنانـة والنكـد

إني لأكـرم وجهـي أن أعرضه عنـد السـؤال بغيـر الله

---

[250]– رمضان شاوش، الدر الوقاد ص77، ومحمد الطمار، محاضرات في الشعر، ص36.

[251]– المالكي، رياض النفوس، ج1، ص482، 483.

[252]– توفي سنة 349هـ، ينظر المالكي، رياض النفوس، ج2، ص454.

[253]– توفي سنة 349هـ، ينظر المالكي، رياض النفوس، ص454.

[254]– أبو بكر محمد بن سعدون الجزيري التميمي,المتعبد توفي سنة 344هـ,آثاره وآدابه ومروءاته كثيرة, وحج حججا مع كثرة الرباط، لزم قصرا بـن جعد, حسن الصوت بالقرآن, ينظر المالكي، رياض النفوس، ج2، ص414، 418.

[255]– المصدر نفسه.

[256]– أحد الأئمة المسلمين،وأبدال أولياء الله الصالحين، توفي سنة 399هـ.

الصمد[257]

وفي التوكل على الله والركون إليه في كل شيء واعتقاد أنه سبحانه هو الصانع على كل حال وبالتالي الاعتماد عليه في طلب الحوائج يقول بعض الصالحين:

إن الذي فوضت إليه أمري هو الذي خلفت في أهلي

لا عدموا فضل إلا هي الذي أفضاله أعظم من فضلي[258]

ولما حمديس القطان[259] اعتل احضر له طبيب فابتسم وقال: ما أقبح المخالفة بعد الموافقة من أردا الله به حالا وأراد غيره فقد خالف ثم قال:

بيد الله دوائي الذي يعلم دائي

إنما أظلم نفسي بإتباعي لهوائي

كلما داويت نفسي غلب الداء دوائي[260]

إن طلب الحوائج سفاهة فكل شيء مقسوم ،ولا تجدي معه عناء وتعب فلا بد من التوكل على الله والقناعة بما قسم للإنسان.

أما الرضا آخر مقامات الصوفية، يقول أبو عقال:

رضيت بدون الكفاية قوتا وبالله عن كل خلق عمادا[261]

كل شيء قد قدر وكتب فلماذا الحرص والذل في طلب الحوائج ؟ وفي موضع آخر يقول:

فامضي القضاء على الرضى مني به وإني رأيتك في البلاء رفيقا[262]

---

[257]– القاضي عياض، ترتيب المدارك ج3 ص502، 503.

[258]– المالكي، رياض النفوس، ج2 ص454.

[259]– من ولد أبي موسى شعري، كان كثير الكتب شأنه العبادة، مجانبا لأهل الأهواء والسلطان، من أصحاب سحنون توفي 289هـ، مولده 230هـ، ينظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3 ص254، 259.

[260]– القاضي عياض، ترتيب المدارك ج3 ص255، وتراجم أغلبية ص289، والعربي دحو، الشعر المغربي ص176.

[261]– المالكي، رياض النفوس، ج1 ص548.

[262]– المصدر نفسه، ص532.

لقد رأى أن الاستسلام للقضاء والقدر بالرضى فهو خير رفيق إذا حلت به المصاعب.

ومن المقطوعات التي تدور حول بعض الآداب التي يجب أن يتحلى بها المسلم العفو والتسامح عند المقدرة قال أحدهم:

العفو أولى لمن كانت له القدر لا سيما عن مصر ليس ينتصر[263]

ويرى سابق أنه إذا طلبت كل مذنب ولم تسامحه وتعفو عنه فتستجيب كل الناس لذا ليس هناك ضرر في المعاتبة:

إذا كنت طالب كل ذنب ولم تحلل أخا لك على العتاب

تباعد من تباعد بعد قرب وصار بك الزمان إلى اجتناب[264]

وأما عبد الله من أبي حسان اليحصبي[265] فرأيته يخالف سابق فهو يدعو إلى عدم العفو والتسامح لأنه مفسدة وعقوبة المذنب لصلاحه ،ولن يلدغ المؤمن من حجر مرتين:

من لم يؤدبه الجميل ففي عقوبته صلاحه[266]

ومن النصوص التي تشمل على كثير من الآداب الدينية من مثل إيثار الصمت والدعوة إلى القناعة هذه الأبيات لأبي بكر بن سعدون الجزيري:

سجن اللسان هو السلامة للفتى من كل نازلة لها استئصال

إن اللسان إذا حللت عقاله ألقاك في شنعاء ليس تقال

وأنشد:

الخير أجمع في السكوت وفي ملازمة البيوت

فإذا تهيأ ذا وذا فاقنع إذن بأقل قوت[267]

---

[263]– القاضي عياض، تراجم أغلبية ص258.

[264]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 8

[265]– تفقه من مالك مباشرة، مولده سنة أربعين ومائة، توفي سنة سبع وقيل ليس وعشرين ومائتين وقال ابن سحنون مات وهو ابن سبع وثمانين سنة ينظر القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج2 ص480، 485، العربي دحو، الشعر المغربي، ص169، تراجم أغلبية ص767.

[266]– القاضي عياض، تراجم أغلبية ص74، وترتيب المدارك ج2 ص483.

وهناك أشعار أخرى للزهاد تصور طبائع الناس، ومنها شعر القطان يقول:

لا تطمئن فإن النـــــاس قد حالوا ... واقبــض لسانك عما قلــت أو قالوا

واحذر زمانك إذا أحدثت عن زمن ... نـــــادي النصيحة أما ملت أو مالوا

وإبك الدماء على ما فات من زمن ... بــادي أعلى الفضائح أدابه أفضال

واقنع بجلـــسك إذا تقبل نصيحتنا ... أو تـــصمتـــن فمـــــا بعينـــك تسآل[268]

ومن صور الصداقة والوفاء أو الجحود والإنكار يقول أبو العرب محمد بن تميم:

إذا انقطـــــع الصديق لغير عذر ... فـــزاد الله خلتـــه انقطاعـــا

إلى يوم التنـــــــاد بلا رجوع ... فإن رام الرجوع فلا استطاعـــا

إذا ولى أخـــــوك قفاك عنـــك ... فول قفاك عـــنه وزده باعـــا

ونادوا وراءه يـــا رب تمـــــم ... ولا تجعل لفرقتـــه اجتماعـــا[269]

ومن صور تغير السلوك بعد الغنى و قطع علاقات التواصل والود بعد الفقر ،يقول أحمد بن أبي سليمان:

وإذا كـــان الفتـــى عني غنيا ... فليســت إليـــه محتاجـــا فقيرا

أواصلـــه إذا يبغـــي وصاليا ... وأمنحتـــه إذا قطـــع الدبــورا

ولـــيس مــــن الجميل يرى كبير ... يتابــــع مدبـــــرا حادثـــــا صغيـــرا[270]

ومن الخواطر المتعلقة بالإخوان قول أبي عقال:

لئـــن عرف الإخوان عني نزاهة ... وخلفني عنهــــم يصبني من الفقر

لقــــد سرني أني خلي من الذي ... أضاعوه من حقي ولو كنت في الأسر

ولو كنت في الدنيا على مثل حالهم ... أبحتهموا رحلـــي وعدت إلى طمري

فما لـــي إلى خلق سوى الله حاجة ... ولكنه شـــــيء تجــــاذبه فكري

علـــى الدنيـــا إذا مـــا تعذرت ... وأدثر الموجــــود منها على الضر

---

[267]– المالكي، رياض النفوس، ص417.

[268]– القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3 ص327، 328.

[269]– المالكي، رياض النفوس، ج2 ص310، 311.

[270]– المالكي، رياض النفوس، ج1 ص512.

سأرعى لهم ما هان مـــن عليهمو وأجمل نفسي في الجفاء على الصبر

عليهم سلام الله منــــــي رسالة مقسمـــــة بيــــن التواصل والهجر

فمـــــا ألفـــــه الآلاف إلا تشاغل عـــن الجد والتشمير في النهي والأمر

رضيت بوصـــل الله عن كل قاطع صـــــــال الإخاء فما ينوب من الدهر

وأيقنت أن المنع من فيض جـــوده وفضــــــلا لأهل القرب باح به شكري

بلا عوض منهـــا إلى النفس راجع علـــــى بجـــــاه فـــــي الأمام قـــدر

فقمت على صـــــول الزمان مفكرا بأربعـــــة أنبت فيهـــــا على الصبر

فقل لحصون العرب طرا من بـــها أبحتكـــــم حظـــي مـــــــن البـــر و البحر[271]

وحين نقرأ هذا الشعر نظن أن أبا عقال على قدر من السلوك الإســـلامي الرفيـــع فـــي نشدانه المثالية في العلاقات الاجتماعية ،والمثالية في التفرغ للعبادة :

فمـــــن دام دمـــــت لـــــه الوفاء وزايدتـــــــه أبـــــدا مـــا استزادا

ومن تاه تهت يميـــــــن لا يـــدل بــــه مـــــن أعـــز ولا من أسادا

يقول عبد الرحيم بن عبد ربه الربيعي الزاهد: "زيادة الأخوان نقص من العمـــل: قـــال بعضهم: يريد أن يقطع عما فيه الإنسان من عمل"[272].

ويقول سابق محذرا من الأصدقاء الذين يظهرون الود ويضمرون البغض داعيـــا إلـــى الترتيب في النظر إلى الأمور وعدم الأخذ بظواهرها بل يجب تقصى بواطنها قبل كل شيء:

أر ربمـــــا صار البغيض مصافيا وحـــــــال عن العهد الصديق المثافن

فلا تغتـــــر ما عشت من متجمل بظاهـــــــــــرة ود، قـــد تعطـــى البطائن[273]

وروى له مما أنشده أبو الفضل الرياشي قصيدة [274] يرى فيها أن الصديق إن لـــم يكـــن منصفا في الود الأجدى به استبداله،وفي جحود الأبناء لأبيهم يقول أحمد بن نصر:

---

[271]– المالكي، رياض النفوس، ج1 ص542.

[272]– القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص163.

[273]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 18

[274]، إن كنت متخذا خليلا*فتوق وانتقد الخليلا، من لم يكن لك منصفا*في الود فابغ بديلا، وعليك نفسك فارعها*واكسب لها عملا جميلا، ومن اســـتخف بنفسه*ورعت قالا وقيلا، وأقل ما تجد الئيم*عليك إلا مستطيلا، والمرء إن عرف الخيل*وجدته يأتي الجميلا.

إذا احتـــــاج البنـــون إلى أبيهم　　أتـــوا بالـــبر والفضـــل الجزيـــل

وإذا احتـــــاج والدهـــم إليهم　　يعايـــــش الهـــم في الليل الطويل

فأحســـن والــــد لم يعط شيئا　　و عـــــاش بمالــــــه حتـــــى الرحيلا[275]

وفي ترفع النفس عن مصاحبة الأغنياء من أجل المصلحة والزهد فيهم يقول سعيد بـــن الحداد:

ويبصرنـــــي إذا ذو المال يزهى　　بما يحـــوي مــــن المـــال الجزيلا

أراه كـــــأن عينـــي لا تـــراه　　وأعــــرض عنـــــه إعـــراض الملول[276]

وفي أبيات أخرى يصور ترفع نفسه عن دني المكاسب، وعن كل الـــدنايا والـــصغائر و تخطى المصاعب والهموم بكل همة وإرادة وقوة:

رغبـــت نفسي عن دني المكاسب　　وما أعجزتنـــي حيلـــه عن مطالبي

أبـــت همتي إلا سموا إلى العلى　　وإن طأطأتنـــي حادثات النوائـــب

فلـــم أنـــل دنيـــا قد نلت همه　　تنـــــزه نفـــســـي عـــن دنـــي المعائب[277]

وفي ذم الرياء، يقول محمد بن عسكر[278]:

إذا أقبلـــت قلـــــت صباح أقبلا　　وإن أدبـــرت قلـــت ليـــل أظلمـــا

جاريـــــة تيمــــت المتيمـــا　　يحكـــي شـــعاع الـــشمس منهـــا المسما[279]

وفي اشتغال الناس بتعقب أخبار الآخرين وبمساوئهم ونسيانهم لعيوبهم يقول:

يمنعنـــــي من عيب غيري الذي　　أعلمـــــه فــــي مــــن العيب

عيبي لهــــم بالظـــن مني لهم　　و لســـت مـــن عيبـــي في ريب

---

[275]– المالكي، رياض النفوس، ج2 ص185.

[276]– المالكي، رياض النفوس، ج2 ص98.

[277]– المصدر نفسه، ص 98.

[278]– شاعر متصرف، لم ترد أية أخبار عنه.

[279]– المالكي، رياض النفوس، ج2 ص270.

إذا كــان عيبـــي غاب عنهم فقـد أحـصـــى ذنـوبي عـالم الغيب[280]

وفي المراء ومدافعة الحق يقول:

لا يدفعـــن لجوجـــا حين تزجر إن اللجـوج لــــه في الدفع إغراء

واعضني في حسن عفـو من بوادره فالحـــــر عـــــن الآفـــات إغناء[281]

و ينصح سابق في شعره بالتزام بعض الآداب:

تعــاون على الخيرات تظفر ولا تكن علـــى الإثـم والعدوان مما يعاون

وداهـــن إذا ما خفت يوما مسلطا عليـــك ولا يحتال من لا يداهن

ولاتـــك ذا لونين يبـــدي بشاشة وفي صــــدره ضـب مـن الغـل كامن[282]

وفي معاملة الناس بالحسنى وعدم أخذهم بالغدر:

فـــلا تحفـــرن بيرا تريد أخا بها فإنـــك فيهـــا أنت من دونه تقع

كـــذاك الذي يبغي على الناس ظالما تصبـــه على رغـم عواقـب مـا صنع[283]

إن الشاعر يعرج إلى المأثور ليستلهم بعض معانيه، فالأبيات مأخوذة من المأثور القائل: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها،ومن الآداب التي تستحق التقدير تأديب الفتى فـي الـصغر لأن تأديبه في الكبر لن ينفعه ، وقد سارت هذه الأبيات مسرى الأمثال:

قـــد ينفـــع الأدب الأبناء في صغر وليـــس ينفعهـــم من بعد الأدب

إن الغصـــون إذا عدلتها اعتدلت ولا يليـــن ولـــو لينتـــه الخشب[284]

---

[280]، المالكي، رياض النفوس، ج 2 ص107.

[281]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 10

[282]– المرجع نفسه، ص 5

[283]– نفسه، ص 18

[284]– نفسه، ص 2

ويعبر سابق عن مكانة العلم في حياة الناس في كل الأزمان والأمــصار، ودوره فـــي تجلية ما خفي من الحقائق وهداية البشر في وصية لحسن بن سهل لابنه إبراهيم من الحسن:

العلـــم والحلـــم خلتـــان همـــا الخلـــق زيـــن إذا ما اجتمعـا

صنـــوان لا يتـــــم حسنهمـــا إلا بجمـــــع لـــــذا ذاك معــــا

كـــم من وضيع سما به العلم والحلم فنـــــال العـــــلاء وارتفعــــا

ومـــن رفيـــع البنـــا أضاعهمـا أحملــــــــه مـــــن أضـــــاع فاتضعا[285]

العلم والحلم إذا اجتمعا في الفتى رفعاه إلى العلا ،ويشبه فضل الحلم والعلم في التخلص من الجاهل بنيران متأججة يخمدها الماء يقول:

لا يظهـــرن لـــــذي جهـل معاتبة فربمـــــا ضجـــت بالشيء أشياء

فالمــــــاء يخمـد حر النار يطفئها وليـــس للجهل غير الحلم إطفاء[286]

وهذا أحمد بن أبي سليمان يقول :"يا طالب العلم: إذا طلبت العلم فاتخذ له قبل طلبه أدبـا تستعين به على حمله ومن دأب العلم الحلم، والحلم كظم الغيظ، وأن يغلب حلمك وعلمك هواك إذا دعاك ما يشنيك"[287]،وأنظر إلى أبي سعيد سحنون وهو يصف العلم:"مثل العلم القليـل، فـي الرجل الصالح مثل العين العذبة في الأرض العذبة، يزرع عليها صاحبها ما ينتفع به مثل العلم الكثير في الرجل الصالح مثل العين الخرارة في السبخة تهر في الليل والنهار ولا ينتفـع بهـا، ويقول: من لم يعمل بعلمه، لم ينفعه العلم بل يضره، وإنما العلم نور يـضعه الله تعـالى فـي القلوب فإذا عمل به نور الله قلبه، وإن لم يعمل به وأحب الدنيا، أعمى حب الدنيا عليـه، ولـم ينوره العلم"[288]، وله أبيات يصور فيها إعراض الجاهل عن العالم:

لمنزلـــــــة الفقيــــه من السفيه كمنزلـــة السفيـــــه مـــن الفقيه

فهـــذا زاهــــد فـــي رأي هذا وهـــــذا فيـــــــه أزهـد منـه فيه[289]

285، عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 19

286– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 10

287– القاضي عياض، تراجم أغلبية ص276.

288– المصدر نفسه، ص128، 129، وترتيب المدارك 2 ص620.

289–القاضي عياض، تراجم أغلبية ص128، 129، وترتيب المدارك 2 ص620.

وإليك بعض المقتطفات من القصيدة التي قالها الإمام أفلح بن عبد الوهاب[290] في العلم ويشترط فيه لكي يكون نافعا ينبغي أن يكون خالصا لله تعالى:

العلم أبقى لأهل العلم أثارا يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

حتى وإن مات ذو علم، وذو ورع ما مات عبد قضى من أوطارا

ومن عابد سنة لله مجتهدا صام النهار وأحيا الليل أسهارا

تعسا لكل مراء غير مقتصد وقد تقلد آثاما، وأوزارا

يصطاد بالعلم أموال العباد كما يصطاد مقتنص بالباز أطيارا[291]

خير العباد عباد الله إن له لطفا خفيا يرد العسر أيسارا

سبحانه صمد لا شيء يشبهه أقررت لله بالتوحيد اقرارا[292]

ويقول سابق عن أثر الذكر والعلم في تغيير الذات:

والذكر فيه حياة للقلوب كما يحيي البلاد إذا ما تمت المطر

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلى سواد الظلمة القمر

لا ينفع الذكر قلبا قاسيا أبدا وهل يلين لقلب الواعظ الحجر

ولا أرى أثر للذكر في خلدي والحبل في الحجر القاسي له أثر[293]

الشاعر يطلب العون من العلم والذكر على الزمن وطوارقه رغم بعد مناله إلا أنه غير مستحيل، فعادة يلتمس الإنسان الطريق ليلا من شيء سماوي ألا وهو القمر، ويحصل عليه فيهتدي إلى سبيله بنوره الذي يسود على الظلمة التي أوجدها الليل أو نقول يهتدي إلى سبيله بنور القمر الذي يرمز إلى الشيب الذي يسود على الظلمة التي ترمز سواد الشعر الذي أوجده الشباب وبالتالي يستطيع هذا الشخص أن يغير حالته الأولى إلى الأفضل لأن:

كل شيء له حال تغيره كما تغير لو اللمة

---

[290]، ثالث أمراء الدولة الرسمية بتهيرت بالجزائر، يشهد له بالعدل والورع والتقوى، مولده 208وفاته سنة 258 حسب ماورد في ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين القرن الثالث الهجري، تحقيق وتعليق محمد بن إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص57، 69، وينظر العربي دحو الشعر المغربي، ص207.

[291]– ولابن المبارك بيت شبيه بهذا البيت: ياجاعل العلم له باني*يصطاد أموال المساكين، ينظر ابن الجوزي، صفة الصفوة، الطبعة الأولى، بحيدر اباد بالهند سنة 1355هـ، ج4، ص116.

[292]– بحاز إبراهيم،الدولة الرستمية ط1، 1985، ص360، 361، والعربي دحو، الشعر المغربي ص207، 208.

[293]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

العبر[294].

وقد أنشد له المبرد في الكامل هذا البيت:

وإن جـــــاءك مالا تستطعان دفعه فـــــلا تجزعا مما قضى الله واصبرا[295]

وهو يدور حول سلوك أخلاقي كثير ما دعا إليه الزهاد وللتحلي بـــه. وهـــذا الـــصواف يقول:

سألبـــس للصبـــــــــر ثوبا جميلا وأفتـــــل للصبـــــــــر حبلا طويلا

وأصبـــر بالرغـــــــم لا بالرضى أخلـــــــص نفـــســـــــي قلـــيلا قليلا[296]

دلالة اللباس والفتل تشير إلى أن الصبر ليس صفة متأصلة في الذات وإنما يتم اكتسابها بالمحاولة والمجاهدة الطويلة للنفس وترويضها بالإكراه فهي لا ترضى ولا تأبى أن تصبر على الدنيا وحوادثها، وما هذا الإكراه إلا لتخليصها من حبها شيئا فشيئا حتى يطفو نار حبها من قلبه فيعتاد ويألف آذاها من بعد كما قال سعيد بن الحداد لحماس القاضي:

تعـــــودت مـــس الضر حتى ألفته وأسلمنـــــــي مس الليالي إلى الصبر

ووطـــــن قلبي للأذى الأنس بالأذى وقـــــد كنت أحيانا يضيق به صدري

وصيرنـــــــي يأسي من الناس راجيا لكثـــــرة صـــنع الله مـــن حيـــث لا أدري[297]

إن خير دواء يصفه أبرع طبيب لتهدئة الذات المتوجسة المفجوعة الحائرة هي الـــصبر على الدنيا وتقلبها:

واصبر على القدر المجلوب وأرض به وإن أتـــــاك مــــــــا لا تـــشتهي القدر[298]

---

[294]– المصدر نفسه ، ص 7

[295]– المصدر نفسه ، ص 5

[296]– القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3، ص243، وتراجم أغلبية، ص273، والعربي دحو، الشعر المغربي، ص193.

[297]– القاضي عياض،تراجم أغلبية ص 362، والعربي دحو، الشعر المغربي، ص178.

[298]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ص 6

فالصبر يؤمن للإنسان الراحة والطمأنينة وبالتالي الرضا بقدره ولو لم يعجبه يجعله ينعم بالاستقرار النفسي،ومن السلوكات الاجتماعية التي يجب على المرء أن يتفادها التزيد في رواية الحديث النبوي الشريف، يقول بكر بن حماد:

لقد جفت الأقلام بالخلق كلهم فمنهم شقي وخائب وسعيد[299]

فلو كان خيرا قل كالخير كله وأحسب أن الخير منه بعيد[300]

إن هذا العمل المشين دفعه وجعله يرى أن الخير في الدنيا قليل، لذا يجب على كل فرد منا أن يأمر الناس بالمعروف وينهى عن المنكر وإتباع الهوى شر من الشرور:

وهجر الهوى للمرء فاعلم سعادة وطول الهوى رين على القلب رائن

فكن دافنا للخير بالخير تسترح ومن الشر فالخير للشر دافن[301]

لعل ما ورد من أبيات متفرقة لسابق هنا وهناك مما قاله في الحكمة والموعظة والأدب والأخلاق ما يشير إلى ريادته في هذا الميدان، ولربما يمكننا القول أنه من الشعراء الأوائل الذين رسخوا موضوع الزهد في الأدب العربي مغربه ومشرقه قبل رائده أبي العتاهية، ولن ننهي الحديث إلا بأبيات متنوعة ترسم لنا صورة لسلوك الزهاد والنساك وحياتهم آنذاك، وإليكم أبو عقال وهو يذكر أوصاف هارون الأندلسي واجتهاده في الطاعة ودوامه عليها:

قرين الحزن ذو هم يجول أخو سهر إذا نام الغفول

دؤوم الكد أواه وإذا ما تذكر ما توعده الجليل

عزوف النفس عن شهوات دار تميل لها القلوب و ما تميل

قرين العين بالإخوان صب غزير الدمع سام وصول

سخي الكف ليس بما لديه من الدنيا وإن جلت تخيل

رحيب الصدر ليس له إدخار ولا أهل، ولا ولد يعول

---

[299]– البيت الأول يحث على التوكل والرضا، فالأحكام قد ثبتت فلا تبديل بعد ذلك ولا ننسخ بما كتب بها لكن يوجد فيها بتبديل بكسب الله ومصداقية.

[300]– رمضان شاوش، الدر الوقاد، ص75، والمالكي، رياض النفوس، ص2625.

[301]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 5

فعـــــــول ما يقـــــــــول وكل أمر تــــــدل عليـــــه فهــو له عمول

ذكـــــــي النفــــــس ذو عقل ولب صـــــدوق اللفـــــظ يفهم ما يقول[302]

وفي التلوين حيث يتعرض الشاعر للبسط والقبض:

منــــاي وتسويفــــي بنفسي أذلها وأعملهـــــا فيما عليهـــا بمالها

تميـــــل إلــى حظ من القوت دارس بحظ من الدار التـــي لا انقضالها

كأنـــي للدنيـــا رهيـــن بخدعـــة تحالفني يومـــــا و يبقى وبالها

وناشئـــة الليـــل التهـــم يقومها رجال أضاعت فرشهـــا وحجالها

سوامـــر أســـدال الظـــلام ضوامر بنيـــل مـــن الأقتار منها منالها

ولا ذت بمولاهـــــا بصائر فكرها فأنعشهـــا روح الحيـــاة وعالها

فلمـــا رأى مـــن أثرتـــه بحبها داوم الأســى منها عليها رثى لها

فعفـــى مراقيهـــا وأوطى سهولها وحطـــــت عليه بالوجود رجالها

نعيــم ذو الألبـــاب برهان صدقهم ولى حالـــة لم ينعم الكتاب بالها

كأنــــي ونفسي بين حرب وهدنة إذا ساعدنـــي هذا السهاد بدا لها

وإذا ذاد للـــــورد حادي وعيدها أشــــار إليهــــا ضده فأزالها

يخالفنــــي فـــي كل أمر أريده وتقطــع منـــي باليمين شمالها

فمـــن لي بنفســي لا تزال غوية تساعـــد شيطانا يريـــد ضلالها

فلو كان لي التخيير فــي بدء خلقتي تعـــوذت من نفسي فلم أر حالها

وكنـــت كمـــن لم يبدع الله وخلقه فـــلا علـــة آسي عليها ولا لها

ولا كنت فـــي الدارين حرا مدللا لنغص ذكر المــوت و عندي دلالها

فـــلا كانـــت ولا كنــت قبلها فمالي وما للعيش فيهـــا وما لها [303]

وفي الوجد:

دعـــاه مـــن الأوطان شوق مبرح فجـــاد عليه دمعه وهــو قاطر

عليـــه لكتمـــان المودة شاهد من الوجد يبدي ما تجــن الضمائر

---

[302]– المالكي، لرياض النفوس، ج1 ، ص544.

[303]– المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 543.

عـــزوف عــن الآمال بين ضلوعه   **وبين الحشا لوعة الحــــب بائد**

ألا فعلـــــــى الدنيا عفاء يشوبه   **طلاقي لها ما ساعا بيــن البصائر**

فـــإن أقبلــــت يومــا علي بودها   **فإنــــي كمــــا تولى من البر كافر**

لعمـــــرك ماضي الدنيا شيء أريده   **ســــــوى أنها نزل وأني مسافر**[304]

وفي الرياضة النفسية مقطوعة تختصر مجاهداته من هجر الوطن إلى الحــرم وصــيام النهار وقيام الليل:

ليـــت شعـــري ما الذي عانيته   **بعـــد دوم الصوم مع نفي الوسن**

مـــــع تروح النفس عن أوطانها   **مــــن نعيـــم وحميـــم وسكن**

يا وحيـــدا لــــى من وجدي به   **لوعـــة تمنعنـــي مــــن أن أجن**

فكمـــا تبلـــى وجوه في الثرى   **فكــــذا يبلـــــى عليهــــن الحزن**[305]

وفي غزارة الدمع رهبة من الله وخوفا منه يقول أبو الفضل مولى نجم:

ألا يـــا عيــــن ويحـك فاسعديني   **بسكــــب الدمـــــع في ظلم الليالي**

لعـــلك فــــي القيامة أن تفوزي   **بخيـــــر الفـــــوز فــي تلــك العلالي**[306]

إن كل ما مر بنا من شعر يمثل ضربا من ضروب فكر الزهاد الجديـد فـي تـأملاتهم الإيمانية وسبحاتهم الروحية، وهو يكشف عن معاناة معرفية وجودية دينيـة حقيقيـة، وأصـالة وعمق مغربيين بحيث يتراءى لنا جليا مدى تواصل الإنسان المغربي بواقعه المعيشي وتكييفـه مع زمانه حيث أتى زهدهم يحث على معالي الأمور، ويفهم أصحابه الكلمة المسموعة والمؤثرة والنافذة إلى أعماق النفوس البشرية لهذا كانت تشدو بأشعارهم الألسن لتقواهم ولبـساطتهم فـي الاعتقاد والسلوك، فالشاعر المغربي حينما يتأمل الكون والحياة ويرخي لشاعريته زماما فتنطلق الأشعار من ذاته موحية بالإيمان والأمل والألم والعذاب راسمة بطريقـة إيحائيـة أو بواسـطة الكلمات رؤاهم بحس وجداني يلفه الحزن ويسوقه العذاب، ويقوده الإيمان بالله سبحانه وتعالى،

---

[304]– المالكي، رياض النفوس، ج1، ص545، والعربي دحو، الشعر المغربي، ص206.

[305]– إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المغرب، ص155.

[306]–المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 243.

وبمصير الإنسان في هذه الفانية، فهو يحاول التطلع إلى معارج النور والتخلص من معاني النقص والتوسل بالحكمة والمعرفة لتوجيه العواطف نحو ما هو أنبل وأحق وأرحم ، وهذه المعاني والاتصاف بها جعلت من هذا الشعر وشعرائه رقعة أرجوانية تزين الحياة الدينية والفكرية والأدبية في المغرب القديم ، وتميز مجتمعه بهذه المحافظة الدينية الزائدة عن اللزوم في بعض الأحيان.

الفصل الثاني

مصادر المعجم الشعري ومحاور دلالاته الفنية

أولا ــ مصادر المعجم الشعري:

إن تاريخ أي شعرية لن يكون إلا تاريخا لغويا في أساسه، ثم يكون تاريخا لأسس أخرى التي لا يمكن بدورها أن تحقق وجودها بمعزل عن اللغة أيضا،ومن ثم فلا يمكـــن الوصــــول إلى جوهر أي شعرية وقوامها الفني واتجاهها الفكري والروحـــــي دون الكشــــف عن طبيعة اللغة المشكلة لهذه المدونة الشعرية أو تــــلك، ودرج النقاد على استـــــخدام مصطلحي المصدر والمعجم ،ولا يخفى بــــأن إبراز المصادر الأساسيــــة للمعجم الشعري في المدونة يكشف عــــن العلاقة بين نصوصها الشعرية وبين تلك النصوص الغائبة، ومدى التفاعــــل بينهـــا ليتسنى من خلالها استجلاء ملامح أصالة الشعراء وتفردهم، أو تكرارهــــم لأعمال غيرهم؛ويمكن حصرها في القرآن الكريم والتراث العربي.

1ــ القرآن الكريم:

بعـــــد اطلاعي على نصوص المدونة تبين لي أن القرآن الكريم من المنابع الأساسية التي مدت الشعراء بقاموس شعري متميز، وهو يكشف عن انتماء أصحابه العقيدي واتجاههم الروحي.

ومــــــن الألفاظ التي يكثر تواترها في هذه الأشعار ما يتعلق بالذكر والدعاء والعبادات وقصص الأنبياء بالإضافة إلى الأمم الغابرة،ومن هذه النماذج التي تناصت مع القرآن.

قول أحمد بن أبي سليمان:

أرى الدنيـــــا تغيــــرها الليالي ... وأيامـــــــا مؤلفـــــة شهــورا

أرى يمــــا يجــــيء بكـــل خير ... و يومـــــــا بالحوادث مستطيرا

كـــــــذا أحوال دهرك، حال أمن ... و حـــــــال تجزع البطل الجسورا

وكـــــــــم ملك عظيم ذي اختيال ... أعــــــــــد خزائنا وبنى قصورا

وكـــــــان مداه ذا خطر عظيم ... فصــــــار مؤجـــلا أجلا قصيرا

ومـــــــــن ذاك التملك والتعالي ... وسكنــــــى قصـــره، سكن الحقيرا

وأضجـــع فــــي التراب بلا مهاد ... يضيــــــق اللحـــــد منجدلا غفيرا

وكــــم مــــن طالب للمال يسعى ... ويركب فــــــي مطالبه البحورا!؟!

فصــــــار يود أن لو كان أضحى ... علـــــــى تفريـــق ما حوى قديرا

وعـــــاد يــود أن لو كان أمسى وليــــــس بمـــــــالك منه نقيرا

وقـــــد حبـــس اللسان فلا كلام وقـــــد سمع الصياح المستطيرا

فإمــــــا مؤمـــــن يرجو خلاصا و إمـــــا كافـــــــر يصلى سعيرا

فويـــــل للشقـــــــــي إذا تردى وصـــــار إلى التي ساءت مصيرا

إلـــــــى نــــــــار تلظيها شديد و تزفـــــر فـــــي تغطيها زفيرا

وطوبـــــــي للسعيـــــــد إذ حباه إلـــــه العرش في الفردوس حورا

وصـــــــار شرابـــــه من سلسبيل و أنهـــــار مفجـــــــــرة خمورا

أرانـــــــي وقد كبرت ورق عظمي و صـــــــرت مخامر ضرا ضريرا

كأنـــــي بالبكـــــــاء علـــي فاش وقـــــــــد حملوا بجثتي السريرا

إلـــــــى دار البلـــي حملا سريعا و ينصرفـــون عـــــن قبري نفورا

وخلونـــــــي بأعمالـــــي فروحي علـــــى الحـــــالات تنتظر النشورا

أجرنـــــي مـــن عذابك وأعف عني وكـــن لــي منـــــك يا أملي مجيرا

فإني قـــــــــد كبرت ورق عظمى لجــــأت إلـــــى فنائــك مستجيرا

وإنــــــــــي لــم أزل أرجو عفوا لأنـــــــــك لـــــــم تــزل ربــا غفورا[307]

---

[307]-العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص196-198.

نلاحظ تناصا قويا للشعر مع القرآن الكريم ولاسيما سورة الإنسان، فروى الأبيات، يذكرنا بالراءات المفتوحة في أواخر آيات السورة، وفي النص تأثر جلي بآياتها "إنا هديناه السبيل إما شاكرو وإما كفورا"[308] و"عينا فيها تسمى سلسبيلا"[309] ، و"عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا"[310] **وكلمة القافية "مستطيرا" هي آخر الآية السابقة من السورة.**

ويجتمع تأثر الشاعر بسورة الإنسان وغيرها في آن واحد في البيت الخامس عشر ففيه يذكر تحلي أهل الجنة بالذهب والحرير، والتحلي بالذهب والحرير وارد في الآية 23 من سورة الحج والآية 23 من سورة فاطر.

والتحلي بالذهب والسندس والإستبرق، وهما من قبيل الحرير وارد في الآية 31 من سورة الكهف، وأن التحلي في سورة الإنسان إنما هو بالفضة والسندس والإستبرق، وبهذا التناص لا نستطيع أن نلغي تأثر الشاعر بسورة الإنسان في هذا الموضع،فالشاعر استخدم الفعل حلي ماضيا مبنيا للمجهول، وجاء بالصيغة نفسها في سورة الإنسان في حين أنه يرد في آيات الكهف والحج وفاطر مضارعا مبني للمجهول، ثم إن كلمة حرير واردة مرة أخرى منصوبة في سورة الإنسان نهاية للآية 12، وهذا فضلا عن التأثير الواضح بسورة الإنسان في نواح عديدة من النص الشعري، ويمكننا أن نثبت مشاركتها لغيرها في أمر التحلي وإن وردت فيها الفضة لا الذهب حلية.

وقول الشاعر "ساءت مصيرا" هو اقتباس جلي، فالآيتان 97-115 من سورة النساء، والآية 6 من سورة الفتح تنتهي كلها هكذا: "وساءت مصيرا" وقوله "يصلى سعير" وعن النار: "تزفر في تغظيها زفيرا".

وهذا التناص يذكرنا بالعديد من الآيات الكريمة في سور مختلفة، ولكن أقربها إليه، الآية 12 من سورة الفرقان: "إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا"، **وقد ضمن محمد زرزر الفارسي شعره بآيات القرآن الكريم حيث يقول:**

تهتك الستر ذي البغي والفند   وحصحص الحق بعد الغي ولد

---

[308]- سورة الإنسان، الآية3.

[309]- سورة الإنسان، الآية 18.

[310]- سورة الإنسان، الآية 6.

وفي الخلـــــود نعيم غير منصرم بـــــــاق بقدرتـــه، باق بلا أمد[311]

كما نلاحظ بأن قوله "حصحص الحق" مأخوذة من سورة يوسف الآية 51، أما قوله "لم يولد ولم يلد" مأخوذة من سورة الإخلاص الآية 3" ،ولا شيء يشبهه" إشارة إلى الآية 4 من نفس السورة كما يستحضر الصواف الآية الكريمة: "فإن مع العسر يـسرا، إن مـع العـسر يسرا"[312] في الآبيات التالية:

ولـــــم أجـــزع وللأيام صرف يعـــــود عسيرهـــا سهلا يسيرا

ولـــــــم أفرح لأن لها انقلابا يعيــــــــد يــسيرهـا صــعبا عسيرا[313]

وهذا بكر بن حماد يأخذ ألفاظه من القرآن الكريم مستفيدا من دون ريب مما جاء فـي الآية الكريمة 23 "قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا" من سورة مريم في قوله:

فليـــت الخلق إذا خلقــوا بواقي وليتــــــك لـم تكـن يـا بكــر شيئـــا[314]

هناك إشارة إلى الآية 20 من سورة الحديد "واعلموا إنما الحياة الـدنيا لعبـا وزينـة وتفاخرا" **وفي قوله "بينما مرء المرءة في لهو ولعب" كما استفاد أيضا بآيتين من القرآن فـي هذه الأبيات:**

ما بالقلـــــوب حياة بعد غفلتها والله سبحانـــــه منهـــا بمرصاد

أين البقـــاء وهذا الموت يطلبنا هيهات هيهات يـا بكـــــر بـن حماد[315]

[311]- إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص141.

[312]- سورة الإنشراح، الآية 5-6.

[313]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص196.

[314]- شاوش رمضان، الدر الوقاد لبكر بن حماد، ص88.

[315]- المصدر نفسه، ص81.

فالبيت الأول إشارة إلى الآية 14 من سورة الفجر : "إن ربك بالمرصاد"، **أمـا البيـت الثاني إشارة إلى الآية 36 من سورة المؤمنين:** "هيهات هيهات لما توعدون". **ونجـد ألفاظـا كثيرة من القرآن الكريم أو من الدين الإسلامي، فهذه الآبيات:**

والله لــــــوردوا ولـــو نطقوا إذا لقالــوا : التقي من أفضل الزاد[316]

وكلنـــا واقـــف منها على سفر وكلنـــا ظاعن يحدو به الحادي[317]

إشارة إلى الآية 196 من سورة البقرة: "فإن خير الزاد التقوى" **والآية 80 من سـورة النحل:** "والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعـنكم ويوم إقامتكم".

وكذلك سابق الذي يبدو تأثره بالآية الكريمة 78 من سورة النـساء: "أينمـا تكونـوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" **في قوله:**

الموت جسـر لمن يمشي على قدم إلـــى الأمور التي تخشى وتنتظر

مـــن كان في معقل للحرز أسلمه أو كـــان فـــي خمـــر لـــم ينجـــه الخمر[318]

فهو يوضح أن الموت لا يغني منه شيء ولا تصده قوة ولا ينجو منه حريص ولا فرار، وإذا كانت الموت بهذه القوة وهذا الطغيان فمن العبث أن نعد له عدة الفرسان قصد النجاة منه، فهو لا يتوقف ولا يتعب، ورماحه نافذة قاتلة وسيفه لا ينبو، فلا جدوى من الإعـداد لمواجهتـه لأن حتميته وسيادته أكيدة، فالموت ظاهرة كونية، وقانون أزلي طبيعي لا يتغير،و يـدعو فـي نص آخر إلى التعاون :

تعاون علـى الخير تظفر ولا تكـن علـــى الإثـم والعـدوان ممـن يعاون[319]

[316]– المصدر السابق، ص80.

[317]– المصدر نفسه، ص82.

[318]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

[319]– المصدر نفسه ، ص 8

واستعانته بالآية الكريمة الثانية من سورة المائدة: "**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعانوا على الإثم والعدوان**" واضحة في هذا البيت.

كما لا ننسى أخذهم من التراث الإسلامي بذكر ثمود وفرعون وعاد... لإيصال المعنى كما نجد ذلك في الآية 7-10،من سورة الفجر والبروج، الآية 17-18.

ونرى ارتكازهم أيضا على مجموعة من المعاني الدينية، والألفاظ المتعلقة بالعقيدة الإسلامية (الحساب، الذنب، الجنة، جهنم، النعيم، الحشر، أهوال القبر،...).

ويجوز لنا القول بأن القرآن الكريم كان له تأثيره الواضح وصداه في أسلوب الشعراء المغاربة شأنه في ذلك شأن غيرهم من الشعراء الذين جاءوا بعد الإسلام، ومما أرجحه أن الشعراء كانوا حافظين للقرآن ومتفقهين فيه، فقد امتازت بيئتهم بكثرة الفقهاء الذين أثروا في نفوس الناس وبخاصة أصحاب النزعة الزهدية بشكل واضح مما ولد لديهم حافزا دينيا قويا شد الإنسان إلى آخرته، وهذا يكفي للتدليل على تأثير القرآن في أساليبهم،ولا عجب في ذلك فقد كان القرآن تصويرا للنفس البشرية في سلمها وحربها ولهوها وجدها و ألمها وإيمانها ، كما كان تمثيلا للقيم السامية في الحياة، وفيه من صفاء الحكمة، وروحانية الفطرة، والحديث عن العقيدة والإفاضة في بيان الشرك والإيمان، والشر والخير، وما يوقظ الضمائر ويحرك العقول ويثير النفوس وفيه من أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية والشرائع البائدة، والأديان السالفة، ما يجعله قوي التأثير في لغة الشعراء، وفي نفوس المتلقين .

2-المعجم الشعري القديم:

يعتبر المعجم الشعري القديم أحد المصادر الأساسية التي استعان بها الشعراء في إخراج قصائدهم الشعرية بعد القرآن الكريم، ويمكن القول بأن لهم إطلاع واسع على الموروث الشعري العربي ،وأكثر من ذلك إعجاب الشديد بالمشارقة والجاهليين ،واعتبارهم المثل الأعلى الذي يحتذى به ،وينسج على منوالهم، ويظهر هذا التأثر بشكل واضح في المعجم الذي يرجع إلى المقدمات الطللية التي تعتبر مرآة صادقة تكشف عن مدى التأثر بألفاظ وأسلوب ما تعودنا من إبداعات شعر القدماء ، ومن ذا القبيل القصيدة التي مطلعها:

أرى البرق من نحو العذيب توقدا — تغيب طورا لمعه وترددا[320]

---

[320]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص194.

فقد جاءت على طريقة شعر القدماء في وقوفهم على الأطلال وحالتهم النفسية الموافقة لحالة الزهاد في محبتهم لخلق أجواء تستدعي منهم التذكر، والتأمل في الحاضر والمستقبل، وكل هذه الحالات تؤدي إلى مواقف انفعالية تصل بهم إلى حد البكاء والنحيب فيترجمونها إلى شعر رقيق يوصل تجربتهم في الزهد إلى قلوب المتلقين وضمائرهم، وهذا ما نلاحظه في شعر أبي عقال المقتفي لمنهج القدامى:

بلوت الزمان ودست البلاد ونافست في كل شيء عنادا

شربت المدام وسست القيان ورضت الجياد ورعت الشدادا [321]

ونلاحظ بأن الشاعر مزج في هذا البيت بين وصفه لمجالس الخمر والسهر والتمتع وقطف اللذة (الصيد، التصعلك، التنافس في كل شيء) وهو يشير ضمنيا إلى كبر سنه، ودنو أجله، ولكنه يرفض الاستسلام له، فهناك مرارة وحسرة شديدة تتضح من هذه الأبيات النابعة من عدم رضاه على حياته التي انغمست في اللهو والنشوة، ثم يأتي التخلص من هذه المقدمة الغزلية إلى الحكمة والتأمل والسير على طريقة الزاهدين ،وهذا أحمد بن أبي سليمان وأبو العرب يتقاطعان في لغتهما الشعرية مع زهير بن أبي سلمى في قوله:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم [322]

ولا تختلف لغة هذا البيت عن لغة هذا الشعر:

تركت تكاليف الحياة لأهلها وجانبتها طوعا مجانبتي الردى [323]

ولما صحا عمري ثمانين حجة هجرت تكاليف الحياة لما فجا [324]

وأقصرت عن ذكر الصبي وهجرته وصرت فريدا لا أبالك أوجد [325]

---

[321]- المصدر نفسه، ص201.

[322]- الأصفهاني، الأغاني، ج14، ص213.

[323]- العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص193.

[324]- المصدر نفسه، ص195.

[325]- المالكي رياض النفوس، ج2، ص311

ويتبين لي كما قال أحد الدارسين :بأن "المغرب لم يكن من وراء أكبر صحارى العالم بمعزل عن المشرق، فلقد جاراه في كل موضوع حتى في الشعر الروحي الزهدي منه والصوفي، ... وكم من مرة رأينا شاعرا مغربيا ينظر إلى شاعر مشرقي بعين الراغب فيما عنده صنيع أحمد بن سفيان مع النابغة الذبياني، وبكر بن حماد مع أبي العتاهية، وعلي بن محمد الأيادي مع البحتري"[326].

وإذا كان التأمل في صنيع الزمن وما يتعلق به من ظواهر وأجرام طبيعية أمر معروف في الشعر العربي من فجره إلى يومنا هذا فإن بكر بن حماد في بائيته ربطها بنص عربي مشهور ذكره ابن قتيبة المعاصر لبكر، ونسبه إلى ملك اليمن مرة ،وإلى أسقف نجران مرة أخرى، و مطلع هذا النص:

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا يمسي

وطلوعها بيضاء صافية وعزوفها صفراء كالورس[327]

فهذا المطلع وثيق الصلة لفظا ومعنى ببيت بكر:

فقد قطع البقاء غروب شمس ومطلعها علينا يا أخيا[328]

ويطول الحديث لو أتينا بذكر نظائر ألفاظ هذا الشعر ومعانيه التي عرضها بكر، وحسبنا نرى نماذج منها قيلت قبل عصر شاعرنا، وهذان البيتان الواردان في المعارف ما أكثر أشباههما في ديوان أبي العتاهية ومن ذلك:

هي الدار حادي الموت يحدو بأهلها إذا شقت شمس النهار وغربت[329].

ولأبي العتاهية أيضا:

الليل يعمل والنهار ونحن عمّا يعملان بأغفل الغفلان[330].

وله أيضا:

قل لليل والنهار اكتراثي وهما دائبان في استحثاثي[331].

---

[326]- إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المغرب، ص3.

[327]- ابو محمد بن عبد الله بن مسلم، المعارف، دار الكتب المصرية، 1960، ص630.

[328]- شاوش رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص88.

[329]- ديوان أبو العتاهية، دار الكتب المصرية، ص52.

[330]- المصدر نفسه، ص45.

والبيتان السابقان يشيران إلى صنيع الزمن بالإنسان مثل إشارة بكر بن حماد.

ولأبي العتاهية تصوير جميل للقطيعة الحتمية بين الموتى والأحياء علـــى شـــاكلة: "زر منازل قوم لا يزورونا":

أهـــــــل القبور ألا توصل بيننا مـــن مات أصبح حبله رث القوى[332].

وقصيدته التي مطلعها:

قـــــف بالقبور فناد الهامدين بها مـــــــن أعظم بليت فيها أجساد[333]

وقد جاءت على طريقة الجاهلين في نسجهم للغة المقدمات الطللية؛فهذا عامر الكتـــاني يتقاطع مع الشاعر الإسلامي مالك بن الريب في رثائه لنفسه، قبل الموت في قوله:

ألا ليـــــت شعري ! هل أبيتن ليلة إليــــــك انقطاعي ؟ وإنني سعيد[334].

والتقاطع ظاهر في الشطر الأول من البيت التالي:

ألا ليـــــت شعري ! هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجي[335]

ولن ننسى سابق المطماطي، الذي لم يحافظ على بنية المقدمات، بل استأنس بما كان موجودا وطوره بما يلائم البيئة والعصر والظروف والموضوع المعالج في القصيدة، فبدلا من الوقوف على الأطلال والبكاء على الديار والثناء عليها يفتتح قصيدته الرائية بالبسملة والحمدلة، مما يوضح لنا أن الشعراء اقتفوا آثار العرب، ولكنهم لم يتميزوا عنهم إلا نادرا.

ولو وصلتنا دواوين شعرية مغربية ترجع إلى فترة دراستنا لتوسعنا في مناقشة تأثر المغرب بالمشرق تأثرا متمثلا في تقليد موضوعاتهم و أساليبهم أو أي تقاطع آخر، ولكن ما الحيلة أمام ضياع أغلب دواوين الشعر المغربي في هذه الفترة كما ضاعت دواوين بعض شعراء المشرق والأندلس على من أغلب الدارسين يؤكد على وفرة الشعر المغربي وجودته في هذه الفترة "فليس بمصر والأندلس مثل ما للمغرب من شعر الوعيد القائم على المناقضة والشعر الروحي، ولا سيما الصوفي منه، فبهذين اللونين يتميز الباقي من تراث المغرب الشعري"[336].

---

[331]- المرجع السابق، ص06.

[332]- نفسه، ص16.

[333]-نفسه، ص9.

[334]-القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص268.

[335]-أبو زيد القريشي بن أبي طالب الخطاب، جمهرة أشعار العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 1963، ص269.

[336]-إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص3.

ثانيا ــ المعجم الشعري ومحاور دلالاته الفنية :

يمثل موقف الإنسان من الكون أو العكس أحد الملامح الأساسية التـي شـكلت الـشعر العالمي وحددت حقول معجمه اللغوي، ويبدو بأن محاولات جعل هذا المعجم اللغوي تتحكم فيه معاني الرفض أو القبول أو الأمل أو اليأس أو الإقبال على الدنيا أو الزهد فيها أو أي معـاني أخرى ما هو إلا تأكيد واضح لموقف الشعراء أنفسهم عن فهم علاقة الإنسان بالكون، وعلاقـة الشعر باللغة، ويرجع هذا إلى أن طموح الإنسان يبدو وكأنه أكبر وأشمل وأعمق مـن قدراتـه العقلية والروحية واللسانية التعبيرية الفنية ، فهو يحاول استيعاب كل شيء وعندما يعجـز فـي مهمته، وهذا شيء محتمل دائما لطبيعته البشرية الناقصة فإنه سرعان ما يلـوم الكـون نفـسه ويتهمه بالخلل وفقدان المعنى والجدوى[337]،ولا خلل إلا في اللسان ،ولا معنى إلا فـي عجـز العبارة ولا جدوى إلا في غياب الوسيلة الفنية .

وإذا وصل أي شاعر إلى حد التكيف مع الحياة بطريقة أو بأخرى فإنه يستطيع آنذاك أن يتكيف معها لغويا وفنيا، ويدرك معناها الخاص وحده من خلال اختياراته اللسانية وإمكانياتهـا الأسلوبية، ومن ثم ينجح في الوصول إلى درجة معينة من الانسجام مع الكون ،وهذا يدل علـى اكتشاف وسائل وحقائق تجعل ذاته وانفعالاته و جهازه العصبي في منتهـى التنـاغم بعـد أن استطاع التخلص من الصراعات والإحباطات على مستوى اكتشافه لما يزيل عليه غربته مـن أنساق دلالية لغوية ترمز لموقفه من كل تلك التجارب .

أما إذا لم يكن ثمة انسجام نفسي وروحي ولغوي ، فهو بالضرورة سيختار لغة العتـاب واللوم والبكاء كما نلاحظ ذلك في بعض النماذج من شعر الزهاد والمجان التائبين كأبي عقـال و كأحمد بن سليمان الصواف:

لمـــــا تذكرهـــــا وقال ندامة　　　مـــــن بعدها يا ليتني لم أفعل[338]

وعندما يتذمر الإنسان من شعوره بأن الكون كبير ومعقد وغامض، فإنه لا يـستطيع إلا أن يختار لغة رافضة للواقع ومتعجبة من تقلبات الزمن، وهذا يدل على عـدم الانـسجام بـين اختياره للغة الحياة كما هي ولغة الشعر يقول سعيد بن الحداد:

مـــا زلت من حادثات الدهر متعجبا　　　حتى انقضى عجبي بعد الثلاثمائة

---

[337]- نبيل راغب، موسوعة الفكر العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص324.

[338]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص193.

لا بـــــارك الله في عام وفي سنة　　كـــــانت لشر زمان كان مختبئه

عـــــــــادت أسافله طرا أعاليه　　ولا أعالــــــي إلا وهي منكفئة[339]

إن اختيار لغة الاستغراب والتناقض ما هو إلا تعبير عن حالة نفسية شعرية عاشها هؤلاء الشعراء الذين لم يستوعبوا حقيقة زمانهم الذي طغى فيه الفاطميون بفكرهم وعقيدتهم ولغتهم وشعريتهم الشيعية، فأصبح كل شيء عندهم غريبا في عالمهم الداخلي المثقل بالمشاعر والتصورات والتأملات التي تمتد لتشمل الكون اللغوي الشعري كله.

وإذا حاولنا الوقوف على المعجم اللغوي لدى هؤلاء الشعراء نجده يدور حول حقل واحد هو الوجود الذي تتجاذبه حقيقتين بارزتين هما: الحياة والموت،و تتفرع عنهما فروع يصب كل منهما في محتوى واحد هو ذات الشاعر الحزينة.

ثانيا – معجم حقل دلالات الحياة أو (الدنيا):

لعل لغة معظم القصائد التي تدور حول الحياة ترتبط بالحقل الدلالي للزمن وتقلبه بين الصفاء والكدر وبين أيام الشباب والشيخوخة.

وتتشكل لغة النصوص الشعرية الزهدية من كل ما يجلي صور الحياة وتفاصيلها الدائرة في فلك الزمن على غرار لغة الفتوة والصبا ومظاهر الدعة والاطمئنان التي يتفرع عنها معجم يدور حول الإحساس بالقوة والقدرة ؛أو الضعف ،يقول عيسى مسكين:

لعمـــــــري يا شبابي لو وجدتك　　بمـــــا ملكـــت يمين لأرتجعتك

ولـــــــو جعلت لي الدنيا ثوابا　　وما فيهـــــا عليك لما وهبتك[340]

وقال أيضا: ينشد الكمال الجسدي

لمـــــا كبرت أتتني كل داهية　　وكل ما كـــــان مني زائدا نقصا[341]

ويقول أبو عقال:

لاح المشيـــب بلمتـــي فنعاني　　ونفـــى الصبا عني، وذم عناني

ونـــاءت خطوب الحادثات بأسرتي　　فبقيــــــت منفردا من الأقران

---

[339]– المالكي، رياض النفوس، ج2، ص110.

[340]–العربي دحو، الشعر المغربي، ص175.

[341]– المصدر نفسه، ص 175.

**فلئـــن مضى صدر الزمان بصفوه		فلأخدمـــــــــن لسيدي المنان**

**ولا قطعـــــــن علائقي من غيره		حتى أجـــل سباحـــــة الميدان**

**ولأنفيـــــــن مطاعمي، وملابسي		ولأمنعـــــن مــــن الكلام لساني**

**ولأهجـــــــرن أحبتي، و معارفي		ولأقطعـــن عصابـــــة المجان[342]**

ويحشد الشاعر هنا قاموسا شعريا مداره معاني الصبا والقوة و الكمال الجسدي والشعري أو الكبر والضعف والجفاف الشعري، وهذا ما نلاحظه في شعر أبي عقال الذي يشكل معجمــه الشعري من كلمات تنتمي أغلبها إلى تحولات الحياة ومظاهرها الماديــة والمعنويــة نحــو: (المشيب، الصبا، خطوب، الحادثات، الأقران، الزمان، مطاعمي، ملابسي، علائقــي، أحبتــي، معارفي، عصابة المجان، العباد،...) ويغلب عليها معنى اشتداد الخطوب على الإنسان و يزيــد اللغة المعبرة عن ألمه العميق من خلال أساليب التأكيد(لأقطعن، لأهجرن، لأبكين،...).

وأما المعجم اللغوي لشعرية سابق وهو من رواد شعر الزهد فنراه في لغـــة رائيتــه لا يختلف عن النماذج السابقة يقول :

**وكم من أصيد سامي، الطرف معتصب		بالتــــــاج نيرانه للحرب تستعر**

**يظـــل مفترش الديباج محتجـــــبا		عليــــــه تبنى قباب الملك والحجر**

**قـــد غادرته المنايا وهو مستلـــــب		مجـــدل ترب الخدين منعـــفر[343]**

فهو يشكل جغرافية لغته الشعرية من حقائق الحياة كما يراها وما يناقضها مـــن أوهــام أخرى مزيفة.

وتتحول لغة نكبات الزمن في شعر أحمد بن أبي سليمان الصواف إلـــى لغـــة التفـــاؤل والمواجهة والتصدي والانتصار، وهذا ما نلاحظه في رسمه لصورة متفردة في الثنـــاء علـــى الشيب (إحدى النكبات المصاحبة للحياة)، وقد بث فيه السكينة والهدوء بعد توبته وبعد أن أصبح مستعدا في نهاية الطريق لتجاوز سلبيات الحياة وإيمانه العميق بعفو الله ورحمته:

**دعيــــــــت معلما إذ صرت شيخا		وأيــــــام الشـــبيبة كنت بورا**

**لئــــــــن كان المشيب أتى نذيرا		فإنــــــــي سوف أدعوه بشيرا**

[342]– المصدر نفسه، ص 203.

[343] – عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

فأهـــــــــــلا بالمشيب لنا لباسا وقـــــــارا استزيد بــــه وقارا[344]

وهكذا تغرق لغة الشعراء في وصف الحياة بكونها سلسلة متصلة الحلقات يستحيل بـــذلك فصل الماضي عن الحاضر، لكن درجة هذا التأثير على الحاضر تختلف من شـــخص لآخـــر، بحيث كل مرحلة تصبح قوة دافعة تقف لغة الشعر عاجزة أمام تيـــار الـــزمن الـــذي يجرفهـــا ويغرقها في عوالم الزهد التي لا نهاية له غير التجارب الشعرية، ويبدو ذلك واضحا في النماذج السابقة وغيرها من أشعار المدونة.

وقد يرجع الهروب إلى الماضي ليتمكن الإنسان من التلاؤم مع واقعه الروحي، أي أنـــه إذا كان الماضي يطارد الإنسان في بعض الأحيان كما رأيناه في الأشعار السابقة فإن الإنـــسان قد يقوم بمطاردة الماضي والإمساك بتلابيبه نتيجة القلق الذي ينهشه من الداخل فأسبابه متعددة من خوف أو ضغط متزايد أو صراعات نفسية، وهذا ما حدث لأبي عقال الـــذي تبـــوح لغـــة شعره بتلك المعاني:

بلــــــــوت الزمان ودست البلاء ونافســـــــت فـــي كل شيء عنادا

شربت المدام وست القيان ورضت الجيــــــاد، ودعـــــــــت الشدادا

أصيـــــــد الغـــــــزال وأم الرئال بطـــــــــرف أراه يجيـــــد الطرادا

وصعلكـــــــت في البر والبحر دهرا أخلــــــف أهلـــــــي علي حدادا

أســـــوم البعــــــاد، وأهوى اللذاذ وأظهـــــــر في الأرض مني فسادا

أروح علـــــى هـــــــــذا وذاك أديــــم السهـــــاد، وأجفو المهادا

إلى أن تناهـــــــــت حدود القضاء وأنفـــــــذ سلطانــــــــــه مـــا أرادا[345]

ولعل المعجم اللغوي الذي يستمد ألفاظه من الحياة، والذي يغلب على بقية الألفاظ يعتبـــر مركز الثقل تتفرع منه بقية المشاعر، وهو معجم لا يمكن الوقوف عليه بعيدا عن حياة الشاعر، وكلما تخلل جسده الفتور والضعف بعد ذهاب الشباب وزواله نجد ألفاظه الشعرية تحمـــل فـــي سياقاتها معاني الحركة والنبض على غرار (أصيد، أسوم، أهوى، أديم السهاد، أروح، نافست)، وأخرى فيها وهن وضعف (كبرت، بقيت، منفردا، نفى الصبا، ما كان زائدا نقصا...).

---

[344]- العربي دحو الشعر المغربي، ص 199.

[345]- المصدر السابق، ص 201-202.

ثالثا – معجم هاجس الموت ودلالاته:

إن الحياة الموجودة في بعض القصائد تبدو في بعضها الآخر ذليلة خافية ويحل محلها لفظ الموت، وهو يعد محورا تتفرع منه بقية فروع دلالات الألفاظ الأخرى، وهذا راجع إلى انتصار دلالات ألفاظ الموت على دلالات ألفاظ الحياة ،و ما يتفرع من ألفاظ لها علاقة بالموت صريحة أو رمزية : (المنية، المرض، القبر، أهوال القبر، الحساب،...)، ويبدو أن انجذاب الشعراء إليها يجعلها تتواتر بنسبة عالية ، وهذا ما تمثله هذه المعادلة:

انجذاب شعرية الزهد نحو وعي هذه النتيجة: هشاشة الحياة قوة الموت ← انتصار الموت ⟺

إذا هذه المعادلة تعكس مدى الجو النفسي الذي تتحرك فيه لغة الشاعر الزاهد نتيجة لإحساسه الزائد الدائم بانتصار الموت على الحياة،وهذا ما نلاحظه في هذه النماذج، يقول عيسى بن مسكين:

أصاب الدهر عظم ساق	**به قد كنت مشاء جليدا**
إلى الفقهاء أنقلها وأطوي	**بها للحاجة البلدا البعيدا**
إذا رجل الفتى يوما أصيبت	**وطال سقامه ألف القعودا**
وصار لبيته جلسا وأمسى	**من الأخوان منفردا وحيدا**[346]

والدلالات المباشرة وغير المباشرة والقريبة والبعيدة لألفاظ هذا النص (أصيبت، عظم الساق، سقامه، منفردا، وحيدا...) تشترك كلها وتتقاسمها انتظار الموت، وهذه الدلالات بمثابة جداول نابعة من نفس مؤمنة بهذه النتيجة على الرغم من مأساويتها ورهبتها.

ونصوص أخرى تتوشح ألفاظها بوشاح الحزن ، وتبدي المقابل الآخر من أحاسيس القلب النابض بحب الحياة والشعور الجارف بالجمال الزائل ،وبمقدم الشيب و إدبار الشباب، وزوال المتعة وحلول الألم؛يقول أحمد الصواف:

أرى البرق من نحو العذيب توقدا	**تغيب طورا لمعه ترددا**
أفق أيها الباكي المسائل منزلا	**تشتت منه أهله فتبددا**

346– العربي دحو، الشعر المغربي، ص175.

كفى عجبـــــــا أنا جهلناه ماخلا ملاعـــــب ولدان ونؤيا وموقدا

ألفت به غيـــــداء إذا هي ناهد وإن كنت مرموق الزيارة أمر مدا

وكنت قريبـا إذ دعتني ابن عمها فلمـــــا دعتنـــي عمهــا كنــت مبعدا[347]

وفي بعض الأحيان لا يجد الشاعر سوى ألفاظ تدل على أحاسيس اليأس والحيرة والشجن تجتر شعريته، وتتمزق دلالتها بين معاني اليأس والأمل والرحمة، كما هــو جلــي فــي هــذه الأبيات:

وقـــــد حبس اللسان فلا كلام وقـــــد سمع الصياح المستطيرا

وإما مؤمـــــــن يرجو خلاصا وإما كافـــــــــر يصلى سعيرا

فطوبـــــــــى للسعيد إذا حباه إله العرش في الفـــردوس حورا

وصار شرابـــــه من سلسبيل وأنهـــار مفجـــــــــــرة خمورا[348]

وبين ألفاظ المتعة والألم المرادف للهوان والسأم والنحيب والندم والهواجس المبهمة فـــي الليالي الحالكة، فليس هناك أبشع من رهبة المشيب والكبر وبشاعة الألم وذل الرضوخ له دون اقتناع، وهذا واضح في بيت بكر حين يرثي نفسه:

أحبو إلى الموت كما يحبو الجمل قد جاءني ما ليس لي فيه حيل[349]

لقد أقعده الكبر فأصبح لا يستطيع النهوض، ولكأن في ذلك إنذار بدنو أجله، واقتراب المــوت منه بخطى متسارعة،وهذه اللغة نلاحظها في قول أحمد بن أبي سليمان:

وخالـــــــط عيني العشا بعد حدة وصـــــار لساني إن تكلم لجلجا

وفـــي أذني وقر، وظهري به، حنا وما أبتغـــي مما أنا فيه مخرجا[350]

إن معظم ألفاظ هذه النصوص تصب في وعاء الموت: (ضعف البصر، إنحاء الظهــر، تقوسه، المشي بالعكازة، بالحبو كالجمل، صار بيته جلسا، طال سقامه منفرد،...)، وبالتالي يكاد

[347]- المصدر نفسه، ص194.

[348]- المصدر السابق، ص198.

[349]- رمضان شاوش، الدر الوقاد، ص92.

[350]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص195.

يكون الموت المعجم الشعري الذي يستقي منه شعراء الزهد ألفاظهم ولو قمنا بعملية إحصائية للمعجم الخاص بلفظ الموت وتطوره في شعر المدونة موازاة مع لفظ الحياة لتجلي التناقض بينهما، بحيث تنتهي النتيجة بانتصار الموت، وهذه النتيجة تفسر استغراقهم في لغة الحزن، ومن تضخم معجمهم من الألفاظ الدالة على الموت، ومن ثم فإن اللعبة اللغوية الشعرية تنتهي بانتصار معجم الموت على معجم الحياة ،و هذا رمز مقنع لهذه الحقيقة بكون الواقع اللغوي معادل موضوعي للوقع الحياتي؛ كما أن اللفظة في ذاتها تحمل دلالة معجمية واحدة، وإذا دخلت في التركيب الشعري فإنها تحمل صورا وظلالا وإشعاعات جديدة، وهذا ناتج من كون الشاعر يمزجها بمشاعره الداخلية، فتخرج في لون جديد أكثر ثراء، واللفظة تحمل مستوى معين من المعنى لأنها ليست الكلمات في النص الشعري مجرد تراص وإنما هي "لغة مصفاة مركزة، ويكون اللفظ هو الأوحد الذي يحمل طاقة من الفعالية"[351]، وتحمل أحاسيس مكثفة تؤثر في الوجدان، وقد أكدت تجربة الإحساس بالموت والتفكير فيه "أن اللفظ في القصيدة يصبح جزء لا ينفصل عن فكر الشاعر وعاطفته ومعبرا عن أحاسيسه ومشاعره"[352].

وألفاظ الحقول الدالة على الكبر أو المرض تشتد عند الشعراء الزهد سواء من مأخوذة من الحياة التي أمام أعينهم أم من تخيلاتهم أم من أجواء روحانية نتيجة زهدهم ، وكل ذلك ينعكس على تفكيرهم مما جعل ألفاظ شعرهم يكثر فيها ذكر الموت، والمنية، والصبر، والعتاب،و الشكوى...الخ.

ونص عيسى بن مسكين وأحمد بن أبي سليمان وغيره من النصوص التي تصور الموت والمرض أو النكد التي لها قيمتها الدلالية من حيث انعكاسها على الصور المشكلة لعالمه الشعري، وهي من ناحية أخرى تكشف العمق النفسي كما تدل على الذبول والانطماس والذهول وهي من ناحية أخرى "إجهار عن صورة_التواري والغيمومة التي تعيشها الذات المهمشة"[353].

إن ألفاظ الحقل الدلالي للموت المشكل للمعجم الشعري والذي يرتكز عليه الشعراء يمثل تجربة متميزة عند شعراء النزعة الزهدية، لذا فهو يحول الألفاظ لديهم من دلالتها الموضوعية الخارجية إلى دلالتها الذاتية الداخلية من خلال حياة وموت الآخرين، وهذا ما نراه جلي عند بكر بن حماد في مأساة فقده لابنه بحيث أصبحت حياة ابنه تعني حياته وموته يفقده معنى

[351]- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، مصر، ط3، ص1984.

[352]- طلعت أبو العزم، الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني، لدى الشاعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1981، ص368.

[353]- يوسف سامي ليوسف، الشعر العربي المعاصر، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980، ص76.

وجوده، وقد يأخذ اتجاها آخر بحيث يصبح اقترابهم من الموت هو محاولة منهم التعود عليه بعد مرض أوكبر كما هو عند عيسى بن مسكين أو أبي عقال أو الصواف،...الخ.

إن بكر بن حماد يصف حاله بعد الغياب إبنه في رقة وعذوبة تبعثان على الشفقة والرحمة، وفي تعبيره تدفق عاطفي، ولحن شجي على معاناة الفقد، وهو يصف أيضا ألفاظا دالة على الشقاء والتعاسة والألم بعد رحيل المحبوب،ومن ثم فقد تلونت كلمات شعره بهذه المعاني المعبرة عن المأساة والفقد بالإضافة إلى نغمة موسيقية شعرية حزينة، وإيقاع متوتر باك.

لقد زواج الشاعر بين لغة الزهد ولغة الرثاء، وفعل ذلك بطريقة رصينة جعلها تتوشح بالحزن، وتعكس هول الموقف ومع ذلك لم يبتعد أسلوبه عن الإحكام ومنطق الشعر في توخي عمق التجربة وامتدادها بحيث كان شعره جامعا لكل الصفات، وممتدا حتى أصبح الكون كله ظلام دامس لا ينجلي ،و يلف البسيطة ويلغي أنوارها.

وقد نرى الشعراء وهم يحاولون هز المتلقي من الداخل تماما ومنحه نوعا من الإثارة التي يفتقدها في حياته اليومية العادية، وذلك بإثارة الخوف والرعب من خلال لغة رمزية شفافة توحي بمناظر الظلام في القبر والصرخات والعويل، والنحيب، وذكر أهوال القبر والحساب،يقول سابق في قصيدته الرائية:

و المرء يصعد ريعان الشباب به	**وكل مصعدة يوما ستنحدر**
بينا يرى الغصن لدنا في أرومته	**ريان صار حطاما جوفه نحر**
وبينما المرء أمسى ناعما جدلا	**في أهله معجبا بالعيش ذا أنق**
غرا أتيح له من حينه غرض	**فما تلبث حتى مات كالصعق**
تمت أضحى ضحى من غب ثالثة	**مقنعا غير ذي روح ولا رمق**
يبكى عليه وأدنوه لمظلمة	**يعلى جوانبها بالتراب والقلق**[354]

وفي تصوير لحظة قطف الموت للحياة في ريعان الشباب تعبير عن هول الصدمة التي أذهلت الشاعر حين يهاجم الموت الأصحاء والشباب، فكانت الدهشة مرادفة للحيرة والعجز عن تفسير الحدث وتبريره، ولكنها حقيقة لا مفر من التسليم بها فهي تذكرنا بنفسها كل لحظة، ولكن

---

[354] – عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 11

المغزى من الاندهاش أو الحيرة أمام لغز السقوط الفجائي للأحياء في عنفوان الشباب والنجـــاح يبقى دون تفسير مقنع أو مبرر مقبول أو دون فهم للحكمة المختفية وراءه.

رابعا ــ معجم شعر الزهد ومبدأ الصياغة اللغوية العامة:

إن العلاقة بين المعجم الشعري ومبدأ الصياغة اللغوية العامة هي علاقة جدليـــة بحيـــث تتحدد حرية اختيار أي معجم شعري بالفلسفة الجمالية للصياغة الفنية التي يؤمن بها الـــشعراء، وسنختار الأفعال بكونها صنفا لغويا ثقيل الدلالة، ويطغى على غيره من الأصـــناف اللغويـــة، ويعكس البعد الدرامي لشعر الزهد، ومن ثم فقد اعتمد الشعراء في تصوير الحركـــة وتجـــسيد الزمن على الأفعال ،كما نلاحظ في هذا النص:

أيـــا مــن يرى الرشد في غيه	**ويخيــط فـــي الداجيات القتادا**
تجـــاف بنفسك عـــن حتفها	**وخـــذ لأمانــــــك منك القيادا**
أجــب داعــي الله لا تعصــــه	**فقـــد جاد بالنصح جهرا ونادى**
ولا تلـــه بالموبقـــــات التي	**أبـــادت بوائقها مـــن تمادى**
بلـــوت الزمـــان ودست البلاد	**و نافســـت في كل شيء عنادا**
شربـــت المدام وسست القيان	**و رضيت الجياد، ورعت الشدادا**
أصيـــد الغـــزال وأم الرئال	**بطـــرف أراه يجيـــد الطرادا**
وصعلكت في البر والبحر دهرا	**أخلــف أهلـــي علـــى حدادا**
أســـوم البعاد، وأهوى اللذاذ	**وأظهر في الأرضي منى الفساد!**
فألزمت نفســـي مدى صبرها	**وخالفتهـــا فـــي هواها عنادا**
وباينـــت مـــا كنت ألهـــو بـــه	**فأمـــســـى وأصـــبح عنـــدي سهادا**[355]

وهكذا نجد هذا الشعر يعج بالأفعال التي تصور حال الشاعر أيام الشباب وبعـــد توبتـــه، فتشيع فيه جوا من الحركة والنشاط (شربت، صعلكت أصيد، فافست،...)، وكذا الرغبة والرهبة في (ألهو–بانيت ما كنت–خالفت هواها–أصبح سهاد).

[355]– العربي دحو، الشعر المغربي، 200–202.

ونجد أيضا أفعال النص وكلماته تصور ذنوبه المتراكمة (الغـــي، الموبقـــات، الفـــساد، تجاف، أجب، خذ، لا تعقبه لاتله، يخبط،...).

هذه الذنوب التي يعترف بها والندم والحسرة يعتصرانه حينما اكتشف في نهاية حياته بأن عمره ضاع حيث تاه وضل في حياة لاهية عابثة، ويا لها من صحوة زلزلت كيانه فراح يـــردد ما كان فيه من لهو، ودلالة هذه الصورة هي تشخيص للذنوب وتضخيمها والتهويل من شأنها.

إن هذه التموجات والانفعالات الوجدانية تشكل حركة نفسية عارمـــة تتـــضح بالحـــسرة والندم، ويتوق صاحبها إلى الرضى والمغفرة ويعترف بكثرة الذنوب، ولكنه في قـــرارة نفـــسه يعلم أن الله رحمة أعظم وأكبر وأشمل من كل ذلك، وقد ينطبق هذا أيضا على نص آخر لسابق :

فكـــم من صحيح بات للموت آمنا	**أتتـــــه المنايـــــا بغتة بعدما هجع**
فلم يستطيع إذ جاءه الموت بغتة	**فـــــــرارا و لا منــــه بقوته امتنع**
فأصبـــــح تبكيــــــه النساء مقنعا	**ولا يسمع الداعـــي وإن صوته رفع**
وقـــــرب مـــــن لحد فصار مقيله	**وفارق ما قـــد كان بالأمس قد جمع**
فـــــلا يترك الموت الغنـــي لماله	**ولا معدوما فـــي المـــال ذا حاجـــة يدع**[356]

تأتي الأفعال في النص لتجسد السكون والحركة. فالأفعال (باب، هجـــع، لـــم يـــستطيع الفرار، امتنع، رفع،...) الخاصة بالإنسان تجسيد لسكونه.

هذا السكون يصور لنا في (بات، هجع) اطمئنانه للدنيا، أما في (لـــم يـــستطيع، امتنـــع) فيشير إلى محاولته التحرك لمقاومة الموت الذي جاءه، لكنه يفشل في ذلك فينتصر عليه، فهـــو (لا يترك، لا يدع)، ثم تأتي الأفعال (فارق، ما جمع) لتدل على أنه سكونه هذه المرة كان رغما عنه، ويشير ضمنيا إلى أنه كان يتحرك في السابق سعيا وراء المال والدنيا فيأتي الموت فيسكنه ويسكته عن تلك الحركة بمفارقته الدنيا، أما الأفعال [تبكيه (النساء)، قرب (مـــن لحـــد)، رفـــع (صوته)، لا يسمعه (الداعي)] ترشدنا إلى أن حياته قد انتهت بينما بقي الآخرين أحياء، وذلـــك

---

[356]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 8

من خلال إشارته إلى تحركهم؛ والحركة دلالة على الحياة وكذلك إلى عدم فعالية صوته الذي لا يسمع وإن رفع، وهذا يعنى الموت السكون وعدم حركة والسكوت ،وفي نص آخر يقول:

وبينمـــا المرء أمسى ناعما جدلا … فـــي أهله معجبا بالعيش ذات أنق

تمت أضــحى ضحى من غب ثالثة … مقنعــا غيــر ذي روح و لا رمق

يبكـــي عليــــه و أدنوه لمظلمة … تعلــى جوانبهـــا بالتراب والقلق

فمـــا تـــــزود مما كان يجمعه … إلا حنوطـــــا و مـــــا زاد لمنطلق[357]

ويكشف النص عن نظرة زاهدة في الحياة الدنيا وتوجه الإنسان نحو العمــل الــصالح، واستثمار الحياة للفوز بالآخرة، وهذا ما نراه من خلال فعل (أمسى) الذي يوضح كيــف كــان المرء في الماضي، والفعل (أضحى) يبين كيف صار في الوقت الحاضر، ثم يأتي الفعل (يبكي) المبني للمجهول ليوضح لنا أن المرء أصبح في عداد المجهولين، وهو أيــضا يوضـــح حيــاة الآخرين من خلال حركاتهم وسلوكاتهم المختلفة،وأما فعلا (تزود، يجمعه) فهما يــشيران إلـــى سلوك المرء بعد موته وهو الاستفادة من الحياة أيام كان في حركة تسمح له بـــالتزود بالعمــل الصالح الذي يؤهله إلى دار النعيم بالإضافة إلى رجاء عفو الله ورحمته الواسعة،وهذا ما نـــراه في نص آخر:

نلهـــو و نأمـــل أيامـــا تعدلنا … سريعـــة الــمر تطوينـــا ونطويها

كـــم مــن عزيز سيلقى بعد عزته … ذلا وضاحكـــة يومـــــا ستبكيها

وللحتــوف تربـــي كــل مرضعة … وللحســاب بـــرى الأرواح باريها

أموالنـــا لــذوي الميراث نجمعها … ودورنـــــا لخـــــراب الــدهر نبنيها[358]

إن هذا التوازي الدلالي الرمزي الذي يوحي به هذا التقابل بين أفعال حركــة الإنــسان وأفعال حركة الكون، إنها حركة الأيام الدائمة، وحركة الإنسان، والحركة الأولـــى لا تعــرف السكون والحركة الثانية تنتهي بسكون المرادف للموت(نلهو، نأمل، نطويهـــا) تـــدل علـــى أن

---

[357]- المصدر نفسه ، ص 11

[358]- المصدر السابق ، ص 12

الإنسان في حركة وفي المقابل الأيام ليست ساكنة، وإنما هي أيضا في حركة (تطوينـــا) لكـــن حركتها مستمرة عكس الإنسان.

إذا كل فعل يقوم به الإنسان تكون نتيجته السكون بحيث تأتي الموت وتخطفه، وإذا كانت الحياة تنتظره فإن الكبر يسبقه والموت يأخذه، وقد أورد الحتوف بصيغة الجمع لتدل على الكثرة التي تحيلنا إلى تكرار الفعل وتعدده، وما صروف الحياة إلا جرعات للموت، وفي هـــذا تعبيـــر عن انفعال قوي وعاطفة شديدة من الشاعر، ونظرة سوداوية تشاؤمية للحياة، لذلك أســـند لهـــا مجموعة من الأفعال والصفات السلبية مثل " (تطوينا، ستبكيها، تبنيها، تربي)، وزيادة على ذلك فإن الشاعر استعمل صيغ الجمع لتحقيق مبدأ المشاركة الوجدانية من خـــلال تعميـــق التجربـــة الشعرية وتمديدها، ويبدو هذا المسلك الفني في صيغ الجمع في الشطر الأول من البيت مـــرتين (نلهو، نأمل) ومرتين في الشطر الثاني بالشكل نفسه (تطوينا، نطويهـــا)، ممـــا يـــضفي علـــى الشطرين توازنا وتساويا وتناغما، و يحقق نفس المطلب الفني في البيـــت الأخيـــر (نجمعهـــا، نبنيها)، حيث جاءت صيغ الجمع مرة واحدة في كل شطر فخلقت نغما موسيقا يتغلغل ويتـــسلل إلى مسامع وأفئدة المتلقين في خفة ورشاقة، وهذا التوازي والتوازن بـــين التجربـــة الـــشعرية الانفعالية والاختيار اللساني حققه الشاعر أيضا في جمعه بين نوعين مـــن الجمـــل الإنـــشائية والخبرية، وتوزيعها في النص يكاد يكون متقارب، ويسود الإنشائي معـــاني التمنـــي والنهـــي والرجاء ، والجمل الخبرية النصح والاعتبار ...الخ.

وقد يحتشد الشاعر الأفعال الطلبية ليعبر بها عن الاستنجاد والاستغاثة والأمل و الخلاص والنجاة، فيكثر من أساليب التوسل والتضرع ليعبر عن محنة الذات وانهيارها، وهذه الأفعال قد تدل على التمني القائم على استحالة الحدوث مثل ما يفهم من دلالة النصوص التالية؛ يقول أبـــو عقال:

ولو كنت في الدنيا على مثل حالهم   أبحتهموا رحلي وعدت إلى طمري[359]

ويقول أيضا:

و لـــــو كنت في الدارين حرا مدللا   فـــــلا علـــة آسي عليها ولا لها[360]

ويقول سابق:

---

[359]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص204.

[360]- المصدر نفسه، ص205.

لــــو كان يسهر عيني ذكر آخرتي كمــا يؤرقني للعاجـــل السهر[361]

أما أحمد بن أبي سليمان فيقول:

لمــــا تذكرها وقـــــال ندامــة مــــن بعدها يــا ليتني لم أفعل[362]

إن المطلوب هنا غير ممكن حصوله ويراد به التحسر على ما فعل قد حصل ،وقد نجد في نصوص أخرى صيغه الأمر التي تشتمل طلب حصول شيء لم يكن حاصل وقــت الطلــب كما في نص بكر بن حماد:

قـــف بالقبـــور فناد الهامدين بها مـــــن أعظـــم بليـت فيهـا أجساد[363]

وهنا يلتمس من مخاطبه الوقوف بالقبور للاعتبار والاتعاظ من حالهم ، ويردد أســلوب الوعظ نفسه سابق:

استخبــر الناس عمــا أنت جاهله إذا عميــت فقــــد يجلــو العمــى الخبر[364]

وهذا أحمد بن أبي سليمان يرجو الله ويدعوه فيقول:

أجرني من عذابك واعـــف عنــــي وكن لـــــــي منـك يـا أملـي مجيرا[365]

وقال: كما لم تضعني رب منذ خلقتني قني فـــــي معـادي حـر نـار تأجحا[366]

والشاعر في المقام الذي يلتمس فيه رحمة الله وطلب المغفرة كأنه يطبق منهج الزهاد الذين يرون في الدعاء "مفتاح الحاجة وهو مستورح أصحاب الفاقـات وملجـأ المـضطرين

---

361 – عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص13

362– العربي دحو، الشعر المغربي، ص193.

363– رمضان شاوش، الدر الوقاد، ص80.

364– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

365– العربي دحو، الشعر المغربي، ص198.

366– المصدر نفسه، ص 195.

ومتنفس ذوي المآرب، وقد ذم الله قوما تركوا الدعاء فقال: ويقبضون أيديهم قيل لا يمدونها لنـــا بالسؤال"[367]،ولأن النفس لا قناعة لها مما يتاح لها من الدنيا يقول الشاعر:

لا يشبـــع النفس شيء حين تحرزه ولا يـــزال لهـــا في غيره وطر

ولا يـــزال وإن كانت بهـــــا سعة لها إلى الشيء ما لـــم تظفـــر بـــه نظر[368]

وتؤدي بنية النفي هنا دورا واضحا في تكريس واقع الذات وما تواجهه سعيا وراء الدنيا، وفي نفس السياق نرى الشاعر يطلب من الذين يعيبون على الناس بعض صنيعهم، ثم يأتون بمثله:

إن عبـت يومـــا علـى قوم بعاقبة أمـــرا أتوه فلا تصنع كما صنعوا

إذا عبـــت أمـــرا فـــلا تأتـــه وذو اللــــب مجتنـــب مـــا يعيب[369]

ويصور أبو عقال الحياة تصويرا فيه حيوية الحركة المعبرة بلغة درامية ،وهكذا يـــصبح الإنسان مجرد مسافر، والدنيا مكان نزول المسافر الذي يشير إلى سرعة الرحيل:

لعمــرك ما في الدنيا شيء أريده ســـوى أنهـــا نـــزل وأنـــي مسافر[370]

إنه يقسم لمن يحاوره بأن حياته في هذه الدنيا زائلة ، ،وفي نفس المعنى قال عيسى بـــن مسكين:

لعمـــري يـــا شبابي لو وجدتك بمـــــا ملكـــت يميـــــــن لأرتجعتك[371]

فهو ينادي الشباب فيحاوره ويقسم له وكأنه شخص عزيز أو حبيب، هجره فيشكوه فراقه وهمومه ، ثم يقول:

فقدتـــك فاقتقدت لذيـــذ نومي وطيـــب معيشتـــــي، لما فقدتك

---

[367]- آمنة لعلى، الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي من 3هـــ -7 هـــ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص94

[368] - عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

[369] - المصدر نفسه ، ص 6

[370]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص206.

[371]- المصدر نفسه، ص175.

ونحتـــك وانتخب عليك دهـــرا فلـــــــم تغـــن النياحـــة حيـــث نحتك[372]

وما هذا إلا تصوير لواقع المصير المحتوم الذي يراد به إقرار حقيقة الموت والاقتـراب من لحظة النهاية،وهذا نموذج آخر له:

لمــــا كبــــــرت أتتني كل داهية وكـــــــل ما كان مني زائدا نقصا

أصافح الأرض إن رمت القيام وإن مشيت تصحبني ذات اليمين عصا[373]

ويعطينا في هذين البيتين صورة لضعف قواه الجسدية التي خـارت فعـادت قـدماه لا تستطيعان حمله، كما أصاب ساقه اليمنى السقم بحيث صار يعتمد على عصاه التي يتكئ عليها فتعينه على المشي.

وما هذا التصوير إلا تأكيد لنزعته الزهدية واسـتعراض لحالتـه بعـد أن حلـت بـه الشيخوخة التي لم يشكو منها من قبل، فكلمة (لما) في النص تدل أن زمن الشكوى المـستقبلي المخيف أي عندما يصيبه الكبر .

إن هـذه الحيـرة والأسى الكامنين في أعماق الذات من المصير المحتـوم يفجرهمـا السؤال عن كنـه الوجود وحقيقته، يقول سابق المطماطمي في هذا السياق:

مـــن يطلب الجور لا يظفر بحاجته وطالب الحق قد يهدى له الظفر[374]

ويقول:

مــــن لـــم يكـــن لك منصفا فـــي الـــود فابـــغ به بديلا

ومـــن استخـــف بنفســـه زرعـــــت لـــــه قـــــالا وقيـــلا[375]

إنه يسأل عن أشياء معلومة لدى المتلقي، ويقر بمجموعة من الأخلاقيات، كما يقر بـأن الموت مدرك الإنسان لا محالة.

372– نفسه، ص176.

373– نفسه، ص175.

374 – عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 5

375 – المصدر نفسه ، ص 5

مـــن كان في معقل للحرز أسلمه **أو كـــان فـــي خمـــر لـــم ينجـــه الخمر**[376]

و يطالبنا بتعيين أمكنة السابقين لنا الذين أصبحوا تحت الثرى ليذكرنا ويعظنا بأن الموت آت لا محالة:

أبعـــد آدم ترجــــون البقاء وهل **تبقـــــى فروع الأصل حين ينقعر**

لكم بيــــوت بمستن السيول وهل **يبقى علـــــى المـــاء بيـــت أســـه مدر**[377]

ويسائل نفسه عن الزمن ويطلب منها تراجعها عن تيهها وغيها في سعيها وراء ســـراب الدنيا والخلود فيها:

حتـــى متى أنا في الدنيا أخو كلف **فـــــي الحد مني إلى لذاتها صعر**

فحتـــــى متـــى تلهو بمنزل باطل **كأنــــــــك فيـــه ثابـــت الأصـــل قاطن**[378]

ويطلب سابق وأحمد أبي سليمان منا الرحلة إلى أعماق الواقع والتـــاريخ لتعيـــين عـــدد الهلكين.

يقول أحمد بن أبي سليمان:

وكـــــم مـــلك عظيـــــم ذي اختيال **أعـــــد خزائنـــــــا وبنى قصورا**

وكـــــم مـــــــن طالب للمال يسعى **ويركـــــب في مطالبه البحـــورا؟!**[379]

أما سابق فيقول:

وكـــــم من جموع أشت الدهر شملهم **وكـــــل شمل جميع سوف ينتشر**

وكم من أصيد سامي الطرف معتصب **بالتــــــــاج نيرانـــــه للحـــــرب تستعر**[380]

---

[376]–نفسه ، ص 11

[377]– نفسه ، ص 7

[378]–نفسه ، ص8

[379]– العربي دحو، الشعر المغربي، ص197.

[380]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 10

وقال:

وكم من وضيع سما به العلم والحلم فنال العلاء وارتفعا[381]

وقال فكم من صحيح باب للمؤمن آمنا آتته المنايا بغتة بعدما هجع[382]

كم من عزيز سيلقى بعد عزته ذلا وضاحكة يوما ستبكيها[383]

وفي هذا النص يطلب الشاعر تعيين الحال من يأمن غدر الدهر:

و كيف يأمن ريب الدهر مرتهن بعدوة الدهر إن الدهر عداء

فكيف يبقى على الأحداث غابرنا كأننا قد أظلتنا دواهيها[384]

خامسا ــ التضاد:

لقد اكتظت القصائد بالمصادر كما اكتظت بالأفعال، وهي تخضع العلاقات اللغوية سواء بين الأفعال والمصادر أو الأسماء أو المشتقات لعلاقة تضاد في أغلب الأحيان، فقد اعتمد الشعراء في تعبيرهم على تلك الثنائيات الضدية بطريقة تبرز تلك المقابلة بين الحياة والموت وإليك هذه النماذج المختلفة:

دعيت معلما إذا صرت شيخا وأيام الشبيبة كنت بورا

وكنت قريبا إذا دعتني ابن عمها فلما دعتني عمها كنت مبعدا

نهار مشرق وظلام ليل ألحا بالبياض وبالسواد

فيا أسفي منى جنح ليل يقودها وضوء نهار لا يزال سيوقها

فقد قطع البقاء غروب شمس ومطلعها علي يا أخيا

كذا أحوال دهرك: حال أمن وحال تجزع البطل الجسورا

381- المصدر نفسه ، ص 5

382- نفسه ، ص 8

383-نفسه ، ص 7

384- نفسه ، ص 6

فإمـــا مؤمـــن يرجـو خلاصا وإمـا كافـــر يصلـــي سعيرا

فهناك مقابلة بين المفردات بينت لنا التنويع الحاصل في طبيعة الأشـياء حيـث يكـون الشخص شابا فيصير شيخا، ويكون مقربا فيصبح مبعدا لتعاقب النهار والليل بطلـوع الـشمس وإشراقها وبغروبها وحلول الظلام والسواد، واللذان لا يزلان يتهافتان عليه مـا دام شـابا ثـم يهجرانه بعد فناء تلك المقومات، فهكذا هي حال الزمن تحب وتكره، فتجعلنا نأمن لها ثم تفزعنا فلا نجد بعدها إلا ما جمعناه فإما يخلصنا فنكون من الناجين والمحظوظين بنعـيم الفـردوس أو من الخاسرين والهلكى المتقلبين في نار الجحيم.

وهو بذلك التضاد ليكشف لنا عن إيقاع نفسي لانفعالات الشاعر، الذي اختار ألفاظه بكل عناية فجاءت فصيحة عميقة المعنى، وذات صور موحية وأسلوب رشيق واضح الدلالـة بعيـد عن التعقيد والغريب اللفظي أو المعنوي، عمد فيه إلى تلك المحسنات لتنويع الإيقـاع وإثرائـه ومن ذلك هذه النصوص أيضا:

لئـــن كـــان المشيب أتى نذيرا فإنـي سـوف أدعـوه بشيرا

إذا كـان الفتـى عنـي غنيا فليست إليـه محتاجـا فقيرا

عليهـم سلام منـي رسالـة مقسمة بيـن التوصل والهجر

ومـا فرحة إلا ستصبح ترحـة وما صاحب إلا سيصبـح مفردا

وللنفس حاجات تروح وتغتـدي ....

يا لـــذة قصرت وطال بلاؤهـا ....

وأيدي المنايا كل يـوم وليلـة ....

لقد كشف الطباق عن دور بارز للتضاد في تجربة التأمل، بحيث رسم لنا صور للحيـاة القائمة على التناقض والتي تكشف أيضا عن طبيعتها ومن ثم تجعلنا أمام المـوت والقبـر وأهواله وصوره المفرغة لأخذ العبر والاتعاظ منها.

والشاعر تخلى عنه أصحابه ومع ذلك لا يزال يحفظ لهم المـودة والـصلة، وكمـا أن تفرقهم عنه كان نعمة عليه بحيث جعله يتفرغ للعبادة لوقت أطول،وفي الاتجاه نفـسه يقـول أحمد نصر:

إن للعـــــرس فرحــــــة يعقبهـــــا النـــــوح والبكـــاء[385]

يشخص الشاعر الدنيا في شكل قوة جبارة هائلة، ويجعل منها قوة لا تقهر في مقابـل ذلك الإنسان في صراع دائم معها فتراه يفرح بخيراتها عندما يحظى بها، وما ذلك إلا استيلاب منه وعذاب له، ذلك أنها ستأخذ منه هذه النعم فيشقى أضعاف ما فرح ما أعطته.

وتكراره كلمة الحزن (النوح، البكا) مرتين في المقابل تكرار كلمة الفرح (فرحة) مـرة واحدة يجسد ذلك.

وإن لم تأخذها منه فسنغص عليه التمتع بها فيحس بالقهر والآلام المبرحة، فهباتهـا نقمة لا نعمة، والذي يتوقع صفوها الدائم، ونعيمها المستمر، ضال مخطئ لأنها لا تدوم علـى حال ولا تبقى على وضع، فلا يكاد يشعر فيها بالأمن والطمأنينة والـسعادة إلا وهـوى إلـى حضيض التعاسة والشقاء، لتعظم مأساته،و يقول بكر بن حماد:

نهـــار مشـــرق وظلام ليـــل ألحـــــا بالبيـــــاض وبالســواد[386]

الشاعر حريص على توظيف لون من التوازن بين طرفي الشطرين فيجعل في الطـرف الأول من الشطر صورة مشرقة سعيدة للحياة ثم يقابلها في الطرف الثاني من الشطر بـصورة سلبية، فيخسف الصورة الأولى ويعدمها، وبذلك يزداد البؤس والشقاء نتيجة الانتقال مـن قمـة السعادة إلى حضيض الشقاء والمأساة، وكأن الحياة تلهو بمن فيها وتعبث بهم فلكل موجود نهاية وما هذا إلا نظرة زاهد، وقد جاءت الصورتان معطوفتان على بعضهما بحرف الواو، وتـرى أيضا في الشطر الثاني البياض والسواد موصولان بالكلمة الأم بحرف الباء الدال على الإلصاق المجازي، فالبياض إلصاق ووصل للنهار والسواد أيضا وصل وإلصاق لليل، وكلاهما يهدانـه ويرميانه في بحر الحزن والألم، يقول:

---

[385]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص178.

[386]- شاوش رمضان، الدر الوقاد، ص76.

وهـــون وجــدي أنني بك لاحق وأن بقائـــي فـــي الحياة قليل

وأن ليـــس يبقى للحبيب حبيب ولـــــــيس بيـــــاق للخليـــل خليل[387]

لقد عاش بكر بن حماد الألم والمعاناة من عبثية الحياة، ولعل موت ابنه ساعد على نمو هذا الشعور، فالأبيات تعبر عن مساحة من الألم والحزن، وعن تفجع حقيقي على الفقيد فيه مرارة وحسرة انتفى فيها بقاء أي حبيب أو خليل بجانب حبيبه وخليله.

إن فقده لولده قسم ظهره وهد كيانه، فتحول الكون كله إلى مأساة تنغص حياته وتنكيء جراحه، فكل ما يراه وما سمعه يذكره بفجيعته ويتحول دهره إلى ظلام دامس لا أمل في الخروج منه.

ويأتي تكرار [البقاء ثلاث مرات، الحبيب مرتان، الخليل بنفس العدد] ليضع أيدينا على جراح الشاعر، وهي حرمانه من الحبيب (الابن)، ومن ثم البقاء الذي لن ينعم به أو أي إنسان آخر، فالخلود الأبدي غير وارد البتة.

وخلاصة القول: فإن تكرار الألفاظ في النص له غرض رئيس وفي ذهن الـــشاعر هـــو التركيز المعنوي المقصود، ولكنه تركيز من شأنه الرسوخ في الذهن، وهو أيضا لـــيس تـــرداد ألفاظ بعينها وحسب، وإنما هو أيضا تلوين معنوي داخل الجمل والعبارات تنقش المعنـــى فـــي السمع، وترسمه في النفس فلا يبرحها.

إن احتواء كل لفظ على حرف مد يشبعها بالأسى والكآبة والعمق فتخرج كل لفظة كاملة يقابلها صوت طويل متشبع بآهاته.

ولذلك يمكن القول إن الحزن عنده يثير تواترا داخليا يستدعي انفعـــالا حـــادا، وداخليـــا يخرجه الصوت الطويل ليثير في الوجود حركة اهتزازية ويخلق راحة نفسية[388].

كما أن هذا المد في الألفاظ المأخوذة من نص بكر بن حماد في رثائه لابنه (تولوا، بكوا، عليا، فيا، نسلي، بقاؤك، كان، كوى، الأكباد، كيا، ...) أعطى فرصة للشاعر ليخـــرج زفراتـــه الوجدانية كاملة، حيث استغله لكونه يتمكن من إخراج الدفقة الشعورية كاملـــة إلـــى الخـــارج، وتمكنه أيضا من إخراج التموجات الوجدانية من داخل الذات الحزينة الجريحـــة فـــي شـــكل

---

[387]- المصدر السابق، ص89.

[388]- السعيد لراوي، ظاهرة الحزن في شعر السياب، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، 1986، ص308.

انفعالات عنيفة تحدث اهتزازا لدى المتلقي وتمكنه من معايشة الجو الحـزين الـذي يعيـشه الشاعر، وبذلك يتفاوت استخدام المد بتفاوت المعنى والجو النفسي، فالمد بالآلف في هذا البيت:

وإن جـــاء ما لا يستطعان دفعه   فـــــلا تجـــزع ممـــا قـــضى الله وأصبرا[389]

يهدف الشاعر منه إطالة المعنى والتركيز عليه، بينما يرتبط المد بالواو في هذه الأبيات:

الموت لا بـــــــد آتي فاستعد له   إن اللبيـــــب بذكر الموت مشغول

وكيــــــف يلهو بعيش أو يلذ به   مـــــن التـــراب علـــى عينيـــه محمول[390]

بجو الاضطراب والخوف، أما المد بالياء في هذا النص :

أين الملوك التي عن خطبها غفلت   حتـــى سقاها بكـــأس الموت ساقيها

غـــــرت زمانا بملك لا دوام له   جهلا كما غـــــر نفس من يمنيها

وصبـــحت قوم عاد في ديارهم   بمفظـــــــــع يــــوم عــــادتهم عواديها[391]

وخلاصة القول فإن أشعار هؤلاء الشعراء الزهاد تسودها سهولة في اختيار قاموس شـعري زهدي وعفوية في التعبير ووضوح في الفكرة ونغمة عذبة لا تخفى على المتذوق، فالـشعراء يؤدون مشاعرهم بلون من ألوان الكآبة مستحبة، فهم يغنون أحزانهم وآلامهم، ومن ثـم جعلهـا على معظم الشفاه والألسن، فالإنسان يستلذ الغناء بالروحانيات ،والشاعر مـا هـو إلا إنـسان يعزف روحانياته وأحزانه وأشجانه على قيثارة من شعور رقيق لم تزل أصداء أوتارها تضرب في أذهان الدهر حتى يومنا هذا.

كما أن شعر هؤلاء الزهاد تأتي في أغلبها خالية من التعقيد والتنافر والإبهام، وتتخللهـا رمزية خفيفة في دلالات ألفاظها، وما اللغة الشعرية عندهم إلا أداة طبيعة للتعبير عن تـساؤلا تهتم عن المسلك الإيماني الصحيح ،وما يكتنف ذلك من الحيرة والشك الـذي يكابـده هـؤلاء للوصول إلى اليقين.

---

[389]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 8

[390]- القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص328.

[391]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

الفصل الثالث

خصائص الصورة والموسيقى

أولا ــ الصور الشعرية:

الصور الشعرية مفهوم فني يعني في أبسط معانيها "رسم قوامه الكلمات"[392]،وقــد وردت كلمة صورة في القرآن إلا أنها تعني الخلق، وقد وردت في قوله تعالى: "**الذي خلقــك فــسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك**"[393]،وقوله أيضا: "**هو الذي يصوركم فــي الأرحــام كيــف يشاء**"[394].

والصورة الشعرية: " تشكيل لغوي لبيان كنه الأشياء وإيــصال تجربــة الــشاعر إلــى المتلقي، بعبارة فنية، فهي الوسيلة الفنية التي تنقل بها أحاسيسه وفكره إلــى العامــة والثقافــة الخاصة بالشعر، بحيث يتمكن من تحويل الفكر والعاطفة إلى صورة تجــسم بوســاطة اللغــة، ونجاح هذه الصورة يكون بمقدار قدرتها على نقل التجربة وتفجيرها في أعماق المتلقي بحيــث ينفعل بها ويتفاعل معها"[395].

ولها أشكال مختلفة يساير كل شكل منها طبيعة الجمال أو النفس التي ينشأ عنها، فبعض أشكال الصورة بسيط لا يتعدى الإشارات الساذجة أو التشابية المتناسبة الأجزاء، وبعضها معقد شديد التعقيد كالرموز والاستعارات، التي لا تقف عند إيجاد علاقات بــين أمــور متناســبة أو متشابهة أو متجانسة فحسب، وإنما تتعدى ذلك إلى إحداث علاقات بين أمور مختلفة بــل بــين أمور متضادة متنافرة أيضا[396]، وهذا ما سنراه أثناء تحليل بعض النماذج من الصور الــشعرية الخاصة بالمدونة على غرار هذه الصورة:

يا مـــــوت أثكلتنـــا يحي وكان لنا في بلدة الغرب مثل البدر في الظلم[397].

صورة حزينة تلك التي وظف فيها الشاعر عناصر الطبيعة، التي حملت معنى الهزيمــة والانكسار والشحوب الحزين، وهو ما يسعى إلى إبرازه من خلال هذا الشبيه، والتــشبيه كمــا عرفه أبو هلال العسكري:

"التشبيه الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ناب منابه أو لــم ينب ... وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة"[398].

---

[392]-انظر: دي لويس، الصورة الشعرية، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي، ص21 وما بعدها.

[393]-الانفطار، الآية 8.

[394]-آل عمران، الآية 11.

[395]-علي عالية، شعر الفلاسفة في الأندلس في الفرنسيين، 5هـ-6هـ، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه دولة، 2004-2005، ص278.

[396]-ينظر: عبد القادر الرباعي، الصورة في شعر أبي تمام، ص 14.

[397]-القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص269

[398]-أبو هلال العسكري، الصناعين، ص261.

والتشبيه يقرب بين الأشياء المتباعدة باكتشافه لعلاقات بينها قد تكـون خفيـة، وتحـدث الائتلاف بين ركني الصورة الواحدة، ولكنه لا يمزجهما، ولا يلغي الحدود التي يصنعها الزمان والمكان والمنطق فتبقى الأشياء مستقلة بالرغم من ائتلافها، منفصلة بالرغم من تقاربها إنه لـم يصل إلى درجة الاتحاد التام بين جزئي الصورة، ولم يستطع تجاوز المنطق والواقع الذي يباعد بينهما.

ولقد ساهمت الألفاظ في تركيب الصورة الشعرية الحزينة، التي جاءت مشحونة بزفرات نفسية قاتمة، ومن ثم صورة الطبيعة التي أخضعت الوجود الخارجي، وجعلتـه صـدى للعـالم الداخلي، فقدم الشاعر من خلالها مظهر من مظاهر إحساسه في هذا الوجـود الرحب،وجـاءت صورة أخرى لسابق في رائيته:

وفـي الهدى عبر تشقى القلوب بها　　كالغيـث ينضر عن وسميه الشجر

والذكـــر فيه حياة للقلوب كما　　يحـي البلاد، إذا مـات المطر

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه　　كمـا يجلى سواد الظلمة القمر

لا ينفـع الذكر قلبـا قاسيا أبدا　　وهـل يلين كقلب الواعظ الحجر

ولا أرى أثـر للذكـر في خلدي　　والحبل في الحجر القاسي له أثر[399]

فهذه مبنية على مجموعة من المقارنات ذات الدلالة المشتركة بحيث شبه الهدى بالغيـث يسقي القلوب، كما ينظر عن وسميه الشجر، وشبه الذكر بالمطر فكلاهما يحي، فالـذكر يحـي القلب بينما المطر يحي البلاد إذا ما ماتت..وشبه القلب بالحجر ووجه الشبه القساوة، ومن خلال هذه المشابهات

فقد حول الشاعر تصوير خلجاته النفسية وتوضيحها بواسطة التشبيه، وهو لون بلاغـي اعتمده الشعراء قديما وحديثا، لتصوير أحاسيسهم ومشاعرهم، وعن ذلك يقول جابر عـصفور: "الفتنة بالتشبيه فتنة قديمة لدى بعض الشعراء الأوائل بالبراعة في نظر الشعر نفسه"[400].

وهذا بكر بن حماد يلجأ إلى الصورة المركبة لما فيها مـن طاقـات خياليـة وجماليـة وإبداعية تمكنه من تشخيص أفكاره وعواطفه بصدق ونقلها بأمانة إلى المتلقي، وهـي تكشـف الدلالة وتنمق الأسلوب وتخصب الخيال ،وهذا واضح في هذه الصورة :

وكلنـا واقـف منها على سفر　　وكلنا ظاعن يحـدو به الحادي[401]

---

[399]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص

[400]- ابن عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار المعارف، صمر، د.ت، ص112.

لقد اعتمد في إخراج هذه الصورة على التشبيه التمثيلي فمثل الإنسان في الدنيا بمسافر يحثه الحادي على مواصلة السير ويرغبه فيه بالفناء حتى لا تفتر رغبته في السير الحثيث، فالناس كالإبل والموت كالحادي الذي يلهي الناس عن مصائرهم برغائب الدنيا حتى لا يفطنون إلى ما ينتظرهم في نهاية الطريق، كما أبدع الشاعر أحمد بن أبي سليمان في تصوير هذا الموقف في هذه الصورة:

أرى البرق من نحو العذيب تواقدا تغيب طورا لمعه وترددا[402]

دعيت معلما إذ صرت شيخا وأيام الشبيبة كنت بورا[403]

ونلاحظ بأن الشاعر صور إشراق الشيب وقد أحاط به الشعر الأسود بالبرق ينشق من ظلمة الغيوم، وفي البيت الثاني يمثل حياته أمام الشبيبة بالأرض والبور التي لا زرع فيها؛ والمتمعن في هذه الصورة يرى أنها "تتلون بألوان مشاعر الشاعر"[404] لأنه يلبس صوره الشعرية الثوب الذي يتلاءم وذاته المتفجعة الباكية ،ومن ثم أصبح بإمكاننا النفاذ إلى أعماقه لنطلع على حقيقته .

بتوظيف الشاعر هذه الصور التي تثير الحزن وتجليه لنا يكون بذلك قد أوصل لنا شيئا أكثر من الحقيقة وأعمق من الواقع الذي يريد تصويره فقد تمكننا من معايشة مأساته، ويمكن للدارس لهذه الصورة أو غيرها من الوقوف على علاقة الشاعر بالواقع، وعلاقته بذاته وحياته، ليستشف منها حالته النفسية الحزينة،والصورة الدرامية نفسها نلاحظها في هذه الصورة لسابق :

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى سفاها وريب الدهر عنها يخادعه[405]

صور الدهر بالآدمي بجامع الاحتيال ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الخداع، فجاءت الاستعارة لتبرز المعاني في صورة حية متجددة، وكل ذلك يدل على خصب الخيال وبراعة الشاعر، والصورة الفنية تقتضي تشكيلا لغويا يعتمد الإيجار وتشخيص المعاني والأحاسيس ويهدف إلى جعل الصورة بنية واحدة غير مجزأة كما هي في التشبيه بحيث تبقى مسافة بين طرفي الصورة، ومن ثم تفتقد إلى تكثيف الدلالة وثراء الخيال وتنوع الأسلوب وترقى به فنيا ليصبح معادلا لتجربة الاتصال والتفاعل بين المبدع والنص والمتلقي.

---

[401]-رمضان شاوش، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص82.

[402]-العربي دحو، الشعر المغربي، ص194.

[403]-المصدر نفسه، ص199.

[404]- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، مصر، ط3، ص127.

[405]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

وهذه الخاصية الفنية الرفيعة للصورة يؤكدها مصطفى ناصف حيث يقول: "الاستعمال الاستعاري يربط الفرد بالكل ويربط اللحظة بالديمومة"[406].

ويؤكدها جابر عصفور أيضا فيقول: "إذا كان التشبيه يوقع الائتلاف بين المختلفات ولا يوقع الاتحاد، وهذا أهم ما يميزه عن الاستعارة التي تتعدى على جوانب الواقع، وتلغي الحدود العملية بين الأشياء على نحو لا يستطيعه التشبيه"[407]،وأبسط مظاهرها الأسلوبية الإبداعية تبدو في هذه الصورة لسابق:

فكم من صحيح بات للموت آمنا أتته المنايا بغتة بعدما هجع[408]

ونلاحظ بأنه صور المنايا بشخص يخرج فجأة على الإنسان بعد نومه فيقبض روحه، وينهي حياته، فهي صورة فيها كثير من الحركة المؤدية إلى نتيجة مأساوية، وفيها قدرا من الإثارة بفضل هذا التشخيص .

ولكي يشخص الشاعر والآخرون صراعهم مع الحياة والموت التمسوا صورا من الطبيعة والدين والتاريخ، ومن ثم وظفوها ليجسدوا ما يريدون، فبكر بن حماد حاول نقل هذه الصورة المؤثرة في موقف درامي :

نهار مشرق وظلام ليل ألحا بالبياض والسواد

هما هدما دعائم عمر نوح ولقمان وشداد وعاد[409]

تحولت الطبيعة عنده إلى إنسان بأحاسيسه وصفاته وأفعاله، وهي تشخص ظاهرتين طبيعيتين متضادتين وهما: الليل والنهار، وكيف أنهما تقضيان على كل شيء وما ذلك في حقيقة الأمر إلا تصويرا لمعاناته الشاعر القاسية المظلمة كالليل وآماله المشرقة المشرئبة لنهار يبدد الظلمة وينشر البهجة والإشراق في حياته لكن أحاسيسه السوداوية تطغى عليه فتصبح الظلمة والنور سيان في فعلهما على الإنسان بحيث يستدرج إلى حتفه كما استدرج غيره حتى ولو كانوا من الأنبياء (نوح، لقمان، شداد، عاد).

406-مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص6.
407- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص192.
408- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7
409-شاوش رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص76.

وهكذا يكون النص قد اشتمل على صور جلبها من التاريخ الديني والثقافي تلك الصور التي تستوحي أخبار الأمم البائدة كعاد وبعض الحكماء والأنبياء الذين لهم مكانة خاصة في ذاكرة المسلمين كلقمان ونوح ،ولا ننسى استدعاؤه لشخصية اشتهرت بالقوة والشجاعة والجسارة، وأعني بها شخصية عنترة بن شداد، وهذه الإحالات تشخص الشاعر في صورة انهزامية ينعكس أثرها على المتلقي فيحس بشراسة الدنيا وضراوتها، وهو بهذا النهج الفني في تضخيم هول المصير يشكل صورا متعددة للفناء.

وفي نص "ذكر الموت" يمزج مزجا لطيفا إسناديا بين الإنسان والطبيعة من خلال كلمات ذات دلالة إنسانية (يقود، يسوق)، وكلمات لظواهر طبيعية (الليل، النهار) ، وهذا الجمع أدى إلى أسلوب تشخيصي بحيث جعل الطبيعة تستمد أوصافها من الإنسان، فالليل كإنسان يقود النهار ويسوقه أيضا،والصورتان تتوشح فيهما الطبيعة بما هو إنساني، ويتواجد الإنسان فيهما من خلال الطبيعة؛وما إسناده فعل التهافت لليل والنهار إلا تعبير عن تهافت الإنسان على الدنيا (الحياة)، وقد عبر عن هذا الإحساس بأسفه (فيا أسفي)، ثم نراه مرة أخرى يستعين بمظاهر الطبيعة في موضع آخر من خلال كلمات (السحاب، هطول المطر، البرق) التي تجسد لنا ما تفعل الحياة فيه بتلك الجرعات التي تحدث المخاوف والجزع عندما تريه قوتها وحيوتها بأخذ أرواح الذين حوله من مقربيه وأحبابه،فالبروق والسحب ظواهر طبيعية تسبق المطر، بها يؤكد لنا أنها آية لا محالة فكما تنذر البروق والسحب سقوط المطر فموت الأقرباء والأحباب ينذر بسقوط الإنسان في نفس المصير، لذلك نرى أن الصور الشعرية التي أتى بها الشعراء لا تخلو من مظاهر الطبيعة، حيث نراهم يتوجعون من فعل الليالي، ويشكون الزمان ويتوجهون إلى المتلقي لأخذ العظة من تجربتهم ، يقول سابق:

بينما المرء أمسى ناعما جدلا   في أهله معجبا للعيش ذا أنق

تمت أضحى ضحى من غب ثالثة   مقنعا غير ذي روح ولا رمق[410]

وبين [وكنت، وصار وأمسى] لعيسى بن مسكين:

أصاب الدهر عظم ساق   به قد كنت مشاء جليد

وصار لبيته حلسا وأمسى   من الإخوان منفردا وحيدا[411]

---

[410] ـ عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 11

[411] ـالعربي دحو، الشعر المغربي، ص175.

وهاتان الصورتان من النصين تعبير عن حال الشاعر كيف كان يتمتع بالنعومة ،وثم أصبح بقايا متناثرة معبرة عن مأساته ،وهذه صورة أخرى لبكر بن حماد:

بينما نرى المرء في لهو و لعب حتى نراه على نعش وأعواد[412]

هي أيضا صورة رمزية عن الحياة الهادئة والمطمئنة والترف الذي يعيشه الإنسان الذي يفاجئه الموت ويخطفه فتبكيه النساء كما جاء في بيت سابق:

فأصبح تبكيه النساء مقنعا ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع[413]

ونجد في نصوص أخرى تشخيص الشعراء للفناء الذي يلاحقنا أينما حللنا بمجموعة من الصور لإظهار المعنى في صورة فنية مظلمة، كما يعتمد على طاقات اللغة الحقيقية والمجازية، فيوظف المشيب والشيخوخة توظيفا مجازيا للدلالة على قرب الأجل فهي سبب وصوله إلى الثرى كما توضحه النصوص التالية لبكر بن حماد:

أحبو إلى الموت كما يحبو الجمل قد جاءني ما ليس فيه حيل[414]

وعيسى بن مسكين:

أصافح الأرض إن رمت القيام تصحبني ذات اليمين عصا[415]

فكلتا الصورتان تدلان دلالة رمزية خفيفة على العجز الذي يدني الموت بخطى متسارعة، ومن ذلك أيضا تشخيص بكر بن حماد المنايا فيجعل لها أيدي تطال بها ضحاياها:

وأيدي المنايا كل يوم وليلة إذا فتقت لا يستطاع فتوقها[416]

وهذا أحمد بن أبي سليمان يستعير أفعال ويسندها إلى الجماد :

ولم ألبس لذل الفقر ثوبا ولم أك في الغي بطرا فجورا[417]

فلبس الثوب من خصائص الإنسان تم إسناده للفقر على سبيل المجاز، وقد عمد الشاعر لهذه الصورة لأنها تشخص القضايا المعنوية وتجسمها وتجعلها كائنات حية تتحرك وتفعل، وبذلك تبث الحياة والأحاسيس فيما هو جامد فيهتز وينبض، فتطلق العنان للخيال ليرتاد

---

[412]-شاوش رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص92.
[413]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص
[414]-شاوش رمضان، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، ص92.
[415]-العربي دحو، الشعر المغربي، ص175.
[416]-شاوش رمضان، الدر الوقاد، ص79.
[417]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص 196.

عالم الفكر والعواطف والبؤر العميقة في النفس، فيختار ما يلائم حياته وبيئته وحضارته، وهي كذلك تجعل الإنسان يغوص في أعماق الطبيعة ويصبح جزء منها وتصبح جزء منه في اتحاد تام.

ونختم هذه النماذج بصورة الصواف هو يصور لنا تفرق نساء الحي من حوله بعد أن كن يهوين طلعته أيام كان أرجل أسودا والشعر الأسود هنا كناية على الشباب والصبا.

وكان نساء الحي يهوين طلعتي ليالي كان الشعر أرجل أسودا[418]

إن الصور الشعرية تعين الشعراء على الإعراب عن انفعالهم وأفكارهم، وهي أيضا تصور تجاربهم وعواطفهم كما توضح ذلك من خلال النماذج المختلفة التي سقناها.

ثانيا ـ الموسيقى:

لعل الشاعر عندما يريد أن يجسد أحاسيسه لا يجد وسيلة إلا الشعر، وبواسطة الألفاظ المتجانسة التي تحمل طاقة هائلة من المشاعر والأحاسيس عند استعمالها وتوظيفها في البيت الشعري.

كما تأخذ اللفظة مع غيرها أبعادا وظلالا، ويصبح لها عمقا متجددا، ويكون ذلك عن طريق فرض نظام عليها، ووحدة موسيقية تكسب الشعر قدرة التأثير من بينها الوزن والقافية.

الأوزان الموسيقية:

تتنوع الأوزان بتنوع الدفقات الشعورية التي تخضع لإيقاع موسيقى يساعد على خلق التوازن في النفس، بحيث تصبح أداة بواسطتها يمكن للشاعر السيطرة على عاطفته الثائرة والمتوترة.

وإن استقراءنا للبحور الشعرية التي استخدمها شعراء المدونة في نظمهم يكشف عن هيمنة أربع بحور: الطويل فالبسيط، والوافر والكامل ويقترب تواتر بحر الطويل وحده من النصف من مجموع شعره والباقي يتوزع على البحور الأخرى ويأتي في مقدمتها بحر البسيط

418-المصدر السابق، ص194.

والوافر، ثم يتبعها بحر الكامل ثم الرجز، فالمتقارب، الرمل، أما الخفيف والهزج بدرجة أقل تواترا.

ويفضل الشاعر منهم النظم في هذه البحور وهي تامة، كما يلتجئ أيضا في حالات قليلة إلى النظم في بحر الرمل والرجز، وهما مجزوءان.

وهذا يقدم لنا مجموعة من الحقائق لعل أبرزها يتمثل في هذا التوزيع للبحور على أغلب الدوائر الشعرية، ويظهر الشاعر وكأنه يختار من كل دائرة بحرا من أشهر بحورها؛ فالطويل والبسيط من دائرة المختلف، والوافر والكامل من دائرة المؤتلف، والهزج والرجز والرمل من دائرة المجتلب، والخفيف من دائرة المشتبه، أما المتقارب فهو من دائرة المتفق.

ويعد بحر الطويل من أشهر بحور الشعر العربي وأكثرها تواترا في القصيدة العمودية منذ العصر الجاهلي حتى العصور المتأخرة، والشعر المغربي لم يشذ عن هذا التوجه، وحتى لو أردنا فلن يستطيع.

وقد وضع المعري بحر الكامل في الدرجة الثالثة بعد الطويل والبسيط من حيث درجة دورانه عند الشعراء[419].

غير أن شعراء المفضليات والجمهرة رفعته إلى المرتبة الثانية بعد الطويل مباشرة، وجاءت مدونة الشعر المغربي في القرون الثلاثة فهبطت به إلى الدرجة الرابعة، ويرتقي به بكر بن حماد إلى الدرجة الثانية، وهو من الشعراء البارزين في القرن الثالث الهجري، ولكنه يغيب تماما بصوره التامة من شعر سابق المطماطي، وهو من شعراء القرن الثاني الهجري، وجاء في الدرجة الثانية عند الشعراء المغاربة في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وترتفع هذه النسبة عند شعراء المرحلة الأولى إلى الثلث أي بنسبة 32.8 %، وتهبط هذه النسبة عند شعراء المرحلة الثانية إلى الثمن أي بنسبة 12.2 %، وهذا طبيعي للعلاقة العكسية بين توزيع النظم في أكبر قدر من الأنساق الموسيقية، وبين تواتر كل نسق موسيقي على حدة.

أما درجة دوران البسيط في نظم الشعراء فهو يكون في المرتبة الثانية بعد الطويل، غير أنه في إحصائيات[420] لنظم الشعر الجاهلي والإسلامي والشعراء المغاربة في المراحل السابقة تفيد أن البسيط يأتي في الدرجة الثالثة بعد الطويل والكامل، وهذا يعني أن الإيقاع الموسيقي

---

[419]-محمود مصطفى، الهدى سبيل إلى علمي الخليل العروض والقافية، 1936، ص48.
[420]-الدكتور معمر حجيج، محاضرات في موسيقى الشعر، ألقيت على طلبة الماجستير، تخصص أدب مغربي قديم، 2002-2003، ص55.

لهذه البحور الثلاثة هي الأكثر تفصيلا لأذواق الشعراء ولا عجب في ذلك فإن أغلب أجزاء الكامل تأتي مضمرة فتتقاطع مع بحر البسيط، كما أن خماسيتها المخبونة توفر لهذا البحر توالي ثلاث حركات يجعلها قريبة من صدر تفعيلة الكامل.

ويأتي بحر الخفيف مع مجموعة من البحور في الرتبة الثانية بعد مجموعة الأولى من حيث كثرة دورانه عند الشعراء.

أما المتقارب والرمل فنسبة تواترهما ضعيفة عند القدماء، والشعراء الزهاد لم يشذوا عن معاصريهم في ذلك، مما يمكننا من التوصل إلى مجموعة من الظواهر والحقائق:

-أولى هذه الظواهر ترجع إلى الالتقاء الذي يجمع بين الشعراء الزهاد في المغرب وبين الشعراء التقليديين في اختيارهم البحور وتوزيعها ودرجة تواترها، فبموازنة بين الشعراء التقليديين وشعراء المدونة نقف عند حقيقة من حقائق الملامح العامة لإطاره الموسيقي وتتمثل في نزوعهم إلى البحور التي يفضلها الشعراء التقليديون، وهذا ما يفسر حبس جوقتهم الموسيقية عند أنغام بحور قليلة، ولكنها هي الأكثر تواترا عند هؤلاء الشعراء.

-ترسم الشعراء المغاربة طريق القدماء، واعتبروا الشعر المشرقي مثالا يحتذا به، ورفضوا الخروج عن التقليد العربي القديم الموروث، من العهد الجاهلي لا سيما وأن البحر الطويل "قد نظم منه ما يقرب من ثلث الشعر العربي، وأنه الوزن الذي كان القدماء يؤثرونه على غيره، ويحتذونه ميزانا لأشعارهم، ولا سيما في الأغراض الجديدة الجليلة الشأن، وهو الأقدر على استيعاب المعاني، ثم نرى كلا من الكامل والبسيط يحتل المرتبة الثانية في نسب الشيوع"[421].

-تبني المدونة هذه البحور باعتبارها الأقدر على توصيل الفكرة، والأنسب للأغراض الشعرية التقليدية الجادة، والتي يتطلب استرجاعها الانفعالات والذكريات في هدوء وروية من زمن الإبداع، والتي تتميز بنوع من القداسة والجلال والهيبة، وهذه البحور الأكثر تفضيلا عند الشعراء، كما يضيف الناقد المعاصر عبد اللطيف الطيب: "إن الطويل والبسيط أطول بحور الشعر العربي، وأعظمها أبهة وجلاله"[422].

الوزن والعاطفة:

[421]-إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السادسة، 1988، ص191.
[422]-الطاهر التهامي، كيف نعتبر الشابي مجددا، الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1979، ص48.

إن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصيب فيه من أشجانه ما ينفس عن حزنه وجزئه، كما في نص سابق فكم من صحيح بات للموت، الذي اختار له البحر الطويل، ليبث فيه همومه ومواجعه، أما إذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع كما حدث لبكر بن حماد قبل وفاته، عندما دخل عليه بعض أحبابه فلم يستطع القيام (في نصه الذي رثـى فيه نفسه على وزن الرجز)، أو لحمديس القطان في مرضه (بيد الله دوائي ...) الذي أتت أبياته على وزن الهزج، تأثر بالانفعال النفسي وتطلب بحرا قصيرا يتلازم وسرعة التنفس، وازديـاد النبضات القلبية[423].

وهذه التموجات النفسية الحزينة الصادرة عن ذات الشاعر، قد تخرج حادة متوترة وقلقة، مما يستدعي استعمال موسيقى ووزن يستوعب هذه القوة، وقد تخرج هذه المشاعر هادئة يغلب عليها التأمل، وتستدعي موسيقى وتفعيلة معينة، فتتفاوت بذلك الموسيقى في مجملها بين الانفعال الناتج عن شدة الألم وتفاقم حزن الشاعر، وبين الخفوت والهدوء، ويكون ذلك في حالة التأمـل والرضا بالمصير، إلا أن كلاهما يصب في وعاء واحد، وهو حزن الشاعر العميق وقنوطه من هذه الدنيا اللاعوب، والخوف من عذاب القبر والرهبة من الله وكذلك الأمل في غفوة ورحمته.

أ-الانفعـــال:

ويمكن العثور عليه في التجارب المتوترة، حيث يتمكن من تصوير حالته النفسية الثائرة والمشوبة بالغضب والتحسر، ويظهر ذلك في قصيدة أبو عقال التي مطلعها (مناي وتسويفي...)، وأورد هذا البيت كعينة للانفعال والقلق، حيث يقول:

كأنـــي ونفـــس بين حرب وهدنة إذا ساعدتنـــي في السهاد بدا لها[424]

ب-الهـــدوء:

وهو مرتبط بخاصتين: الشكوى الهادئة، والإذعان لما قدر، وكلاهما أحزان يؤديان إلـى الهدوء وعدم الحركة.

-وقصيدة سابق الرائية هي تجسيد للهدوء والخفوت الموسيقي بشكل واضـح، فالنص يجسد حركة تموجية باطنية ناتجة عن الخفوت النفسي الهادئ لدى الشاعر، ولذلك فألفاظ النص

[423]-إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص177.
[424]-العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات المستقلة، ص205.

تعكس استكانته إلى قوة خفية قادرة على العفو والرحمة (بسم الذي أنزلـــت، الحمـــد لله، يحـــي البلاد، يجلى سواد الظلمة القمر، الذكر حياة للقلوب، ...).

إن هذه الألفاظ في مجموعها تنهل في معين واحد هادئ هو ذات الشاعر الحزينة، والتي في هدوئها تتجه نظرتها للسماء رغم احتراقها داخليا.

لقد تنوعت النصوص عند الشعراء في ثوبها الإيقاعي، وعند الشاعر نفسه، وهذا راجـــع كما يبدو إلى أن التجربة تقلبت عندهم بين الغضب من أنفسهم والألم، والثـــورة علـــى الـــدنيا والأمل، فجاءت كل عاطفة في ثوبها الإيقاعي الكفيل بإخراجها في دفقتها الخاصة بهـــا، وهـــذا التنويع يعطي للقصائد قوة التنفس الشعري المتنوع والذي يوازيه داخليا ذات الشاعر المتلونة.

ثانيا ــ القوافـــــــي:

لقد اختلف القدماء في تحديدهم للقافية، وبيان دورها الصوتي والدلالي ولا نرى أي فائدة للكلام عن هذه الاختلافات، ونكتفي بالمشهور من التعاريف، وربما أقربها إلى الإلمـــام ببنيـــة القافية ما أورده صاحب العمدة على لسان الخليل الذي يرى أن القافية هي "آخر حـــرف مـــن البيت إلى أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن، والقافيـــة علـــى هـــذا المذهب، وهو الصحيح، تكون مرة بعض الكلمة، ومرة كلمة، ومرة أخرى كلمتين"[425].

ولا يمكن أن نطبق هذا التعريف في دراسة أشكال القافية، وأنماط بنياتهـــا فـــي الـــشعر الزهدي المغربي دون تحديد عناصر مكوناتها الثابتة، والمتغيرة، ومن خـــلال اجتمـــاع هـــذه العناصر معا، أو غياب بعضها تتحدد أشكال هذه القوافي وقوالبها، وهي بالضرورة تبنى علـــى روي ويكون ساكنا أو متحركا، فإذا كان متحركا فتلك هي القافية المطلقة التي يلحقهـــا مجـــرى يؤدي إلى الوصل يتبعه خروج أو لا يتبع، ويأتي قبل الروي ردف وتأسس ودخيل، ومن هـــذه العناصر الثابتة والمتغيرة تشكل أنواع القوافي حسب قوالب معينة، يمكن الوقوف عليهـــا بكـــل يسر في نصوص الشعر الزهدي.

1/الـــــــروي:

وقبل دراسة أنواع القافية وصورها لا بد من دراسة حرف الروي دراسة مستقلة، تكشف عن منهج الشعراء في اختيار حروف دون أخرى، وأحاول بقدر الإمكان تفسير ذلـــك تفـــسيرا صوتيا فنيا.

[425]- ابن رشيق-العمدة-ص151.

إن الروي يعد عنصرا أساسيا في تشكيل القافية، فهـو يـشارك فـي تحديـد الإيقـاع الموسيقي، وهذه الدراسة تشمل كل ما استطعنا جمعه من هذا الشعر، والذي يتوزع على سـتة عشر حرفا، استخدمها الشعراء كلها رويا بدرجات مختلفة بحسب مادتها اللغوية المتاحـة فـي المقام الأول، وحسب خصائصها الصوتية، فهو دائما يمثل مركز القافيـة وهويتهـا النـصية، ومـن العناصر اللازمة المتكررة ويشكل الانطلاق لكل التصنيفات للأشكال والألـوان التـي تتلون بها خصائص القافية، وهو موقع مبادئ وقواعد صارمـة، والخـروج عليها يـؤدي إلى عيب من عيوبها.

والروي ليس مجرد صوت يتردد بلون صوتي واحد منتظم، بل يكتـسي أيـضا أهميـة موقعية لكونه يحدد عناصر القافية قبله وبعده.

شيوع اختيار الحروف:

لقد اعتمدت مبدأ التواتر على مستوى البنية السطحية، للنصوص الشعرية لحرف الروي، الذي هو جزء من الكلمات التي تقع في نهاية الأبيات، فإن درجات هذا التواتر تـربط طرديـا بمبادئ ذاتية وأخرى خارجية موضوعية.

وفي الحقيقة فإن هناك تداخلا كبيرا بين ما يرجع إلى الداخل، وما يرجع إلـى الخـارج عند الكلام عن معدلات الاختيار للمادة الشعرية، فالذوق الشخصي لا يمكن فصله عـن الـذوق العام، والكفاية اللغوية لا يمكن فصلها عن البنية العميقة لأي لغة، ولكن ما هو متفق عليه عنـد الأسلوبيين فيما يتعلق بالشعر خاصة؛ أن الأصوات اللغوية تمتلك خـصائص نوعيـة وقيمـة تعبيرية مستقلة عن معنى الكلمات التي تجسدها، وتظهر هذه الخصائص النوعية في الانطبـاع بالاستحسان أو الاستهجان الذي تحدثه في أسماعنا، وتظهر القيمة التعبيرية بما توحي به هـذه الأصوات عند التلفظ بها من معاني وانطباعات وصور"[426].

ويحق أن نتساءل عن مدى توافق هذه القسمة مع أقسامها في دراسة إبراهيم أنيس للقافية في الشعر العربي، وتقسيمه إياها بحسب درجة شيوعها في الشعر العربي إلى أربعـة أقـسام: شائعة ومتوسطة وقليلة الشيوع ونادرة[427].

[426]-J.Marouzeau-Precis de stylistique française, masson et cie, paris –France 1969-P:23.

[427]- إبراهيم أنيس-موسيقي الشعر-ص248.

ومع تلك القسمة المبنية على الذوق التي صنف من خلالها عبد الله المجذوب القوافي إلى أربعة درجات: الدرجة الأولى أطلق عليها القوافي الذلل، وصنفها صـــنفين، والدرجـــة الثانيـــة أطلق عليها القوافي النفر، والدرجة الرابعة سماها القوافي الحوشي[428].

ويتضح ذلك من خلال الجدول:

مبدأ الشيوع في المدونة	مبدأ الشيوع عند إبراهيم أنيس	مبدأ الذوق عند عبد الله الطيب المجذوب
ل ر د ب ع ن	**ل ر د ن ب م س ع**	**ل ر د ن ب م ت ع**
ق ء م ي ج ك	**ق ح ك ء ج ي ق**	**ف ح ك ء ج س ق**
ص ض هـ ت	**ص ض ط هـ ث ت**	**ص ض ط هـ و**
غ ذ ظ ث خ ش و س	**غ ذ ظ ر خ ش و**	**غ ذ ظ ث خ ش**

[428]- عبد الله الطيب المجذوب-المرشد إلى فهم أشعار العرب والأدب-دون ذكر مكان النشر وتاريخه-ج1-ص44-65.

ف ح ث ط			

نلاحظ من خلال هذا الجدل تقاربا كبيرا بين التصنيف المبني على مبدأ درجات الشيوع والسهولة، والتصنيف المبني على أساس الاحتكام إلى الذوق بحسب درجات الاستحسان، ونلمس هذا التقارب أكثر في الاتفاق الثلاثي التام في حوالي إحدى عشر حرفا، بالإضافة إلى أن هناك توافق يكاد تاما بين الثلاثة من الحروف الأولى (ر.ل.د)، والثلاثة الأخيرة (غ.ذ.ظ)، ومع ذلك الاختلاف لا يعدو تبادل المواقع بين الحروف.

هذا التقارب بين مدونة إبراهيم أنيس، وأحكام عبد الله المجذوب، ومدونة الشعر الزهدي المغربي، كلها تدل على تقاليد الشعر العربي في استحسان أصوات تتكرر، وتنتظم في مواقع لها دور في إضفاء جو خاص منفصل في الكلمات والتراكيب من خلال موسيقى النص الشعري، وهذا الجو يوحي بمعاني وصور تعادل المشاعر، وتحاكي وقع الأشياء، الأمر الذي يثير التجربة الشعرية، ويجعلها أكثر إثارة بجمع مكوناتها وجمالياتها.

وسنحاول الآن تفسير معدلات التواتر لحروف الروي من خلال مفهوم الصفات المميز الفونولوجي.

فالمجموعة الأولى الشائعة من حيث مخارجها توضع في ثلاثة أقسام:

القسم الأول يضم اللام، والراء، والنون، والدال بحسب (مصطفى حركات)، ويفصل تمام حسان الدال عنها، ويعده قسما مستقلا بنفسه، وكل هذه الحروف لثوية في مخارجها أو أسنانية لثوية كما هو حال الدال والقسم الثاني لا يضم إلا الباء وهو شفوي، والقسم الثالث يمثله القاف وهو لهوى.

وإذا انتقلنا إلى أصنافها فإننا نجد اللام، والراء، والنون، والميم، تصنف في المتوسط والشديد، وتصنف الباء والدال والقاف في الشديد فهي متقاربة من حيث صنفها، وإذا فحصنا نوعها فإننا نجدها كلها مجهورة عند سيبويه، استثنى منها تمام حسان ومصطفى حركات حرف القاف.

أما إذا انتقلنا إلى الصفات الأخرى نجد الراء لها صفة التكرير التي لا يشترك معها في هذه الصفة أي حرف، وكذلك اللام له صفة الانحراف الجانبي التي ينفرد بها، ونجد حرفين هما الميم والنون، يشتركان في أنهما أنفيين، أما الدال فيتصف بالترقيق، والقاف بالتفخيم.

وتتصف أيضا اللام والنون والميم والراء بأنها من الحروف الجرسية[429] أي أنها من الحروف الرنانة، كما أن الميم والنون يتصف بالغنة، وهما في الوقت نفسه يعدان مع اللام أنصافا لأصوات اللين[430].

هذا الاشتراك في هذه الخصائص الصوتية الفونولوجية أهلها لأن تظهر بهذه المعدلات المرتفعة في الشعر الزهدي المغربي، ولا عجب في ذلك فإن السهولة في النطق، والوضوح في السمع والغنة والتوسط في الشدة أو التامة الشدة، والجهرية كلها خصائص تناسب القافية، وموقعها الإيقاعي ودورها في موسيقي الشعر وبخاصة إذا كانت رويا بما له من صدى جرسي مميز.

إن التركيز على التلقي السمعي للخبرات الجمالية كان واضحا في اختيار الشعراء لهذه الأحرف بمعدلات مرتفعة لأنها مجهورة كلها، وهي "أوضح في السمع من الأصوات المهموسة"[431].

فكانت من ضمنها اللام والميم والنون، وهي أكثر الأصوات الساكنة وضوحا، وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين.

وتشترك معها الراء في نسبة وضوحها الصوتي، لأنها من أوضح الأصوات الساكنة في السمع، ويمكن لنا أن نقول أن هذه الخصائص الصوتية تساعد الشعراء في تحويلها إلى وسائل جمالية تحقق للخطاب ماهيته الشعرية. أما الحروف الأخرى الأقل تواتر، فهي تتراوح بين الرخاوة أو الهمس الشديد.

إن هذه التفاوت في استعمال الروي راجع إلى أن الحروف الشديدة والانفجارية واضحة وسهلة عند النطق بها، وتستعذبها الأذن بالإضافة إلى أن الشاعر بصنيعه هذا يرجع اللغة إلى بدائيتها وطفولتها[432].

[429]- مصطفى حركات-الصوتيات والفونولوجيا-دار الآفاق-الجزائر-د.ت-ص47.
[430]- عبد الله عبد الحميد سويد-أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث-مطابع الوحدة في ليبيا-ص62.
[431]- إبراهيم أنيس-الأصوات اللغوية-مكتبة الأنجلو المصرية-ط1-1984-ص238.
[432]- المصدر السابق-ص142.

وإذا كان أي إنسان ينشد السهولة والوضوح، فإن الشاعر في تكريره لهذا الصوت، عند نهاية الأبيات يفسر على أنه يبحث عن الاقتصاد في الجهد العضلي لإتمام النفس الشعري، في صدى ونغم وفواصل واحدة يحافظ على جمالية هذا العنصر الشعري الأساسي، وهذا ما يسمح للشاعر أن يمدد نفسه الشعري إلى أبعد حد ممكن في قصائده ومطولاته باختيار لهذه الحروف رويا.

أما الصنف الثاني من الحروف فهي قليلة أو نادرة من حيث شيوعها بوصفها رويا في الأشعار، وهذه الندرة ربما تعود إلى طبيعتها الصوتية الرخوة الانغلاقية[433] والاحتكاكية[434] التي تتطلب جهدا عضليا أكثر من النطق بها، ومن ثم فإن استعمالها رويا في الشعر بطبيعتها المتكررة يضاعف هذا الجهد، ويصعب تحديد النفس الشعري في مثل هذه القوافي.

وخلاصة القول أن الشعراء لم يخرجوا في اختيارهم للحروف التي تصلح رويا في منهج القدامى في تفضيلهم لحروف لما تتسم به من خصائص صوتية معينة تحقق مطالب فنية في أكمل صورها.

2/أشكال القافية:

لقد كان حضور القافية المطلقة في الأعمال الشعرية بشكل مكثف، حيث طغى على معظم النصوص ما عدا ثلاثة فقط: نص لعيسى بن مسكين "لعمري يا شبابي لو وجدتك..."، ونصان لسابق المطماطمي (فلا تحفرن بيرا تريد أخا بها...، وكم صحيح بات للموت آمنا...، التي جاءت قافيتها مقيدة مجردة).

ونلاحظ أيضا اتفاق الشعراء في الغالب الأعم في التوازن في اختيارهم العام، لهذه القوالب، فقد أكثروا من القوافي المردوفة، وبخاصة ما جاء منها بألف المد والتي تحقق جمالية الانسجام، ومن ثم الكمال الموسيقي، لكنهم في الوقت نفسه أكثروا أيضا من القوافي المجردة التي تقع في الرتب الدنيا من حيث الكمال الموسيقي وبخاصة وأنهم لم يتحاشوا سناد التوجيه في أغلب هذه النصوص ذات القافية المطلقة.

ومن جهة قد استخدموا القافية المؤسسة والمقيدة المجردة، فالأولى تحقق الكمال الموسيقي والثانية تدرج في المراتب الدنيا، فمثلا خذ هذا النص السابق (فكم من صحيح بات

433- مصطفى حركات-الصوتيات والفونولوجيا-ص47.

434-إبراهيم أنيس-الأصوات اللغوية-ص142.

للموت...)، وقف على ساكن واحد، فخرجت الدفقة الحزينة ناقصة، فالوقوف على ساكن واحد بتر للشحنة الحزينة لعدم استجابتها لكثافة الطاقة الشعورية التي يحملها في ذاته، فلو حورنا آواخر الكلمات في المقطوعة السابقة كما يلي:

فكـــم من صحيح بات للموت آمنا أتتــــه المنايـــا بغتة وهو هاجعْ

فلـــم يستطع إذا جاءه الموت بغتة فـــرار ولا منـــه بقوته امتناعْ

فأصبـــح تبكيـــه النســاء مقنعا ولا يسمع الداعي وإن صوته رافعْ

وقـــرب مـــن لحد فصار مقيله وفـــارق ما قد كان بالأمس جامعْ

تصبح لهذه الكلمات التي فيها بتر للشحنة الحزينة (هجع، امتنع، رفـع، جمـع)، بعـد تحويرها إلى هذه الكلمات (هاجع، امتناع، رافع، جامع) إشباع للنفس، فالمد بمثابة الـصراخ والأنين والاستغاثة، وكسر لجو الرتابة الصامتة القصيرة، "فالوقوف على ساكنين أحدهما حرف مد يمنح فرصة التعبير عن عمق الحزن"[435].

إن اجتماع الساكن الأصلي بالمد من الوجهة النفسية، يمكن للذات الحزينـة أن تـسرب الأحزان إلى الخارج في مدة أطول، عكس الساكن عند استعماله لوحده فهو يبترها.

إن شعراء المدونة لم يخرجوا عن المألوف، فلطالما كانت نسبة تواتر القافيـة المقيـدة قليلة، وهذا ما جسدته نصوصها الشعرية، كما أنهم بقوا يطبقون المبدأ الذي لا يـرى الجمـال والكمال الموسيقي إلا في وحدة القافية، مهما امتد النص واختلفت فيه الموضوعات، يقول ابـن رشيق "وقد رأيت جماعة يركبون المخمسات والمسمطات ويكثرون منها، ولم أر متقدما حـذقا صنع منها، لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه"[436].

موسيقى الحشـــو:

1/التصريـــع:

يعرفه ابن رشق فيقول: "بأنه ما كانت عروض البيت فيه تابع لضربه، تنقض بنقـصه، وتزيد بزيادته"[437].

[435]- عبد الله العشي، الحس المأساوي في شعر صلاح عبد الصبور، رسالة ماجستير إشراف عبد اللطيف عبد الرحمان الراوي، جامعة وهران، معهد اللغة والثقافة العربية، 1984، ص281.
[436]-ابن رشيق، العمدة، ج1، ص182.
[437]- المصدر السابق، ص173.

وهو عبارة أيضا عن "مقابلة كل لفظة من صدر البيت أو فقرة النثر بلفظة على وزنها ورويها"[438].

ويتواتر هذا النوع في المدونة الخاصة بالشعر الزهدي المغربي، ومن نماذجه:

زرنا منازل قوم لم يزورونا   إنا لفي غفلة عما يقاسونا[439]

ففي مطلع هذه القصيدة الشعرية يشترك العروض، والضرب في تفعيلة واحدة هي فعلن، كما يشترك الشطر الأول من البيت في الحرف القافوي: النون مع الشطر الثاني من البيت الأول من المقطوعة الشعرية، ويسمى هذا التقابل بالتصريح المتوازن، والمتصفح لقصائد بكر بن حماد يجده لم يلتزم التصريع في مطالع القصائد أو في داخلها سوى مرة واحدة في بداية المقطوعة السابقة الذكر، التي نعى فيها تخريب تيهرت.

ولظاهرة "ندرة التصريع في شعره تفسيران: أولهما أن الشاعر لم يكن يهتم، بالتصريع عن وعي أو عن غير وعي ربما لأنه لم يكن شاعرا محترفا، أو لأن طبيعة المقطوعات لا تثير في الشاعر فنيا رغبة في التصريع، إذ هي خواطر تأتيه فيرسلها إرسالا، وثانيها أن يكون بعض شعره قد ضاع وخاصة الأجزاء الأولى من القصائد، حيث التصريع في البيت الأول، الأمر الذي تشير به بعض مقطوعاته، من مثل اللامية التي رثى بها ابنه عبد الرحمن والتي أولها:

وهون وجدي أنني بك لاحقا   وأن بقائي في الحياة قليل

إذ يبدو وأن هذا القول عطف على بيت سابق"[440].

وقد تكرر هذا التشكيل التنظيمي عند سابق على وزن البسيط:

بسم الذي أنزلت من عنده السور   الحمد لله أما بعد يا عمر[441]

هناك تناسق إيقاعي، اشترك فيه عروض وضرب مطلع القصيدة في قافية الراء، وفي تفعيلة واحدة (فعلن).

ونرى أيضا هذا التصريع المتوازي عنده على وزن الوافر.

إذا كنت طالب كل ذنب   ولم تحلل أخا لك على العتاب[442]

---

[438]- تقي الدين عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص409.

[439]- محمد بن رمضان شاوش، الدار الوقار من شعر بكر حماد، ص90.

[440]-عبد العزيز نبوي، الشعر المغربي، ص141.

441- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

نلاحظ اتفاق ومقابلة بين شطري البيت الروي (الباء)، واختلاف في الوزن.

وهذا نموذج آخر سابق:

إن كنـــت متخـــــــذ خليـــلا   فتـــــوق وانتقد الخليلا[443]

وهنا نوع آخر يتسم بتكرير كلمة بالمعنى نفسه، ويعــده القــدماء مــن الإبطــاء فــي التصريع"[444]، حيث تكررت كلمة الخليلا بالمعنى نفسه في العروض والضرب.

وها هي الظاهرة قد تكررت في غير هذه النصوص عند كل من الصواف، وأبو عقــال في أبياته التي جاءت بعد بيت أحمد بن أبي سليمان:

سألـــــبس للصبر ثوبا جميلا   وأفتــــــل للــصبـــر حــبلا طويلا[445]

قريــــــن الحزن ذو هم يجول   أخــــو سهـــل إذا نام الغفول

لاح المشيـــــب بلمتي فنعاني   ونفـــــى الصبا عني وذم عناني

منــــــاي وتسويفي بنفسي أذلها   وأعلمهـــــــا فيمـــا عليهـــا بمالها[446]

نلاحظ في الأبيات الثلاثة الأولى تصريع متوازن، أما في الرابــع والأخيــر تــصريع متوازي، حيث اقتصر التقابل على حرف الروي في العروض والضرب، فــي حــين اختلــف تفعيله كل منهما، وهذا ما سنراه في الأمثلة التالية لكل من سعدون الورجيني:

عيــــن ألـــم بها وجد فلم تنم   تبكـــــي بدمع كنظم الدر منسجم[447]

ولسعيد بن الحداد

رغبــــت بنفسي عن دني المكاسب   ومـــا أعجزتني حيلة عن مطالبي[448]

ولقد أضفى التصريع إيقاعا حزينا مشبعا بالأنين في هذه الحــروف المكــسورة –المــيم الباء– ولاحظ هذا التصريع عند حمديس القطان:

بيــــــــــد الله دوائـــــــي   الـــــذي يعلـــــم دائـــــي[449]

---

[442]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

[443]- المرجع نفسه ، ص 6

[444]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص 193.

[445]- المرجع نفسه، ص206.

[446]- نفسه، ص203-204.

[447]- نفسه، ص 189.

[448]- المرجع السابق، ص 177.

انه يساهم في ترقيص الصورة وهو أيضا يثري إيقاع البحر ولونــه ويكــسر الرتابــة ويضفي عليه شيئا من القلقة التي تشير باضطراب داخلي فهو يشكل نقطة ارتكاز يفــرغ فيهــا الشاعر شحنة انفعالاته في نهاية الشطر الأول والثاني,كما جاء في هــذا المثــال لعيــسى بــن مسكين:

لا عمــــــري يا شبابي لو وجدتك بمـــــا ملكـت يمين لا رتجعتك[450]

إن هذا التصريع وسيلة بلاغية صوتية فعالة تثير التعبير بنغمات مؤثرة تــشد المتلقــي وتهز وجدانه, وتبعثه على المشاركة. إن هذه النماذج المختلفة تدل على اهتمام واعتناء الشعراء بمطالع القصائد وفي ذلك تحقيق لأحد المطالب الجمالية والمعنوية عند القدماء.

ثالثا – الموازنات الصوتية:

1- تكرار الحروف:

يقول كولن: "انه استنساخ يتم بوسائل تكوينية خالصة لا تحمل دلالة ذاتية"[451], وهو يثير في النفس إحساسا جماليا لا يتحقق عند إدراكها منفصلة عن غيرها.

ويتواتر هذا النوع في المدونة بنسبة عالية, ومن نماذجه نص تاهرت بعد تخريبها حيــث نلاحظ تكرار حرف النون في مواقع الأسى والحسرة والألم الدفين,وارتباط كــل ذلــك بأنغــام الشجو, ويظهر تواتره في ستة عشر موقعا,كما تبينه الترسيمة التالية:

نا ــ ـنـ ـــــ نا ـــ نا ــــــــ نا

ــ ـنـ ـــــــــ ـــــــــــ نا

ــ ـنـ ـــــــ ــ ـنـ ـــــ نا

ــ ـنـ ـــــــــ ـــــــــــ نا

ــ ـنـ ــ ـنـ ــ ـــــ ـــــ ـنـ ــ نا

هذا النموذج في الصوت النون بين الغياب والحضور,يكشف عن تموج معان الأســى و الألم في نفسية الشاعر بتضافره مع ظواهر صوتية أخرى وصرفية,ودلالية, فالــصوتية يمكــن الوقوف عليها في الأسماء و الأفعال المتضمنة لحروف مضاعفة (الزّاد, الدّنيا, خرّب, حقّ) لأن هذا التضعيف يكشف المعاني, ويضيف العمق إلى التجربة الشعرية,ويوحي بطبيعة أصواته إلى سراديب وكهوف, ومغارات من الألم والأسى في نفسية الشاعر .

---

[449]- المصدر نفسه، ص 176.

[450]- المصدر نفسه، ص175.

[451]- نبيل رشاد نوفل، العلاقات التصويرية بين الشعر العربي والفن الإسلامي، توزيع منشأة المعارف الإسكندرية، 1933، ص131.

2 ـ تكرار الكلمات والجمل:

تتكرر هذه الظاهرة في القصيدة الرائية لسابق بصفة كثيفة:

إن كنــــت تعلــــم مــــا تأتي وما تذر   فكــــن على حذر قد ينفع الحذر

وأصبر على القدر المجلوب وارض به   وإن أتــــاك بما لا تشتهي القدر

فمــــن صفا لأمــــرئ عيش يسر به   إلا سيتبــــــع يوما صفوه الكدر

مــــن يطلــب الجور لا يظفر بحاجته   وطالب الحــق قد يهدى له الظفر

قـــــد يوبــق المرء أمر وهو يحقره   والشيء بالنفس ينمي وهو يحتقر

كــــل شــــيء لــــه حــال تغيره   كما تغــير لــــو اللمــــــة العبر

والذكــــر فيــــه حيــاة للقلوب كما   يحي البلاد، إذا مــــا ماتت المطر

والعلــم يجلو العمى عن قلب صاحبه   كمــا يجلي ســــواد الظلمة القمر

المـــــرء يصعـــــد ريعان الشباب به   وكــــل مصعدة يومـــــا ستنحدر

وكم مــــن جموع شت الدهر شملهم   وكــــل شمل جميع سوف ينتشر

وكم من أصيد سامي الطرف معتصب   بالتــــاج نيــــراه للحرب تستعر

أبعــــــد آدم ترجون البقــــــاء وهل   تبقــــى فروعــــا لأصل حين ينقعر

لــــكــــم بيــــوت بمستن السيول وهل   يبقــــــى علــى الماء بيت أسه مدر

والمرء ما عــاش فــــي الدنيا له أمل   إذا انقضــــــى سفر منها أتى سفر

إذا قضــت زمــرا آجالهــــا نزلـــــت   علــــى منازلهــــا مــن بعدها زمر

ليــــس يزجركــم ما توعظــون بـــه   والبهــــم يزجرهــا الراعي فتنزجر

أصبحتــم زجــــرا للمــــوت يقبضكم   كمــا البهائــــــم في الدنيا لكم جزر

لا تبطــــروا وأهجــروا الدنيا فإن لها   غيــــا وخيمــا وفكر النعمة البطر

ثم اقتــــدوا بالأولــــى كانوا لكم غرر   وليــــس مــــــن أمة إلا لها غرر

حتــــــى تكونــوا على منهاج أولكم   وتصبروا وعــدم الدنيا كما صبروا[452]

لقد عمل التكرار على إبراز نقاط الإثارة في النفس, ونوع من الإيقاع وأثراه بحيث شكل نوعا من الهندسة الصوتية كتلك الهندسة الأمامية الفاتحة لهذه الأبيات:

---

[452]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

وكـــــم من جمـــــوع ....

وكـــــم من أصيـــــد ....

أو الهندسة الوسيطية في:

أبعد آدم ....وهل ....

لكم بيوت .... وهل ....

ولا ننسى ترجيح صدى قافيته في ألفاظ القصيدة ليعمق بها الإصــرار علـــى الموافــق والرفض للدنيا والثبات والتحدي والثورة عليها, أما السين فتنبعث منه موسيقى مليئة بالحــسرة والألم.

وهذا مثال أخر لسابق لتلوين النص بإيقاع إضافي إلى جانب الوزن والقافية والروي:

نلهـــو ونأمــــل أياما تعـد لنا   سريعـــــة المـــــر تطوينا ونطويها

لا تبرح النفس تنعى وهي سالمة   حتـــى يقـــــوم بنادي القوم ناعيها

ولـــن تـــزال طوال الدهر ظاعنة   حتـــى تقيم بـــــــواد غير واديها

أموالنـــا لـــذوي الميراث نجمعها   ودورنـــــا لخــــــــــراب الـــدهر نبنيها[453]

ونلاحظ تردد حرف النون في حشوها فيصدر نغما منبعثا من غنة هذا الحرف, بالإضافة إلى حرف الهاء أيضا, الذي يبث من خالهما الشاعر آلامه وغضبه من هذه الدنيا, وأمله وشوقه إلى عالم أرحب وأطهر،وثمة ظاهرة إيقاعية أخرى تتمثل في الإكثار من حركات الكـــسر فـــي أواخر الكلمات سواء المتلبسة بحرف من حروف الجر أو التي أتت في أواخر كلمات الضرب:

بينمـــــا المـــــرء أمسى في أهله   معجبـــــــا بالعيـــــــــش ذات أنـــق[454]

وفي نص آخر:

لئـــــــن عرف الإخوان عن نزاهة   وخلفنـــي عنهم نصيبهم من الفقر[455]

وقد يريد الشاعر من التكرار طرح أفكار تلح عليه ولا يريد أن تبقى غامضة في ســـرها فمثلا فكرة الموت طرحت في غير موضع وكذلك تساوي الأحياء التي طرحت بتفصيل، وليس

453- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 4

454- المرجع نفسه، ص 8

455- العربي دحو، الشعر المغربي، ص203-204.

هذا التفصيل من سبب أيضا إلا أن الشاعر يريد أن يعبر عن خوالج نفسه وخواطرها مما يبعث فيها الراحة والاطمئنان.

يقول أحمد بن أبي سليمان:

وليـــس مؤلـــف قولا حكيمـــا	**كآخـــــر قائــــــلا افكا وزورا**
يزخــــــرف قولــه لينــال دنيـــا	**إذ ما نالهــــــا نـــال الغرورا**
فـــــلا تشغـل بقــول غيـــر قيلي	**فمــــا فــي النفع كان له نظيرا**
فدع عنـــــك المذاهـب واتبعنـــي	**متابعة تجــــد خيــــــرا كثيرا**
وفـــــي تعليمـــــه علمـــا عليما	و في تأديبـــــه ستـــــرا ستيرا
ولــــم أجـــــزع وللأيام صـــرف	**يعـــــود عسيرها سهلا يسيرا**
ولـــــم أفـــراح لأن لهـــا انقلابا	**يعيـــــــد يسيرها صعبا عسيرا**
وإنـــــي إن توالى فجـعهــــــــا	**لجلـــــــدا .... صـــــــــبورا**
إذا كـــــان الفتـــى عنــــي غنيا	**فلســـــت إليــــه محتاجا فقيرا**
أواصلـــــه إذ يبغـــى وصالـــي	**وأمنحــــــــه إذا قطــع الدبورا**
أرى يومـــــا يجـــيء كـــل خير	**ويومـــــــا بالحوادث مستطيرا**
كـــــذا أحـــوال دهـرك حال أمن	**وحال تجـــــزع البطل الجسورا**
وكــم ملك عظيــم ذا اختيــــــال	أعـــــــــد خزائنا وبنى قصورا
وكـــــان مـــــداه ذا خطر عظيم	**فصــــــــــار مؤجلا أجلا قصيرا**
ومـــــن ذاك التمــــلك والتعالــي	**وسكــــــن قصـــره سكنا حقيرا**
مـــــن طالب للمال يسعـــــــــى	**ويركـــــب فـــي مطالبه البحورا**
فصـــــــــــار يود أن لو كان أضحى	**علـــــى تفريق ما يحوي قديرا**
وعـــــاد يـــــود أن لو كان أمسى	**وليـــــس بمــــــالك منه نقيرا**
إلــــى: نـــــار تلظيها شديـــــد	**وتزفـــــر فـــي تغطيها زفيرا**
كأنــــــي بالبكاء علـــى فـــــاش	**وقــــد حملــــوا بجثتي السريرا**
إلى دار البلــــى حمــــــلا سريعا	**وينصرفون عـــــن قبري نفورا**

يعيد الشاعر كلمة القول عدة مرات ليبين لصاحبه أن هناك فرق بين القول الجيد الـــذي ينفعـــه والقول الذي يضره، وكلامه من النوع الأول الذي يفيده، ثم يكرر النيل 3 مرات ليوضح إلحاح الإنسان على نيل الدنيا، لكنه لن يحصل منها إلا على السراب وغرورها واعتزازها وافتخارها بقوتها، لذلك يدعوه إلى عدم الانشغال بها.

يواصل تكراره لكلمة "رأي" في بداية الأشطر ليؤكد لصاحبه أنه متحقق مما يقول لأنـــه ينطق عن خبرة وتجربة ، وهذا التكرار بمثابة منبه يشير إلى أنه استمر في التفكير وملاحظـــة نقصان العمر لفترة طويلة وفي تأمله الحياة فكانت تلك الحقيقة الماثلة أمام عينه.

أما ترداده (الأيام الليالي–الشهور–يوما–الحوادث–دهر) توضح مدى تأثيرها في الإنسان وتأثره بها، فهذا الإحساس بتغير الدنيا وتقلبها يهدم الإنسان من الداخل والخارج أيضا، ويخرسه ويبعده عن الواقع فهو شر والأشر منه الإحساس بغدرها، وبالتالي الخوف الذي يجعله مضطربا غير مستقر لا يتذوق الحياة، ولا يشعر بالسعادة فيفقد الأمان والاطمئنان.

لقـــد رأى تغيـــر الزمـــان وتجدده الذي لا يبقى على حال لأحد فجـاءت كلمـة الحال (المفردة والجموع) متكررة في البيت لتجسد هذا التبدل الذي لا يخصـــه بصفة مؤقتـة وإنما بصفة دائمة فكلمة أحوال توضح أن تبدلها دائم وليس آني.

ثم أن الشاعر لا يكتفي بذلك فيأتي بالدليل والحجة الدامغة لكي لا يقع صاحبه في حيـرة وشك، فلطالما رأى الملوك الذين ظنوا أنهم ملكوا ناصيتها بما منحته الحياة لهـم لا يلبثـون إلا لحظات لتهوي تلك العظمة.

وكلمة العظمة التي أسندت للإنسان كإحدى من صفاته ما هي إلا إشارة فـي الواقـع إلا تلك القوة لهائلة والمروعة التي بحوزة الزمن، فهي تحيلنا إذا إلى عظمة الزمن لا البشر التـي أوهمتـــه بأنـــه يمـــتلك من القوة ما يمكنه من قهر الزمن والانتـصار علـى قوتـــه العظيمة والهائلـــة بتلاعبه به لفترة ثم رميه بسهامه السامة والقاتلة لترديه صريعا، فقد كانت تؤجله لفترة قصيرة، ثم تضرب ضربتها.

تمنحــــه من الأشياء ما جعله يهدأ جزعه منها، فكلمة السكن تشير إلى أن هذا الإنسان يعيـــش في سكينه واستقرار واطمئنان من الزمن وعدم غدره، في تيه ويغفل عن الأشيـــاء الهامة في حياته ويشغل نفسه بأشياء لا قيمة لها.

تلهيه وتحجب عنه الحقيقة، فكثرة المطالب توضح تيه الإنسان وغيه لأن حـب المـال وجمعه وكنزه إذا تحكم بالنفس البشرية جعلها وجعل تصرفاتها أسيرة عنده فتلهيها عما هو أهم وتغفل عن أيام العمـر وهي تتسرب منه وتضيع يوما بعد يوم، فتذهب سدى لا عمل صـالح ولا ذكر حسـن، وعندما يستفيق من غفلته يعض أصابعه ندما علـى ذلـك، فبعـدما كـان يأمـل في الحصول عليها أصبح يأمل لو ينتفي ما فعله، وهذا يوضح تأثير المـال فـي نفسيته، وقوتها الكبيرة التي تجذبه إليها، وفي المقابـل تلك الحسرة الهائلـة التي تـصاحبه عندما يستفيق على صوت النيران المضطرمـة، وزفيرها لدلالة على كثرة ما يحتـرق مـن أجساد، فذلك اللحم والعظـم المشكـل للجسد المحترق يحدث أصوات على شكل انفجارات صغيرة، وترتفـع هـذه الأصوات كلما كان هناك المزيد من تلك الأكوام المرمـات فـي النار، والتي بدورها يزداد لهيبها وتضطرم أكثر فأكثر.

وربما هذا هو المصير الذي ينتظره إن فارقت روحه جسده وأعلنت عن نهايته في هـذا الوجود شاء ذلك أم أبي، ويأتي ترديد كلمة (الحمل) لتدل على نقله من الحياة الدنيا إلى المـوت تقبل ذلك أم لا؛ فالحمل هو نقل الشيء من مكان ووضعه في مكان آخر سواء كان ذلك الفعـل بمحض إرادة الشخص أو مجبرا مكرها على ذلك.

يقول القفصي:

ومـا الدهر إلا ليلـة بعد يومها	**ونجـم تـراه طالعا ثم آفلا**
وقرن جديـد خلف قرن ودولة	**تعاقـب أخرى لا يزلن شواملا**
فلوصح لي عقلـي بما أنا واصف	**لبـت وجبنـي لا يمل قلاقلا**
ولو صح لي عقلـي لحزت خلائقا	**أباري بهـن الصالحين الأفاضلا**
ولو كنت من داري على كنه علمها	**وقـد ذوقـت مني اللهاة حناظلا**

لأعرضت عنها حين أولت إساءة	**وجازيتهـــا بالصاع صاعا مكايلا**
ولـــو أن لي قلبـــا يعي لتقطعت	**علائـــــق دنياني فبتن زوائلا**
ولـــو أن لي سمعا لقد أسمع البلى	**ليـــت منـــه المنذرات العواذلا**
ولـــو أن لي عينـــا ترى ما بدالها	**لأجرت بنحري من دموعي جداولا**
ولـــو أن لي نفســـا على عزيزة	**لكسبتها تـــلك الكسوب الأماثلا**
ولـــو أن لي أنفـــا حميا لحاد بي	عـــن الرق للدنيا علىالعتق مائلا
ولـــو أن لي رأيا يعـــاش بمثله	**تخيـــرت أحـــوالا به ومنازلا**
ولـــو أن لي سعيا جميلا لمال بي	**إلـــى الكد حتى يترك الجسم ناحلا**
ولـــو أن لي أدنـــى حياة لهدني	**وداعــــــي أترابا وخدنا مواصلا**
ولـــو أن لي حسا لأحسست للبلى	**دبيب بجسمـــي قد أحال الشمائلا**
ولـــو أن لي حزمـــا لأعددت جنة	**بهـــا أتوقـــى الحادثات النوازلا**
مـــن البـــر، إن البر للمرء معقل	...................................[456]

هناك تكثيف لأسلوب التمني واحتشاد لهذه البنية، فالمطلوب هنا هو الخلاص مما فيـــه، بما أن الحياة ما هي إلا ميلاد وموت، وقد جسدتها كل من ظواهر الطبيعية (الليالي، أيام، نجم، قرن، دول، الدهر)، والتي هي إحدى لوازم الزمن، حقيقة لو كان قد استخدم عقله قلبه وسمعه، عينه ونفسه، أنفه وحسه، واستهان بالرأي السديد والسعي الجميل والحزم لعتقته الدنيا وحـــادى عن الرق وتبيعته لها، فمخلصه لما هو فيه البر والتقوى-هذا الذي يفوق المعاقل كلها،ويقول أبو القاسم الفزازي:

وليـــس يؤدب الإنســـــان شيء	**كتأديـــب الحـــوادث إذ تدور**
فكـــل مؤمل أمـــل طويـــل	وعمــــر لـــــو تأمله قصير
عجبـــت لفتنـــة أعمت وعمت	يقـــوم بهـــا دعـــي أو كفور[457]

---

[456]- المالكي، رياض النفوس، ج2، ص274.

لا شيء يجعل الإنسان يفتح عينيه ويعي الوقائع، وما يدور ما عــدا صــروف الزمــان وتقلبها، فالإنسان يرغب في الحصول على كل شيء في المقابل عمره لا يكفيــه لتحقيــق كــل أمانيه، بما أن الخلود من المستحيلات...، ومن ضمن هذه الآمــال اختفــاء جــور الفــاطميين وسلطتهم وسطوتهم، ففتنهم عمت وطالت الكل، وهذا لم يستوعبه عقله وقلبه، فجــاء التكــرار ليوحي بالضغط الذي يعانيه الشاعر من المعاني الذي جاءت مكررة، وما لجوءه أيضا إلى الغلو والمبالغة إلا تعبيرا عن انفعال قوي وعاطفة شديدة يشعر بهما فهو متأثر بأملــه أشــد التــأثر، ومتعلق به غاية التعلق فمواجهته لا تدرك، فليس له أن يطمع فالوصول إلى قهر الشعية أكبــر منه ومن قدرته،ويقول أحمد بن أبي سليمان:

سألـــبس للصبـــر ثوبا جميلا　　　وأفتـــل للصبـــر حبـلا طويلا

أصبـــر بالرغـــم لا بالرضـــا　　　أخلــــص نفـــســــي قلـــيلا قليلا[458]

مفتاح ما هو فيه ومخرجه منها هو الصبر، فمن صبر نجا مــن محنتــه، وإزداد بأســا وصلابة، وهو يدل على قوة الإنسان المعنوية وثباته، وكذلك على إيمانه العميق بالله، ورضــاه بقدره، وعلى رجاحة عقله، وتحكمه في زمام عواطفه.

وقد وظف الشاعر كلمة الصبر ثلاث مرات في النص: "الصبر الصبر، أصــبر" وذلــك يدل على الأهمية العظمى التي يوليها الشاعر للصبر، ومدى إلحاح الموضوع عليه نفسيا.

فالصبر على الخطب والمحن أمر يدعو إليه العقل السليم الراجح، لأن الصبر يهونه وإن عظم، ويسيره وإن صعب ويجعل خسائر أقل، أما الجزع فيهين النفس ويذلها ويروعها يهــول ويعظم الخطب ويعمق الإحساس به؛ والإنسان يوظف هذا السلاح الفعال للخروج من المــآزق والمكاره في حال أصلب وأقوى فمصائب الحياة كثيرة ومهونها الصبر لأنــه مفتــاح الفــرج، وتكرار كلمة (قليلا) مرتين يؤكد أن الخلاص لن يكون سهلا ويسيرا،وقال أيضا:

لئـــن كـــان المشيــب أتى نذيرا　　　فإنـــي ســـوف أدعوه بشيرا

فأهــــلا بالمشيب لنـــــا لباســـا　　　وقــــارا ستزيـــد لـــــه وقارا[459]

---

[457]- ابراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص267-268.

[458]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص193.

[459]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص199.

تكرار (المشيب) إبداء الشاعر اتجاهه واضمار ما في النفس، فلطالما الشيب تحكم في الإنسان وسلب نظرته منه واللهو والسرور، وما يزال فقد أثر في الشاعر وإن أصبح اليوم في هذه الحال، فهذا من حسن حظه أن أدرك الحقيقة التي لطالما غابت عنه، فهو غير آبه لظهور الشيب وإنما هو سعيد لذلك، لكشفه الحقيقة التي كانت مغطاة، والتي أغفل عنها، وله أيضا:

وكنـــت قريبا إذا دعتني ابن عمها   فلمــا دعتني عمها كنت مبعدا

رأيـــت حليم القوم فيهم مقدما   و من نال علما نال جاها وسؤددا[460]

تكرار عمها يوهم بالاشتراك في المعنى، والواقع أنه مختلف متباين فهو يعمد إلى هذا التشكيل ويصنعه، ووظف للتأثير في المتلقي ويشده إليه ليشاركه، وهو أيضا كشف لهواجس الشاعر وبؤر الاحساس لديه، فلعبت دورا في إبراز المعاني التي تلح على ذهن الشاعر، لفعل الزمن به.

فجاء النص مشبع بالمرارة التي يتجرعها وهو صابر، وتتجلى ظاهرة الحزن في ثنايا النص ومصدرها "فقدان العلاقة التي تجمع بين ما تريده الذات، وما هو موجود على أرض الواقع، وأن هذه المفارقة في نظام الوجود تبدو للشاعر أشد ما تكون حدة، وهي تنعكس بدورها على نفسه فتسبب للذات عذابا مضنيا"[461].

فنراه يصرخ بملأ في وجه المغترين بالدنيا، فهو يظهر جانب من جوانب انبهار الإنسان بمفاتنها وتسخير العلماء العلم لنيل الجاه والسؤدد وهذا ما يدفعه الوقوع في براثينها وهذا ما لم يستسغه فتأججت أعماقه بالغضب اتجاه هذه الفئة من البشر، فكان الشعر بذلك إسقاط للذات وتصوير لأعماقها الثائرة،ويقول عيسى بن مسكين:

لعمـــرك يا شبابـي لو وجدتك   بمـا ملكـت لأرتجعتـــك

ولـــو جعلت لـــي الدنيا ثوابا   ومـــا فيهـا عليك لما وهبتك

فقدتــك فافتقدت لذيـــذ نومـــي   وطيـــب معيشتـــي لما فقدتك

---

[460]- القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص274.

[461]- عز الدين إسماعيل، الشعرفي إطار العصر الثوري، دار القلم، بيروت، لبنان، 1974، ص176.

ونحتك وانتحبت عليك دهرا فلم تغن النياحة حين نحتك[462]

تكرار كلمة (لو) مرتين والفقد ثلاث مرات (فقدتك، افتقدت، فقدتك)، والكاف مرتين في كل بيت من هذه الأبيات، والنواح أربع مرات (نحتك، انتبحت، النياحة، نحتك).

حرف الكاف الدال على المخاطب يجعل الفقد والنياحة حاضرة ماثلة، وهي تقريع في كل مرة.

ما دامت الأوضاع هادئة، فالذات ما تزال تتحمل العذاب، ولا تملك إلا التمنى سلاحا بيدها فتتمنى أن يزول هذا الشيء فتفترض إمكانية استرجاع الشباب فسترسل في الخيال والتخيل ماذا لو تحقق ذلك ماذا ستفعل، فنراه ينوه بفترة من عمره الإنسان، ويرى أن حسنها لا يضاهي ونضارتها لا تماثل، فهي مرحلة الطموح والعمل وتكوين الذات، وإذا ما انقضت هذه المرحلة من عمر الإنسان فإن اللذة تقل والإحساس بالحياة يذوي، فلا نعلل النفس بأن لكل مرحلة من عمر الإنسان لها ميزاتها ونظارتها لأنه لا مثيل لروعة الشباب، فيصور لنا فزع الشاعر إلى البكاء واكتشافه بعد مدة من أنه لا ينفع شيء إنما هو دلالة حزينة باكية تعمق مأساة الشاعر أكثر ما تفرج كربه وتوضح عجزه التام وضعفه الشديد أمام خصمه الذي يواجهه ولن يتركه غلا بعد أن يقضي عليه، يقول سحنون:

لمنزلة الفقيه من السفيه كمنزلة الفقيه من السفيه[463]

يحث البيت عن التعلم والبحث واكتساب المعارف لأنه بفضل ذلك يتحقق الإدراك والوعي وتزول النقائص والإبهام وتشرق وتكمل أما من نأى عن العلم والعلماء فإنه يبقى ناقصا فالنفس تصقل بالعلم الذي يزيل الشوائب عنها فتبدو نظيرة مشرقة عكس الجهل والجاهل، وشتان بين هذا وذاك،و يقول عبد الله بن غانم القاضي:

سيعرض عن ذكرتي وتنسى مودتي ويحدث بعدي للخليل خليل[464]

إن هذه التعابير القاتمة وعوالم الموت التي يتحدث عنها إنما هي صدى لذاته المتصدعة أفرزت هذه الدقة في الإحساس والتعبير عما يرى وما لا يرى فهذا الاستسلام للمصير القاتم

---

[462]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص175-176.
[463]- القاض عياض، تراجم أغلبة، ص129.
[464]- المصدر السابق، ص19.

الذي يبدو في النص ما هو إلا دليل على شغف الشاعر بالحياة التي أحس بانفلاتها منـــه، فهــو يجمع زمن حياته ويكتشف أنها ماضي عاشه ولم يشبع منه، وحاضر غير مضمون، وغــد لــم يلده الليل ما دام الحاضر لم يحضر فيه المستقبل فيتلاشى عنده الغد ويتعاظم معه شعوره باليأس ذلك الغد الذي ينسى ذكره ومودته من طرف خلانه،ويقول محمد بن حمزة الربيعي:

المـــوت لا بـــد آت فاستعد لـــه إن اللبــيب بذكــر الموت مشغول[465]

نستشف من تكرار الموت في هذا البيت شدة المعاناة التي هي انعكاس للعجز الذي يعيشه نفسيا، وأمام هذا الواقع الحزين لا يملك إلا أن يصارع الحياة مفتشا عن نفسه الضائعة في سديم الكون ووسط بؤس حقيقي يعيشه الشاعر.

فتلك المخاوف التي يبثها والتساؤلات المطروحة تضفي نوعا من العجز واليأس الذي بدأ يعيشه، ولم يكن بوسعه تفاديه، وما هذه الصورة إلا تنفيس عن النفس العليلة القلقة والمسكنة لها ولمواجعها،يقول أبو الأحوص:

أبـــو أن يرقـــدوا الليـــل فهـــــــم لله قـــــوام

أبـــو أن يفطـــروا الدهـــر فهــــم لله صــــوام

أبـــو أن يخدمـــوا الدنيـــا فهــــم لله خـــــدام[466]

تكرار "(أبو أن) ثلاثة مرات وكلمة (فهم لله) بنفس العدد لدلالة على أن المقاومة شديدة جدا من طرف هؤلاء اتجاه الدنيا والدافع هنا قوي جدا أيضا، وهو جعل أنفسهم رهن للخالق دون غيره لكسب رضاه ومحبته، ولا يتأتى ذلك إلا بالزهد فيها والإكثار من العبادة والتفرع لها"،

وفي هذا السياق يقول حميدس القطان:

بيـــــد الله دوائـــــي الـــذي يعلـــم دائـــي

إنمـــا أظلـــم نفســـي باتباعـــي لهوائـــي

كلمـــا داويـــت نفســـي غلـــب الـــداء دوائـــي[467]

---

[465]- المصدر نفسه، ص328.

[466]- المصدر السابق، ص 303.

[467]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص176.

هناك تلاعب لفظي بكلمتي الداء والدواء، بحيث نرى تكثيف لدلالتها، وذلك للتأثير في المتلقي وشده إليه ليشاركه في لعبته اللغوية وإضفاء عنصر المفاجأة بما يصادفه المتلقي من مفارقات من جهة أخرى.

وهذا الحضور المكثف للدواء والداء ما ذلك إلا دلالة على الحضور المتميز والمستمر في عمق الشاعر، فهو متوكل على الله في شفائه إن أصابه الداء وإن أعمل في استخدام واستحضار الأودية اللازمة لن نكون له ذلك إلا بمشيئتة الله وحده فقط،يقول أبو عثمان سعيد بن حداد:

فإن لم أنل دنيا فقد نلت همه   تنزه نفسي عن دني المطالب[468]

الشاعر بشعره المرهف يحس بقسوة الحياة على الذات ووطأتها فهو يشعر بعبثيتها، فنما هذا الشعور وتبلور فوعاه، وعيا كاملا ابتداء من إغراءاتها إلى مراوغتها ومكرها وخداعها، وبذلك تحول إلى صوت ينادي بضرورة التغيير والثورة على هذه الأوضاع نتيجة الانقباض والألم الذي أصابه كأن يكون ذلك من جراء خيبات الأمل فكان لا بد من وضع حد لهذا في تكافئ بين الحياة والموت، وأصبح من الضروري أن يكشف عن أذرع الأخطبوط التي تطبق على أنفاسه وتكاد تخنقه، وإذا تصفحنا النص نجده يستهجن التهافت على الدنيا ويمقتها ويدعو إلى الابتعاد عنهاكما هو واضح أيضا في هذا النص :

ما ارتكابي السعي لبسط وزق   لالا الخفض قاطعي عن نصيب

أراه كأن عيني لا تراه   أعرض عنه أعراض الملول[469]

وله: يمنعني من عيب غيري الذي   أعلمه من العيب

إذا كان عيبي غاب عنهم   فقد أحصى ذنوبي عالم الغيب[470]

468- القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص361.

469- المصدر السابق، ص361.

470- المالكي رياض النفوس، ج2، ص107.

تكرار حرف النفي (لا) دلالة على أن الخفض ينفي الدوال الأخرى، وهو تكريس لواقع الذات وما تواجهه من معاناة لترك الشعر وطلب الرزق، وله في ذلك همة يتيها بها على أهل الدنيا.

ثم نرى كلمة العيب على الظهور، فانشغال بعض الناس بتتبع عورات غيرهم ونسيان من فيهم من عيوب يحسب عليهم وليس لهم، فقد نسوا أن هناك رقيب على كل شيء وهو الله الذي يعلم ما تظهر وما تخفي السرائر، ومن كثرت عيوبه زادت همومه ومشاكله ومخاوفه من نتائجها، لذلك نرى الشاعر نسب العيوب إلى نفسه بإلحاق ضمير المتكلم (الياء)، وهي تفريغ له على تغافله وانشغاله له بأشياء تافهة أصبحت الآن تؤرقه فأصابه بذلك الجزع من عقاب الله عز وجل،

وله أيضا:

ما زلت من حادثات الدهر معتجبا	**حتى انقضى عجبي بعد الثلاثمائة**
لا بارك الله في عام وفي سنة	**كانت لشر زمان كان مختبئه**
عادت أسافله طرا أعاليه	**ولا أعالي إلا وهي منكفئة[471]**

يشكو الشاعر الدهر وصروفه ونكباته فهو قوة لا تقهر فلا يستطيع الشخص أن يطوعه لصلاحه لذلك نراه يذمه ويهجره لأنه يرفع الصغير، ويحيط الكبير، ولا يحترم القيم.

ويذكر الشاعر الزمن بالدهر والعام والسنة والزمان لكننا نراه يوظف كلمة الثلاثمائة، وهو يعنى في هذا السياق الزمن المنسوب إلى الحياة التي يعيشونها فهو محدد وليس مطلق، ولذلك فالذم والدعاء عليه مقترن بهذا العصر الذي يعيشه الشاعر.

ينهي الشاعر أبياته بنبأ عظيم هو كارثة على القلب وقلب الموازين، وعبث في سنن الكون المنتظمة ذلك هو علو شأن الصغار، فأي زمن هذا الذي يرفع الحقير الوضيع ويضع الماجد الكريم، والخبر ساقه الشاعر مشحونا بالتعجب والانكار في البيت الأول وجاء البيت الثاني ليتوج ذلك بدعاء على العصر بالزوال والهلاك وفيه سخط ونقمة وذم كبير، لا شك بأنها فكرة إنسانية تكشف عن غربة الشاعر في عصره، لأن الإنسان جزء من حركة الدهر وهو منقاد لمشيئة مجبر على تقبل سريانه لا يستطيع التبديل والتغيير،وقال أيضا:

---

[471]- المالكي، رياض النفوس، ج2، ص110-111.

كــم عساني أعيش كم كم عساني كــــم عساني أبقى على الحدثان

بعـــــــد سبعيــــن حجة وثمان قــــد توفيتهـــــا مــــن الأزمان

يـــــا خليلـــــي قددنا الموت مني فابكيانـــــــــــــي هديتـــــــما وانعيانـــي[472]

نظرا لما في الزمن من مصائب وهموم راح الشاعر يبدي تــذمره ويجــأر بالــشكوى، فالدهر يرفع الأسفل وينزل الأعلى فينعكس القيم ويقلب الأوضاع السليمة، فينطــق بــذلك فـــي الحكم على الدهر من خلال تجربته الذاتية يعممها ويسوقها في شكل نظرة صائبة.

وما تكرار (كم عساني) لدلالة على عجزه أمام الدهر، فهو يجهل ما يخبئ له الزمن وكم سيمهله من مده ليوجه له ضربته الأخيرة، إنه لا يؤمن له جانب فقوته جبارة وطاغية ســتدفعه ولو كره إلى مصير لا يرضاه ولا يحبه، فكل ما فيه من مصائب وشقاء هو المتسبب فيما هـــو فيه، لذلك نجده يحذر غيره من تقلباته ويدفعهم إلى مثل ما هو فيه وهـــو الاستــسلام لقــضائه وتكرار الضمير (الياء) يشير إلى أن التجربة خاصة بالشاعر، فهو يدعو أحبابه بعد موته رثاؤه وتخليده بالكلمة الطيبة في هذه الحياة التي عجز في الواقع على الرغم من تعميره فيها طـــويلا في تحقيق خلوده الجسدي، ومن ثم لم يصل إلى غايته المنشودة لكن تفكيره في تخليده بالكلمـــة الطيبة بعد فنائه هدأ من روعه وجعل نفسه تطمئن وخلق فيها ذلك التـــوازن الـــذاتي العـــاطفي والعقلي فركن للاستسلام لقضاء الدهر والموت،ويقول سهل الوارق برثيه:

حياة الفتى ما عاش بؤس وحيرة ومــــر الليالي قــــد يستر ويفجع

كــــأن خطوب الدهر بيني وبينها سوالف ثــــأر فهــــي بـــي تتوقع

لقــد كنت جلدا في النوائب صابرا على حادثات الأيــــام مـــا تتضعضع

فــــإن العــزا والصبرا يوم فراقه ومن فارق الأحبــــاب يأسى ويجزع

وبـــان اصطباري عن حبيب فقدته فكيــــف ومـــــا للصبر فـــي القلب

تجــرع كأس الموت وهي كريهة فمالـــــي بكـــأس الحزن لا أتجرع

يؤرقني طيــف لعثمـــان زائـــر إذا هجــــــع النــوام يسري وينزع

يؤرق عيني من لذيذ غموضهـــا فليــــــس لهـــــا إلا سهاد وأدمع

عجبت لنفسي بعده كيف لم تمــت وما بحيـــاة بعـــــــد إذ مات أصنع

472- المصدر نفسه، ص110- 111.

فلو كان شيئا كان <u>يفدي</u> <u>فديته</u>	**وهيهات ما في <u>الميت</u> <u>للحي</u> مطمع**
<u>أريحانة</u> قد صرت <u>ريحانة</u> الثرى	**فأضحى البلا في جسمك الغض يسرع**
ألا يأبى الغصن <u>النضير</u> الذي ذوى	**فعيني على تلك <u>النضارة</u> تدمع[473]**

شغل موضوع الحياة والموت الإنسان منذ العصور الغابرة ولا يزال يشغله وعبر عن هذا الانشغال بصور متعددة من بينها الشعر، فكان للشعراء المغاربة نصيب من ذلك بحيث نظروا إليها وعبروا عن ذلك بطريقة جميلة تنم عن رقي فكري صاحبه إحساس مرهف رقيق ونظرة ثاقبة فجاءت أشعارهم تعبر عن تجربة خاصة استمد قوتها من واقع الإنسان وحياته المعاشة، وفي الوقت نفسه تعبر عن ذوات الآخرين.

وحينما يقف الإنسان وجها لوجه مع الموت ويشعر بضعفه وعدم حيلته أمام هذه القوة الغيبية القاهرة يفزع ويهلع وتطير نفسه شعاعا يخلع فؤاده، وترتعش أوصاله ويتمسك بالحياة بقوة، ولكن هيهات، وعن لحظة المواجهة بينه وبين الدهر يحدثنا الشاعر بأنها سوالف ثأر.

وينسب إلى الدهر (مدة الحياة الدنيا كلها) المصائب والمحن، فقال خطوب الدهر، النوائب حادثات الأيام، ورأو فيه القوة والطغيان والسرمدية والدمار قال تعالى: "ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر"[474].

فهو يفني ويبيد ويدمر الحياة، ولا يبقى معه شيئا، حتى سعيد بن الحداد كذلك نراه يشخص الصبر بأنه شخص خائف وجزع، فالموت أمامه صغير ووسيلة من وسائل الدهر، فالنفس تدرك أن خصمها قوي عتيد وأنها ضعيفة هينة أمامه، لذلك يدعو ويحث نفسه على الصبر والثبات والمواجهة لفقد سعيد بن الحداد إلا أنه أصابه الجزع والأسى والحزن على فقده.

وتكرار كلمة (الفراق، فراقه، فقدته) ثم الصبر (جلدا، صابرا، الصبر، اصطباري) لدلالة على معاناة الفقد وتكلفه الصبر (اصطباري)، ثم نراه يتساءل ويتعجب لتقبله فكرة الموت واستلامه للقضاء والقدر في المقابل ذلك لم يستسغ فكرة فقدان عزيز، فتكرار كلمة التجزع والكأس لدليل أن تقبل فكرة الموت كان شيئا فشيئا، ولم يكن ذلك دفعة واحدة، كما يرتشف الشخص ما في الكأس سواء كان ماء يحييه أو عسلا ممزوجا بالسم يقتله.

473- المالكي، رياض النفوس، ص112-114.

474- سورة الجاثية، الآية 24.

تكرار (ليؤرقني) يوضح أن فراقه شيء ليس بالهين عليه، فعدم تقبله لذلك جعله يتخيل وجوده، فهو يزوره كلما غفا النوام، فقد انتزع منه الراحة فأضحى ساهرا قائما طوال الليل لا يمتع بلذيذ النوم، فتكحلت العيون بالدموع المنهمرة حزنا وتفجعا عليه.

ثم يعاود ومرة أخرى التعجب لبقائه حيا بعد موته ثم نراه يمني نفسه لو كان هو المفقود وليس سعيد بن الحداد، لكنه يدرك الحقيقة أن للميت لا رجعة، فخلود الإنسان أمر مستحيل.

ثم استهل الكلمة المكررة ريحانة بالهمزة (أ): وهي نداء القريب للدلالة أنه قريب منه، مستقرة في قلبه بالرغم من ابتعاده عنه، فقد صار في الثري وما حزنه وجزعه إلا على فقده وهو في ريعان الشباب، فتكرار كلمة (النضارة) تدل على المفقود مازال في إشراقه.

ويقول بن زرزر الفارسي:

وأيقن المشرك الداعي له ولدا بأن الله لم يولد ولم يلد

وفي الخلود نعيم غير منصرم باق بقدرته باق بلا امد[475]

تكرار الولادة (ولدا، يولد، يلد) يعرض الشاعر بالضال الذي ينسب إلى الله أبوة أو بنوة.

أما تكراره للبقاء [باق، باق] يؤكد أن ثم نعيما سرمديا أعده لأهل الطاعة،،ويقول أبو عقال:

ولا تله بالموبقات التي أبادت بوائقها من تمادى

[475]- إبراهيم الدسوقي، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 141.

إلـــى أن تناهــت حدود القضاء	**وانفـــذ سلطانـــــه مــا أرادا**
فجلــى القلـــــب إظلامـــــه	**وأنـــــور مــا كان منه سوادا**
وأسقطـــــت لومي عن العالمين	**فمـــن شاء ودّ ومن شاء عادى**
فمـــــن دام دمت له في الوفاء	**وزايدتـــه أبــــدا ما استزداد**
ومـــــــن تاه تهت بهن لا يذل	بــــه مـــن أعز ولا من أسادا
فلـــــم أر عيشا كعيــش القنوع	**ولـــــم أر مثــل التقــي لــي مرادا**[476]

يخاطب الشاعر من يأمل صفوا العيش ويرى أنه على صواب فيقرعه ويصفه بالــضال وكل من يتوقع بقاء صفوها، ويؤمل دوام خيرها وعزها فهي لا تلبث أن تظهــر لــه المحــن وتتعس من أسعدت، وتبعد من قربت.

وما هذا إلا تصور سلبي أسود للدنيا وتشاؤمها قاتما غطى كل ما فيها من حسنات، حتى أعطياتها صارت سلبية، وفيها انكسار وضعف وخنوع، فتراه ينهاه على مواصــلة فــي غيــه، ويتضح اليأس والألم والأسى من خلال الحكم أن كل ما يقوم به "موبقات" وتزداد نظرته ســوادا وتصوره قتامة، ويأسه من الدنيا قنوطا عند حديثه عن إهلاك وإبادة بوائقها كــل مــن يــسعى ورائها.

هكذا كان هو أيضا إلى أن انقشعت تلك الغشاوة من على عينيه وقلبه وهدأ من روعــه وحل محل ذلك التوافق والتوازن فانتزع بذلك كل ما علق من حب الدنيا وشهواتها وزهد فــي كل ما فيها، فاستبدل الظلام والسواد بالنور والجلاء (الوضوح) فعاد بعد ذلك لا تهمــه أمــور الدنيا كثيرا، وأصبح لا يعاتب الآخرين عليها لذلك فلهم حرية الاختيار في وصــله أو معادتــه فذلك يتوقف على مشيئتهم.

أما تكراره (دام، دمت) دلالة على أنه كان اجتماعيا ألوفا يجد صعوبة في اقــتلاع هــذه العادة، فهو يزيد كلما استزاد في وصله.

وكان سلاحه على تحمل أعباء الحياة التقوى والقناعة لذلك نراه ينفي رؤيته لحياة أفضل من حياة القانع بما وهبته فلا يفرح أو يسخط وزاده هو التقوى (فلا شبيها بالتقوى كزاد للدنيا).

---

[476]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص200-202.

يبدو في هذه الأبيات التكرار واضحا مما يدل أن الشاعر صانع ماهر متفقه في اللغة يصرف شؤونها وينوع تشكيلها،ويقول أيضا:

عقـــدت عليـــك مكمنات خواطر   عقــــد الرجاء فألزمتني حقوقا[477]

أصبحت كل خواطره لها صلة وثيقة بخالقه كيف ينال رضى الله ومحبته وقربه ويبتعد عن ما يبعد عنه، وهذا أيضا مقترن بأمله في عفو الله ورحمته ومغفرته،يقول في هذا السياق أيضا:

لاح المشيـب بلمتي فنعانـــي   ونفـــى الصبـا عني وذم عناني

وناءت خطوب الحادثة بأسرتـــي   فبقيـــت منفـــردا مـــن الأقران

فلئن مضى صدر الزمان بصـفوه   فلأخدمـــن لسيـــدي المنـــان

ولأقعطن علائقـــي مــــن غيره   حتـــى احــــل بساحة الميدان

ولأنفيـــن مطامعـــي وملابسي   ولأمنعـــن مــــن الكلام لساني

ولأهجـــرن أحبتـــي ومعارفي   ولأقطعــــن عـــصابـــة المجان

ولأبكين علـــى الـصبـــا ولمـا مضى   مــــن غرتـــي فـــي ســـالف الأزمان[478]

لعل أهم ما يميز هذه الأبيات العطف المتكرر فقد وظف الشاعر واو العطف ثمان مرات، فقد أفاد التنسيق والجمع لما يعد به من أعمال في المستقبل القريب، فبهـذا يكـون قـد استطاع أن يثري الدلالة من خلال تمكنه من تكثيف الصور وتنويعها وتلوينها وبالتالي إعطائها بعدا متلاحقا من الصفات،وهذا ما يظهر أيضا في هذا النص :

---

[477]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص200.
[478]- المصدر نفسه، ص203

لئـــن عرف الاخوان عنـــي نزاهة وخلفنــــــي عنهـــم نصيبهم من الفقر

لقد سرني أني خلي مـــــــن الذي أضاعوه من حقي ولو كنت في الأسر

سأرعى لهم ما هان مني عليهــم و أحمل نفسي في الجفاء على الصبر

عليهـــــــم سلام الله مني رسالة مقسمــــــة بيـــن التواصل والهجر

فقمــــــــت علـــــى صول الزمان مفكــر بأربعة أنبت فيها على الصبر

فقــل لحصون الغرب طرو مـــن بها أبحتكـــــم حظـــــي من البر والبحر

يقارعنـــــي من شاء منكم بعيشة معينة الأوقــات ظاهـــــــرة علـــى الستر[479]

سجل الشعر عبر مسيرته الطويلة كثيرا من القيم الأخلاقية التي يتبناها المجتمع فسار الشعراء في المغرب على درب الشرق في موضوع الحكمة الأخلاقية التي تدور أغلبها حـول الصداقة والأصدقاء، وبعض القيم الحميدة كالصبر والعمل والطموح المـشروع...وهـا هـو الشاعر يتحدث عن الأصدقاء وندرة المخلصين والأوفياء منهم، لأن أغلب الناس لا يتمتعـون بذلك. وتتواطد الصداقة والأخوة متى تقاربت (الأرواح وتجاذبت إلى بعضها البعض، واتفقـت وتآلفت قلوبهم، وتتنافر وتتباعد متى اختلفت فالأرواح جنود مجندة فما تعارف منهـا ائتلـف وما تناكر منها اختلف) [480].

3- تكرار المد (الأصوات الطويلة):

إذا حاولنا الوقوف على هذه الظاهرة من خلال النصوص الشعرية و التي لهـا علاقـة وطيدة بالحالة النفسية للشعراء فانه يمكننا التساؤل عن الأهمية التي تمكن في شيوعها بين ثنايـا العمل الشعري.

آنذاك يتبن أن لهذه الأصوات صلة بالخلفية النفسية للشاعر فهي تمكنه من إخراج زفراته القلقة والحزينة كاملة فهي في شعر سابق مثلا ترد في المتن الشعري وفي آخر الشطر (القافية) ويمكن إيضاح ذلك من خلال النص الشعري المأخوذ من قصيدته التي يقول فيها:

---

[479]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص203-204.

[480]- مسلم بني الحجاج بن مسلم، صحيح مسلم، البر والصلة والأداب، باب الأرواح جنود مجندة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ص449.

نلهـــو ونأمـــل أيامـــا تعد لنا سريعــة المــر تطوينا ونطويها

كـــم من عزيز سيلقى بعد عزته ذلا وضاحكـــة يومـــا ستبكيها

وللحتيـــوف تربــي كل مرضعة وللحساب برى الأرواح بـــاريها

لا تبرح النفس وتنعى وهي ظاعنة حتى تقيم بواد غيـــر واديها

أموالنـــا لذوي الميراث نجمعها ودورنـــا لخـــراب الدهـــر نبنيها[481]

فأغلب ألفاظ النص يغلب عليها طابع المد الصوتي وهو ما يسمى بأصوات المد الطويلة التي يتألف منها البناء الموسيقي بفعل انتظامها في وحدة إيقاعية، تتفـاوت فـي الطـول عـن الأصوات الساكنة.

وهي أشد الأصوات وضوحا في السمع ولو قارناها بالأصوات الأخـرى، يكـون أشـد وأعلى رنينا، ومن ثم يكون له وقع في النفس كما هو واضح عند أبو عقال، في الـنص الـذي يبتدئ مطلعه:

لا ح المشيـب بلمتـــي فنعاني ونفـــى الـــصبا عنـــي وذم عناني[482]

يعد الصوت الطويل أعلى درجة في الوضوح السمعي من غيـره، وهـذا لـه علاقـة بالاضطراب الذي يعيشه الشاعر، حيث أن الصوت الطويل له القدرة فـي إخـراج الـشحنات الوجدانية كاملة، فكلمات (الأقران، المجان، الأزمان، الأشجان)، هي مفـردات تعكـس قتامـة الحالة النفسية للشاعر، وقد جاءت في النص على شكل جموع وهذا حتى توحي الكثرة بتكـرار الفعل والحركة.

وعلى هذا النحو يؤدي الإيقاع الداخلي دورا هاما في تعميق الإيقاع النفسي، وفي خلـق نغمات وإيقاعات أخرى تتوازى مع الإيقاع الخارجي للقصيدة.

وخلاصة القول فإن النصوص المغربية لا تختلف عن بقية الأشعار المغربية من حيـث المستوى الفني والفكري والوجداني، ولعل في هذه الأشعار من الصور ما يتضمن قـدرا مـن الإبداع والعمق الفكري والعاطفي،والإيقاع الموسيقي المتجاوب مع الأجواء النفـسية المختلفـة مما يجعلها جديرة بالكشف عن مستوى أصحابها الرفيع في تجاربهم الشعرية الزهديـة التـي

[481]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 7

[482]- العربي دحو، الشعر المغربي، ص203.

جاءت تنبض بالأحاسيس والانفعالات وتتوشح بالعواطف الإنسانية المعتمدة على اللغة الــشعرية الإيحائية والصور الفنية المشخصة للخيال الإبداعي والإيقاع الموسيقي التعبيري ، وكان الهدف من وراء ذلك كله الإفادة وإيصال الأفكار بيسر للمتلقي، بالإضافة إلى قيام تجــاربهم الــشعرية على الإكثار من المعاني والأفكار المستلهمة من عقولهم الراجحة في ظروف وأحداث ذاتية أو اجتماعية أو فكرية مذهبية.

الخـــــاتمة :

وصلت مقارباتنا الاستكشافية في أشعار الزهاد المغاربة الأوائل إلـــى آخــر ملامحهـــا الموضوعاتية والفنية ، وهذا بعد أن بقيت كثير من مفاصل هذه النزعة الـــشعرية ضـــبابية أو رمادية من جراء تشابه شخصياتها الشعرية الزهدية وتشابك نصوصها ،أو غيابها أو لملمتهـــا من شظايا وبقايا شعرية مبعثرة هنا وهناك ،ولكن إصرار الباحث وطمعه يبقيان على بصيص الأمل لميلاد دراسة لعلها تستكمل خلقتها وتتجاوز عاهاتهـــا بعـــد أن تمـــدها أقـــلام الكـــشف والاستكشاف المنهجي مما يجعلها قابلة للحياة في عالم المعرفة الأكاديمية ،ومن هذا المنظـــور فإن قارئي هذه المقاربة في صيرورة فصولها ينتظر بعض النتائج ،ويمكن أن نجملها لـــه فـــي الآتي:

1ــ يلاحظ بأن البنية الشعرية المغربية لن تكتمل إلا بالكشف عن هذه النزعة المتجـــاوزة فـــي هويتها التاريخية لأي لون سلطوي سياسي لأنها تمثل البنية الحيادية في عقيدتها السياسية ،ومن ثم فإن التأريخ لها سيكون فكريا روحيا فنيا محضا ،ولا يمكن أن نلـــصقها بـــاللون الـــسياسي للدول وتاريخ نشوئها وزوالها أو عقيدتها المذهبية .

2 ــ يلاحظ بأن الشعرية المغربية كانت في تأسيسها قرآنية إيمانية روحانية ،لأنها حملتهـــا إلى المغرب صدور الصحابة والتابعين والمجاهدين والمرابطين والنـــساك والعبـــاد والزهـــاد والدعاة والفقهاء ،وهؤلاء كلهم امتلأت حناجرهم قرآنا قبل أن تمتلئ شـــعرا ،وهـــي إحـــدى خصوصيات المغرب الإسلامي التي كانت تنشد أشعاره ألسنة رطبة بآي القرآن .

3 ــ يلاحظ ترابطا وثيقا بين الشعر العربي بنزعته الزهدية وبين الحياة الروحية في الإسلام فهذا الشعر الزهدي يقيم شاطئا روحيا مقابل بحر المادية الزاخر الذي اغترفـــت منـــه الفنـــون الأخرى.

4 ــ إن شعرية الزهد بوجدانياته وروحانياته شأنه شأن الأديان بوجدانياتها وروحانياتـــه ، ومن ثم فهي ابنة عقيدة وشريعة سماوية ،وفي الوقت نفسه ظاهرة اجتماعية نفـــسية وســـلوك فردي، وتعبير عن واقع معيش ، ومن ثم كان هذا التيار معاكسا للواقعية الحضارية الإســـلامية التي طغت عليها المادية عند بعض الطوائف أو الصراعات السياسية عند طوائف أخرى .

5 ــ إن هذه النزعة الزهدية رافقها شعر ذاتي غنائي غزير لكون هذا الجنس الأدبـــي كـــان مفضلا عند الزهاد فهو يتسع لنزعتهم الزهدية ، ومن ثم فقد صـــبوا فيـــه كامـــل مواجـــدهم

وقرائحهم، و انعكس هذا على عالمهم الفكري والروحي المتكامل في وسائل الأداء الفنـــي ، وبرز بصفة واضحة عند سابق المطماطي وأبو عقال، وأحمد الصواف...الخ.

6 ــ شعر زهاد المغاربة هو جزء من الشعر العربي العام في مقوماتـــه الفنيـــة العامـــة ،و لا يختلف عنه، إلا في نزعنه الزهدية الروحية القوية ،كما أنه لا تخلف عن شعر المشرق إلا في بعض الملامح الخاصة بالبيئة المغربية المعروفة بوجهتها الدينية المحافظة .

7 ــ كما أن شعر زهاد المغاربة هو جزء لا يتجزأ من الشعر الزهدي العربـــي العـــام الـــذي يشكل تيارا، لا يكاد يختلف عنه، فهناك صلة روحية قوية تربط بين المشرق والمغـــرب فـــي الروابط الأخرى ، والشاعر الزاهد المغربي استهوته حياة الصحابة والتابعين الذين اســـتوطنوا الشمال الإفريقي منذ الفتح الإسلامي للمغرب، وأعجبوا بسلوكهم العملي كما تمكنت العقيدة من قلوبهم ،فكانت أشعارهم تعبيرا عن كل هذه القضايا،كما كانوا روادا لهـــذا التوجـــه الـــشعري الجديد...

8 ــ هذا الشعر الزهدي كان سببا في تعميق اليقين العقائدي الإسلامي والاستسلام للقـــضاء والقدر،وبهذه اليقينية الإيمانية تجاوز تلك الحيرة الوجودية التي تلف معاني الشعر الجـــاهلي ومغزاه البعيد ،وغيره من الشعر الدنيوي ، وكان هذا التجاوز ناتجا عن انتـــصارهم علـــى عقدة الزمن و الموت بفضل روحانية زهدهم وإيمانهم الراسخ والدائم بشعرية الـــسماء التـــي تبث في نفوسهم روح الطمأنينة ، والصبر على الابتلاء.

9ــ لم يبقى من مدونة هذا الشعر إلا النزر اليسير ،وما وصلنا منه جاء في شـــكل قـــصائد ومقطعات ونتف وأبيات يتيمة أو من قصائد ضاعت ، وبعضها جمع في شـــكل دواويـــن أو مجموعات شعرية متنوعة.

10ــ ما زالت الكثير من كنوز هذا التراث الشعري المغربي في هذه النزعة أو في غيرهـــا بحاجة إلى دراسات وبحوث واستكشاف وتحقيق وتأريخ وإخراج ، لما لها من قيمة حضارية وثقافية وفكرية و جمالية متصلة بأدب النفوس والروح والعقل ومـــا بعـــد العقـــل والكـــوني وماوراء الكوني.

11ــ إن سابق المطماطي أول من تخصص من شعراء اللسان العربي في فن شـــعر الزهـــد ،وإذ كانت لغته يحتج بها فإن أسلوبه وإمكانياته الفنية الشعرية لا يمكن أن ترقى إلى مـــستوى شعرية أبي العتاهية فالأول له سبق الريادة والثاني له التفوق الفني .

12 ــ كانت موضوعات الزهد ومضامينه وهواجسه موزعة في الغالب على ما يعرف بالقضايا الإنسان الكبرى وأغلب هذه القضايا تمتزج بموضوعي الرثاء والحكمة على غرار الحياة والموت، والشيب والشباب والدهر والأخلاق ،و النفس البشرية ،والحرية ... ، وقد استطاع الشعراء أن يجعلوا الإحساس بالموت أصلا في كل تجاربهم الشعرية الفنية ،وبهذا التوجه أصبح الموت من أهم بواعث الشعر لديهم في توجههم الروحي السني القرآني الأصيل.

13 ــ كشفت تجربة شعر الزهد عن قيم إنسانية بعيدة عن لغة الوعظ السطحية والخالية من التجارب العميقة، فجاءت قصائدهم تفيض حرارة وصدقا تأخذ بمجامع القلوب وتهز الوجدان فتجذبها بمتعة روحية سامية.

14 ــ إن معجمه الشعري اللغوي إسلامي وتقليدي في مصادره ،ولا عجب في ذلك فأصحابه إسلاميون قرآنيون ،وهذا المنطلق يربطهم أيضا بأساليب القدماء ،فلا إعجاز قرآني دون لغة عربية مبينة ،وبهذا فقد استفاد المغربي من تجارب غيره من أمثال لبيد وزهير ، ...الخ

15 ــ إن الصورة الشعرية وجدانية في مضمونها تقليدية في تركيبتها البلاغية رمزية في دلالتها وإشاراتها ،كما نجد بعض النصوص تنفرد بالغموض الذي يجنح نحو الدين والفكر والفلسفة كأشعار أبي عقال وغيرها من نصوص القرن الثالث الهجري.

16 ــ إن أوزان هذا وقوافيه لم يأتي بأي جديد فقد اختار الشعراء لقصائدهم أكثر البحور شهرة وتداولا مثل الطويل والكامل والبسيط والخفيف والمتقارب والوافر ...الخ.

17 ــ ظل فضاء الشكل عنصر ثابت في الشعرية الزهدية المغربية ،و لا نجد فيها تغييرا كبيرا في اللغة والصورة والإيقاع ، فهو بسيط العبارة وقريب المعنى من الأذهان والوجدان، وظف ألفاظ فصيحة بعيدة عن الغريب وحوشي من الكلام ، و أسلوبه يجمع بين المتانة والرصانة حينا ، وبين السهولة والرقة حينا آخر، وبالتالي فهو مألوف في أغلب الأحيان حتى وإن باعد في العلاقة بين الدال ومدلوله المجازي أو الرمزي ،ومن ثم فهو لم يخرج عن النسق العام المعهود في القصيدة العربية .

وخلاصة هذه الخاتمة فإن النصوص المغربية لا تختلف عن بقية الأشعار المغربية من حيث المستوى الفني والفكري والوجداني، ولعل في هذه الأشعار من الصور ما يتضمن قدرا من الإبداع والعمق الفكري والعاطفي،والإيقاع الموسيقي المتجاوب مع الأجواء النفسية المختلفة مما يجعلها جديرة بالكشف عن مستوى أصحابها الرفيع في تجاربهم الشعرية الزهدية التي جاءت تنبض بالأحاسيس والانفعالات وتتوشح بالعواطف الإنسانية المعتمدة على اللغة الشعرية

الإيحائية والصور الفنية المشخصة للخيال الإبداعي والإيقاع الموسيقي التعبيري ، وكان الهدف من وراء ذلك كله الإفادة وإيصال الأفكار بيسر للمتلقي، بالإضافة إلى قيام تجــاربهم الــشعرية على الإكثار من المعاني والأفكار المستلهمة من عقولهم الراجحة في ظروف وأحداث ذاتية أو اجتماعية أو فكرية مذهبية.

و أرجو في خاتمة هذه الدراسة أن أكون قد أديت للبحث حقه ،وللقارئ حقــه وللمعرفــة حقها وللجامعة حقها وللوطن حقه ولنفسي حقها ،ولأساتذتي وبخاصــة المــشرف ولجنــة المناقشة حقها وإن وفقت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي ،وما تــوفيقي إلا بــالله و عليــه توكلت وإليه أنيب ،وهو على كل شيء قدير.

قائمة المصادر والمراجع :

القرآن الكريم.

مسلم بن الحاج بن مسلم، صحيح مسلم, البر والصلة والآداب ، باب الأرواح جنود مجندة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ج2 .

أولا :المصادر العامة :

أ ــ المعاجم :

1 ــ ابن الأثير, الكامل , دار الكتاب العربي, دار صادر بيروت ، لبنان – ج1.

2 ــ أحمد رضا, معجم متن اللغة, منشورات دار مكتبة الحياة, بيروت لبنان, 1959, مج3 .

3 ــ أحمد رضا, معجم متن, اللغة, منشورات, دار مكتبة الحياة, بيروت لبنان, 1960.

4 ــ أبو البقاء بن موسى الحسني, الكليات, معجم في المصطلحات والفروق اللغوية, أعده للطبع

5 ــ جبور عبد النور, المعجم الأدبي, دار العلم للملايين, بيروت ط1, 1979.

6 ــ أبو الحسن بن محمد علي السيد الشريف, التعريفات, دار الشؤون الثقافية العامة, آفاق عربية, العراق.

7 ــ الزبيدي, تاج العروس من جواهر القاموس, تحقيق عبد العزيز مطر, مطبعة حكومة الكويت, 1970, مج2 .

8 ــ سعاد الحكيم, المعجم الصوفي, الحكمة في حدود الكلمة, دندرة للطباعة والنشر, ط1, 1981 .

9 ــ عدنان درويش محمد المصري, مؤسسة الرسالة, ط 1, 1992 .

10 ــ ابن منظور, لسان العرب, دار صادر, بيروت, ط1, 1992, مج2.

11 ــ ابن منظور, لسان العرب, دار صادر, بيروت, ط3, 1994, مج3.

12 ــ ابن منظور, لسان العرب بالمحيط, دار الجيل, بيروت, 1983, مج4.

13 ــ يوسف خياط, معجم المصطلحات, العلمية والفنية, دار لسان العرب, بيروت, لبنان.

ب ــ الدواوين الشعرية :

1 ــ أمرؤ القيس, ديوان أمرىء القيس بن حجر الكندي لأبي الحجاج يوسف بن سليمان, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر, 1974 .

2 ــ أبو زيد القريشي، محمد بن أبي طالب الخطاب، جمهرة أشـــعار العــرب، دار صـــادر، بيروت، لبنان، 1963.

3 ــ أبو العتاهية، الديوان، دار الكتب المصرية، د ط ، د ت.

4 ــ أبو العلاء المعري، اللزوميات، دار صادر بيروت، مج2 .

ثانيا: المصادر الخاصة:

1 ــ شاوش رمضان, الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد, المطبعة العلوية بمستغانم, 1966 .

2 ــ ابن الصغير, أخبار الأئمة الرستمين, القرن الثالث الهجري, تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز, دار الغرب الإسلامي, بيروت, لبنان, 1986 .

3 ــ أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام, طبقات علماء إفريقية وتونس, تقديم وتحقيـــق: علي الشابي، ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤســـسة الوطنيـــة للكتـــاب، الجزائر، ط2، 1985.

4 ــ علي القاضي عياض, تراجم أغلبية مستخرجة من المدارك تحقيق: محمد الطالبي, نـــشر الجامعة التونسية, 1968 .

5، // , ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالـــك, دار مكتبة الحياة, بيروت, دار مكتبة الفكر, ليبيا, ج1 ، ج3 .

6 ــ المالكي, أبو بكر عبد الله بن محمد, رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيـــة, تحقيق بشير البكوش, محمد العروس المطوي, دار الغرب الإسلامي, ط2، 1994 .

ثالثا: المراجع:

1 ــ آمنة بلعلى, الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي (3هــ ، 7هــ), من منشورات اتحاد الكتاب العرب, دمشق 2001 .

2 ــ إبراهيم أنيس،الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجو المصرية، ط1 ، 1984.

3 ــ , موسيقى الشعر, مكتبة الأنجلو المصرية, ط6, 1988 .

4 ــ ابراهيم بسيوني, نشأة التصوف الاسلامي, دار المعارف بمصر, 1969.

5 ــ إبراهيم الدسوقي جاد الرب, شاعر المغرب حتى خلافة المعز, دار الثقافة للنشر والتوزيع, 1991 .

6 ــ أحمد الشتاوي, ابراهيم زكي خورشيد, عبد الحميد يونس, دار المعارف الاسلامي, دار المعرفة, بيروت, لبنان, مج10 .

7 ــ أحمد مشاعل, الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول, مشكلاتها وأساليبها ومواقفها (132 هــ، 232 هــ), دار العاصمة للنشر والتوزيع, ط1, 1414, ج1.

8 ــ أدونيس علي أحمد سعيد, مقدمة الشعر العربي, دار العودة، بيروت، ط3، 1979.

9 ــ أنور رومية, الرحلة في القصيدة الجاهلية, مؤسسة الرسالة, ط2, 1979 .

10 ــ جابر عصفور, الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب, دار المعارف, مصر.

11، , المرايا المتجاورة, دراسة في نقد طه حسين, دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع, مصر 1998 .

12 ــ جواد علي, المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام, دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة, بغداد, ط2, 1978, ج8 .

13 ــ حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر في الشعر الجاهلي, دار المعارف, مصر, 1970.

14 ــ خليل شرف الدين أبو العتاهية من الرفض إلى القبول, منشورات الهلال, بيروت, 1983 .

15 ــ دي لويس, الصورة الشعرية, ترجمة أحمد نصيف الجنابي وآخرون, دار الرشيد للنشر, بغداد, 1982 .

16ـــ رابح بونار, المغرب العربي، تاريخه وثقافته, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر, ط2, 1981 .

17 ــ رشيد يحياوي، الشعر العربي، الأنواع والأغراض، دار إفريقيا الشروق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991 .

18 ــ زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبيـــة العـــصرية، صـــيدا، بيروت، ج 1، 2.

19ـــ شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، ط7، 1971

20ـــ صابر طعمة، الصوفية، معتقدا ومسلكا، دار عالم الكتب والنشر والتوزيع، ط2، 1985 .

21ـــ الطاهر التهامي، كيف نعتبر الشابي مجددا، الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1979.

22 ــ طلعت أبو العزم، الرؤية الرومانسية للمصير الإنساني لدى الشاعر العربـــي، الحـــديث الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1981 .

23 ــ عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالـــث الهجري، مطبعة الرسالة، مصر 1955 .

24 ــ عبد العزيز نبوي، الـــشعر المغربـــي القـــديم، الـــشركة الوطنيـــة للنـــشر والتوزيـــع، الجزائر،1983 .

25 ــ عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، جامعة اليرموك، أريـــد الأردن، 1980 .

26 ــ عبد الله الطيب المجذوب – المرشد إلى فهم العرب والأدب دون ذكـــر مكـــان النـــشر وتاريخه، ج1 .

27 ــ عبد الله شريط، أبو قاسم محمد كرو، شخصيات أدبية من المـــشرق والمغـــرب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1966 .

28 ــ عبد الله عبد الحميد سويد، أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث، مطابع الوحدة في ليبيا.

29 ــ عبد الله كنون، عبد الله سابق البربري شاعر من المغرب عاش في الـــشام، مطبوعـــات مجمع اللغة العربية بدمشق ،1969.

30 ــ عبد المالك خلف تميمي، الخليج العربي والمغرب العربي، دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي، دار الشباب للنشر والتوزيع، قبرص، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع، بيروت، ط1، 1986 .

31 ــ أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، نشرة السندويس، 1936 ج3.

32 ــ العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الاسلامي إلى نهاية الامارات المستقلة: الأغلبية، الرستمية، الادريسية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994 .

33 ــ عز الدين اسماعيل، الرؤية والفن في الشعر العباسي، المكتبة الأكاديمية، ط1، 1994 .

34- ، الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، مصر ط3.

35- ، الشعر في إطار العصر الثوري، دار القلم، بيروت، لبنان، 1974 .

36 ــ عز الدين جاسم، الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، دار الاندلس ، ط1، 1986 .

37 ــ عفت الشرقاوي، دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1979 .

38 ــ أبو علي الحسن ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وشرح مفيد قميحة، دار الكتاب العلمية لبنان، ط1، 1983 .

39 ــ الغزالي، احياء علوم الدين، دار الفكر، طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافية، 1975، ج5 .

40 ــ فؤاد البستاني ، أبو العتاهية، سلسلة الروائع ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

41 ــ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر بيروت، ط2، ج14.

42 ــ فوزي عيسى، النص الشعري وآليات القراءة، منشأة المعارف بالاسكندرية، جلال جزي وشركاؤه، مطابع القدس، الاسكندرية، ط5، 1997.

43 ــ القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتاب العربي، بيروت.

44ــ كمال اليازجي، معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1974 .

45ـــ محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائـــر، 1981 .

46- محمد طه الحاجري، دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربـــي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1403هـ،1983.

47 ـــ محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباســـي الأول، واتجاهاتـــه وتطـــوره، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983 .

48 ـــ محمد علي الفاروقي التها نوري، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972 .

49 ـــ أبو محمد بن عبد الله بن مسلم، المعارف، دار الكتب المصرية، 1960.

50ـــ محمد مصطفى منصور، أبو ذؤيب الهذلي، حياته وشعره، دراسة توثيقية نقدية وتحليلية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2004.

51 ـــ محمد النويهي، الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمـــه، الـــدار القوميـــة للطباعـــة والنشر، القاهرة، ج1 .

52 ـــ محمود مصطفى، الهدى السبيل إلى علمي الخليل والعروض، 1936 .

53 ـــ مصطفى بيطام, مظاهر المجتمع وملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباســـي الأول, ديوان المطبوعات الجامعية, 1995 .

54 ـــ مصطفى حركات, الصوتيات والفونولوجيا, دار الآفاق, الجزائر.

55ـــ مصطفى علم الدين, الزمن العباسي, دار النهضة العربية للطباعـــة والنـــشر, بيـــروت, 1993 .

56 ـــ مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1981

57- ، دراسة في الأدب العربي، دار الأندلس للطباعة والنـــشر والتوزيـــع، بيروت، ط3، 1983 .

58 ـــ ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط3، 1980 54ــــ نبيـــل راغب، موسوعة الفكر العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002 .

59 ـــ نبيل رشاد نوفل، العلاقات التصويرية بين الشعر العربي والفن الإسلامي، توزيع منشأة المعارف، الاسكندرية، 1933 .

60 ـــ نعيم حسن اليافي، الشابي، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، 1985

61ـ أبو هلال العسكري، الصناعيتن، الكتابة والشعر، حققه وضبط نصه مفيد قميحـــة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، 1981 .

62ـ وكيع بن الجراح، صحيح كتاب الزهد، حققه وأخرج أحاديثه عبد الحميـد عبـد الجبـار الفريوائي، اختصرة، ابن عبد المقصود، مؤسسة الكتابة الثقافية – ط1 – 1993 .

63 ـ يحيى بن شرف الدين النووي، شرح متن الأربعين النووية فـي الأحاديـث الـصحيحة النووية منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1982، ط2 .

64 ـ يوسف سامي اليوسف، الشعر العربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980 .

الرسائل الجامعية :

1 ـ السعيد لراوي، ظاهرة الحزن في شعر السياب، رسالة ماجيستر فـي الأدب المعاصـر، اشراف شيح عوضة حمور، جامعة باتنة، 1986 .

2 ـ صالح مفقودة، الأبعاد الفكرية والفنية في القصائد السبع الجاهلية، رسالة ماجيستر، اشراف العربي دحو، 1988 ، 1989 .

3 ـ علي عالية، شعر الفلاسفة، في الأندلس في القرنين 5 هـ ، 6 هـ ، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه دولة في الأدب العربي القديم، 2004 ، 2005 م.

4 ـ عبد الله العشي، الحسن المأساوي في شعر صلاح عبد الصبور، الماجيستر اشراف عبـد اللطيف عبد الرحمن الراوي، جامعة وهران، معهد اللغة والثقافة العربية، 1984 .

5 ـ عبد الله فيدوح، القيم الفكرية والجمالية في شعر طرفة بن العبد، رسالة ماجيستر، اشراف عبد الغني شيخ، جامعة وهران، 83 ، 84 .

6 ـ محمد الأمين بلغيث، رسالة الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عـصري المـرابطين والموحدين، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، اشراف ع الحميد حاجيات، 86 ، 87 .

7 ـ معمر حجيج، محاضرات في موسيقى الشعر، ألقيت على طلبت الماجستير تخصص أدب مغربي قديم، 2002 ، 2003 .

خامسا : المراجع الأجنبية :

1/ J. Marouzeau, Precis stylistique Francaise, masson et çie Paris, France, 1969.

ملحق
خاص بأشعار المدونـة

يقول سابق المطماطي حين قتال البربر للروم بإفريقية أيام سليمان بن عبد الملك: (الطويل)

أيا معشـــر الروم ارحلوا عن بلادكم　　وخلـــــوا لنا عنها بطي المراحل

فقد قصدتكـــــم بربر بسيوفهـــــا　　وأحلافهـــــا أهل الرماح الذوابل

قبائل من بـــــر بن قيس وخنـــــدق　　و ذي يمـــــن فـــــي عزهـــا المتطاول[483]

سارت بعض أشعاره سير الأمثال ومن هذان البيتان:

قـــــد ينفـــع الأدب الأبناء في صغر　　وليس ينفعهم مـــــن بعده الأدب

إن الغصـــــون إذا عدلتها اعتدلت　　ولا يلـــين ولـــو لينتـــــــه الخشب[484]

وروى له الجرواي في كتابه صفوة الأدب المعروف بالحماسة المغربية هذه القــصيدة الزهدية: (البسيط)

النفـــس تكلف بالدنيا وقد علمــت　　أن السلامـــــة منها ترك ما فيهـــا

والله مـــــا قنعت نفس بما رزقـــــت　　من المعيشـــــة إلا سوف يكفيهـــا

أموالنا لـــــذوي الميراث نجمعهـــــا　　ودرونا لخـــــراب الدهر نبنيهـــــا

قـــس بالتجارب أحداث الزمن كما　　تقيس نعلا بنعـــــل حين تحذوهـــا

والله مـــــا عبرت في الأرض قاطرة　　إلا وصـــــرف الليالـــــي ســـوف يفنيها[485]

وأنشد له الشريشي في شرح المقامات، قصيدة زهدية طويلة ولعلها تمثل مع الأبيــات السابقة قصيدة واحدة: (من البسيط)

نلهـــــو ونأمـــــل أياما تعـــــد لنـــا　　سريعـــــة المـــر تطوينا ونطويها

كـــم مـــن عزيـــز سيلقى بعد عزته　　ذلا وضاحكـــــة يومـــــا ستبكيها

483– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ،1969 ص 1

484– المصدر نفسه ، ص 2

485– المصدر نفسه ، ص 4

وللحتـــــوف تربـــــــي كـــــــل مرضعة | وللحساب بـــــــرى الأرواح باريها

لا تـــــبرح النفس تنعى وهي سالمة | حتى يقـــــــوم بنادي القوم ناعيها

ولن تـــــــزال طـــوال الدهر ظاعنة | حتى تقيـــــم بوادي غير واديهـــا

أموانا لـــــذوي المـــــيراث نجمعها | و دورنـــــا لخـــــــــراب الــــدهر نبنيهـــا[486]

وقال أيضا هذه الأبيات ولعلها من القصيدة السابقة نفسها: (البسيط)

أين الملوك التـــي عن خطبها غفلت | حـــتى سقاها بكأس الموت ساقيها

غـــــرت زمـــان بمـــلك لا دوام له | جهـــــلا كما غر نفسا من يمنيها

وصبحـــــت قوما عـــاد في ديارهم | بمفظع يـــــــوم عادتهم عواديها

وتتبعـــا وثمـــــود الحـــجر غادرهم | ريب المنـــــون رميما في مغانيها

فكيف يبقى على الأحـــــداث غابرنا | كأننـــــــا قـــــــــد أظلتنـــــــــا دواهيهـــا[487]

ومن قوله في الحكمة على طريقة المعارضين : (الطويل)

تعـــاون على الخيرات تظفر ولا تكن | علـــى الاثـــم والعدوان ممن يعاون

وداهــــــن إذا ما خفت يوما مسلطا | عليـــــــك ولا يحتـــال من يداهن

ولا تــــــــك ذا لونين يبدي بشاشة | وفي صدره ضـــــب مـــن الغــل كامن[488]

وقال في إتباع الهوى، ولعلها من تتم الأبيات السابقة: (الطويل)

وهجر الهوى للمرء –فاعلم– سعادة | وطول الهوى رين على القلب رائن

فكـــــن دافنـــا للشر بالخير تسترح | مـــــن الشر، إن الخير للشر دافن[489]

وقال لعلهما منها أيضا: (طويل)

---

[486]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 5

[487]– المصدر نفسه ، ص 5

[488]– المصدر نفسه ، ص 5

[489]– المصدر نفسه ، ص 5

فحتـــــى متـــــى تلهو بمنزل باطل كأنــــك فيـــــه ثابـت الأصــل قاطـــن

وتجمع مــــــا لا تأكل الدهر دائبـــا وكأنـــــك فـــــــي الــدنيا لغيـــرك خازن[490]

وأنشد له المبرد في الكامل هذا البيت المفرد: (الطويل)

وإن جــاء ما لا تستــطيعان دفعـــه فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا[491]

وأنشد له البحتري في حماسته الأبيات الأربعة المفردة:

استخـــــبر الناس عما أنت جاهله إذا عميــــت فقد يجلو العمى الخبر

وفي البحث قدما والسؤال لذي العمى شفـــــاء أشفـــى منهما ما تعاين

إن عبت يومـــــــا على قوم بعقابة أمرا أتوه فـــــلا تصنع كما صنعوا

إذا عبـــت أمـــــــرا فلا تأتـــه وذو اللـــــــــب مجتنـــب مـــــا يعــــيب[492]

والأول من هذه الأبيات من قصيدة طويلة ذكرها ابن الجوزي في كتابه مناقب عمر بن عبد العزيز قال (ذكر ما وعظ به عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن سليمان أحمـــد بـــن عبد الله الجواليقي: قال سابق البربري لعمر بن عبد العزيز رحمه الله): (البسيط)

بســم الــذي أنزلت مــن عنده السور الحمد لله أمــــا بعـــد يا عمـــــر

إن كنــــت تعلــــم مـــا تـــأتي ومـــا تذر فكن علـــــــى حذر قد ينفع الحــذر

واصبر على القدر المجلوب وارض به وإن أتاك بمـــــا لا تشتهي القــــدر

فما صفــــا لامـــرئ عيــش يسر به إلا سيتبـــــــع صفــــوه الكــــدر

واستخبر الناس عمــــا أنــت جاهله إذا عميــــت فقد يجلو العمى الخبر

قــد يدعوى المـــــــــرء بعد هفوته وتحكـــــــم الجاهل الأيام والغــــير

إن التقـــــى خيـــــــر زاد أنت حامله والبـــــر أفضل شيء نالــــه البشر

---

[490]– المصدر نفسه ، ص 5

[491]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 5

[492]– المصدر نفسه ، ص 6

من يطلب الجور لا يظفـــــر بحاجته وطالــــــب الحق قد يهدى له الظفر

وفي الهدى عبر تسقى القلوب بهـــا كالغيـــث ينضر عن وسميه الشجر

وليس ذو العلم بالتقـــوى كجاهلــــه ولا البصيـــر كأعمى ما لـــه بصر

والرشد نافلة تهـــدى لصاحبهـــــا والغـــي يكره منه الورد والصـــدر

قـــد يوبـــق المرء أمرا وهو يحقره والشيء بالنفـــس ينمي وهو يحتقر

لا يشبـــع النفس شيء حين تحرزه ولا يـــزال لهـــــا فـــي غـــيره وطـــــر

ولا يـــــزال وإن كانــــت بهـــا سعة لها إلى الشـــــيء لم تظفر به نظـــر

وكـــل شـــــيء لـــــه حـــــال يغيره كما تغيـــــر لـــــو اللمة الغـــــير

والذكــــر فيــــــه حياة للقلوب كما يحي البـــــــلاد، إذا ما ماتت المطر

والعلـــم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلـــــي ســـــواد الظلمة القمر

لا ينفـــــع الذكرى قلبـــــا قاسيا أبدا وهل يلين لقلـــب الواعـــظ الحجر

والمـــوت جسرا لمن يمشي على قدم إلى الأمور التـــــــي تخشى وتنتظر

فهـــــم يمــــــــرون أفواجا وتجمعهم دار إليهـــا يصيـــر البدو والحضر

مــــن كــــان في معقل للحرز أسلمه أو كان فـــــي خمر لم ينجه الخمر

حتى متــــــى أنـــا في الدنيا أخو كلف في الخـــــد منـــي إلى لذاتها صعر

ولا أرى أثـــــر الذكـــــر فـــي خلدي والحبل فــــي الحجر القاسي له أثر

لو كان يسهر عيني ذكــــــــر آخرتي كمـــــا يورقنـــي للعاجــــل السهر

إذا لداويـــــت قلبا قـــــد أضر بـــــه طول السقام وهيض العظــــم ينجبر

ما يلبث الشيء أن يبلى إذا اختلفـــت يوما على نقصه الروحــــات والبكر

والمرء يصعد ريعان الشبـــاب بـــــه وكــــــل مصعـــدة يومــــا ستنحدر

بيتا يرى الغصن لدنـــا فــــي أرومته ريــــان صــــار حطاما جوفه نخر

كم من جموع أشـــــت الدهر شملهم وكل شمـــل جميــــع سوف ينتشر

وكم من أصيد سامى الطرف معتصب بالتـــاج نيرانــــه للحـــرب تستعر

يظــــل مفتـــرش الديباج محتجبـــا عليــــه تبنـــى قباب الملك والحجر

قـــد غادرتـــه المنايا هـو مستلب — مجـدل تـــرب الخديـــن منعفر

أبعـــد آدم ترجون البقـــاء وهـل — تبقـى فروعـا لأصـل حين ينقعر

لكـم بيوت بمستـــل السيول وهـل — يبقـى علـى المـاء بيت أسه مدر

إن الفنـــاء وإن طالـــت سلامتهم — مصير كـــل بني أنثى وإن كثروا

إن الأمـــور إذا استقبلتها اشتبهت — وفـــي تدبرها التبيـــان والعبر

والمرء مـــا عاش في الدنيا له أمل — إذا انقضى سفـــر منها أتى سفر

لهـــا حـــلاوة عيش غير دائمة — وفـــي العواقب منها المر والصبر

إذا قـــضـــت زمـــر آجالهـــا نزلـــت — علـــى منازلها مـــن بعـدها زمر

ليـــس يجزركم ما توعظون بـــه — والبهـــم يجرزها الراعـــي فتنجزر

أصبحتـــم جـــزرا للموت يقبضكم — كمـــا البهائـم في الدنيا لكم جزر

لا تبطروا وأهجـــروا الدنيا فإن لها — غيـا وخيمـــا و كفر النعمة البطر

ثم اقتدوا بالأولـــى كانوا لكـم غررا — وليـــس مـــن أمة إلا لها غـرر

حتـــى تكونوا على منهاج أولكـــم — وتـصبروا عـدم الـدنيا كمـــا صبروا[493]

روى ابن أبي الدنيا عن ميمون عن مهران قال دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده سابق البربري، وهو ينشد شعرا فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات: (من الطويل)

فكم مـــن صحيح بات للموت آمنا — أتتـــه المنايـــا بغتة بعدما هجع

فلم يستطـــع إذ جاءه الموت بغتة — فـــرارا و لا منـــه بقوتـه امتنع

فأصبح تبكيـــه النســـاء مقنعا — و لا يسمع الداعي وإن صوته رفـع

وقرب مـــن لحـــد فصار مقيله — وفـــارق ما كان بالأمس قد جمع

فلا يتـــرك المـــوت الغنـــي لماله — ولا معدمـا فـي المـال ذا حاجـة يدع[494]

---

[493]- عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب ، ص 9

[494]- المرجع نفسه، ص 9

وفي الأغاني قال أبو الفرج أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي، قال حدثنا أبو غسان قال: قال عمر بن عبد العزيز يوما لسابق ودخل عليه أنشدني يا سابق من شعرك تذكرني به فقال: أو خيرا من شعري فقال هات: قال أعشى همذان:

وبينما المرء أمسى ناعما جدلا ... في أهله معجبا بالعيش ذات أنق

غرا أتيح له من حينه غرض ... فما تلبث حتى مات كالصعق

تمت أضحى ضحى من غب ثالثة ... مقنعا غير ذي روح ولا رمق

يبكى عليه وأدنوه لمظلمة ... تعلى جوانبها بالترب والقلق

فما تزود مما كان يجمعه ... إلا حنوطا وما زاد لمنطلق

وغير نفحة أعواد تشب له ... وقل ذلك من زاد لمنطلق[495]

ومن شعر سابق أيضا في المراء ومدافعة الحق: (من البسيط)

لا يدفعنا لجوجا حين تزجر ... إن اللجوج له في الدفع إغراء

وأعض في حسن عفو من بوادره ... فالحر عن الأفات إغفاء[496]

وقال ولعلها من تتمة ما قبلها: (البسيط)

لا يظهرن لذي جهل معاتبة ... فربما هيجت بالشيء أشيء

فالماء يخمد حر النار يطفئها ... وليس للجهل غير الحلم إطفاء[497]

وقال في ذهاب الأمم وربما كانت هذه الأبيات كلها من قصيدة همزية من روائع سابق (البسيط):

وكيف يأمن ريب الدهر مرتهن ... بعدوة الدهر إن الدهر عداء

ألقى على الجيل من عاد كلا كله ... وقوم هود فهم هام وأصداء[498]

495– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 9

496– المصدر نفسه ، ص 11

497– المصدر نفسه ، ص 11

وله في العفو التسامح: (الوافر)

إذا مـــا كنـــت طالــــب كــل ذنب ولـــم تحلل أخـــا لك على العتاب

تباعـــــد مــــن تباعد بعـــد قرب وصــــار بـــــك الزمــــان إلـــى اجتناب[499]

ومما نسبه له المرزباني كما عند ابن عساكر: (الطويل):

ألا ربما صــــار البغيــض مصافيا وحــال عــن العهد الصديق المتافن

فلا تغتر مـــا عشت من متجمـــل بظاهــــــــر ود قـــــــد تعطـــى البطائن[500]

وأنشد ابن الزجاج في أماليه (الطويل)

فـــــلا تحفــــرن بيرا تريد أخا به فإنــــك فيهـــــا مــــن دونه تقع

كذاك الذي يبغي على الناس ظالما تصبه علـــى رغـــم عواقــــب مـــا صنع[501]

قال ابن مالك في التسهيل وقد تجزمه متسبب عن صلة الذي تشبيها بجواب الشرط فطالبوني بالمشاهدة فأنشد قول الشاعر:[502]

كذاك الذي يبغي على الناس ظالما تصبــــه على عمد عواقب ما صنع

فأمسكوا ذكره في غير واحد من مترجميه ومما نسب له المرزباني برواية ابن عـــساكر (الطويل)

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتي سفاهـــا وريــب الدهر عنها تخادعه

ويطمع فـــــي سوف ويهلك دونها وكـــم مـــن حريـــــص أهلكتـــه مطامعه[503]

---

[498]– المصدر نفسه، ص 11

[499]– المصدر نفسه ، ص 18

[500]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 18

[501]– المصدر نفسه، ص 18

[502]– نفسه، ص 18

وروى ابن عساكر أيضا قطعة من رائيته الكبرى جاء فيها هذا البيت ولـــم يـــرد فـــي القصيدة بعد قوله: (البسيط)

ما يشعــرون بما في دينهم فقصوا جهــلا وإن انقصو الدنيا هم شعروا

وروى عن عثمان بن عبد الحميد قال دخل سابق البربري على عمر بن عبــد العزيــز فقال له عمر عظني يا سابق وأوجز قال نعم يا أمير المؤمنين وأبلغ إن شاء الله فقال له هـــات فأنشده:

إذا أنت لـــم ترحل بزاد من التقى ووافيت بعد الموت مـــن قد تزودا

ندمت علـــى أن لا تكون شريكه وأرصدت قبل الموت مــا كان أرصدا

وروي له مما كتب في وصية الحسن بن سهل لابنه إبراهيم بن الحـــسن منـــسوب إلـــى سابق هذه الأبيات: (من البسيط)

العلم والحلـــم خلتـــــان همــا الخلـــق زيـــــن إذا ما اجتمعا

صنـــــوان لا يبتســـم حسنهما إلا نجمـــــع لـــــذا وذاك معا

كم من وضيع سما به العلم و الحلم فنـــال العـــــــلا وارتفعــا

ومـــن رفيـــع البنا أضاعهما أخملـــــــه مـــــا أضـــاع فاتضعا[504]

وروى له مما أنشده أبو الفضل الرياشي من هذه القصيدة:

إن كنـــت متخـــذا خليـــلا فتـــــوق وانتقـــد الخليلا

مــــن لــــم يكن لك منصفا فـــي الـــود فابغ بـــه بديــلا

وعليـــــك نفســـــك فارعها واكســب بهـــا عمـــلا جميلا

ومــــن استخـــــف بنفسه زرعــت لــــه قـــالا وقيــلا

وأقــــل ما تجــــــد اللئيم عليــــــــــك إلا مستطيلا

والمــــرء إن عـــرف الجيل وجدتـــه يأتــــي الجميلا

ولربمـــا سئـــل البخيـــل الشــــيء لا يســـوى فتيلا

---

[503]– نفسه، ص 19

[504]– عبد الله كنون ، سابق البربري شاعر من المغرب، ص 19

فيقـــــول لا لا أجـــــد السبيلا　　إليـــــــه يكــــــره أن ينيلا

ولـــــذاك لا جعـــــل الالـــــه　　لـــــه إلــــــــى خير سبيلا

مـــــا مبتني الـــــدار التـــي　　هـــو مســــــرع عنها الرحيلا

إن لـــم تنـــل خيـــر أخـــا　　ك فكـــن لـــه عبـــــدا ذليلا

وتجنـــب الشهوات واحـــــذر　　أن تكـــون لهـــا قتيـــلا

فلـــرب شهـــوة ساعـــة　　قــــد أورثــــــت حزنـــا طويلا[505]

عبد الله بن أبي حسان اليحصبي:

عاصر زيادة الله الأغلبي، توفي سنة سبع، أو ست وعشرين ومائتين قال:

مـــن لـــم يؤدبـــه الجميـل　　ففـــي عقوبتـــــه صلاحه[506]

محمد بن داود:

من أصحاب محمد بن سحنون فهو معاصره، قال يرثيه:

أذر الدمـــــوع على أعـــز محجل　　بسطـــت لـــه أيدي المنون حبالها

ما ضرهـــا لـــو أمتعت بمجمد...　　هيهـــات رب العالمين قضى لها

يا عيـــن جودي بالدموع على الذي　　نشـــرت عليه المكرمات ظلالها

ولقد رأيـــــت الأرض يوم رأيته　　فـــــوق المناكب زلزلت زلزالها

قل للمنيـــة بعـــد مـوت محمد　　تكســـو الخليقـــة بعده أجالها

لما رأت تعطيـــــل مسجـدك الذي　　بـــأزاء قبـــرك غالها ما غالها

ذاك المحـــل الأرحـــب العالي إذا　　أعطــــى البريئة ربها أعمالها[507]

---

[505]– المصدر نفسه، ص 20

[506]–العربي دحو الشعر المغربي من الفتح الاسلامي إلى نهاية الامارات ص 169.

[507]–المصدر نفسه ص 173.

الأمام أفلح عبد الوهاب:

ثالث أمراء الدولة الرستمية بتيهرت بالجزائر، يشهد له بالعدل، والورع والتقوى، تـوفي سـنة 240هـ.

قال:

العلـم أبقـى لأهل العلم أثارا	**يريك أشخاصهـم روحا وأبكارا**
حـي وإن مات ذو علم، وذو ورع	**ما مات عبد قضـى من أوطارا**
العلـم در لـه فضـل ولا أحد	**في الناس يدري لـذاك الدر مقدارا**
للعلـم فضل علـى الأعمال قاطبة	**عن النبـي روينا فيـه أخبارا**
يقـول طالب علـم بات ليلته	**في العلـم أعظم عند الله أخطارا**
من عابـد سنـة لله مجتهـدا	**صـام النهـار وأحي الليل أسهارا**
أشـدد إلـى العلم رحلا فوق راحلة	**وصل إلـى العلم في الأفاق أسفارا**
واصبـر على دلج الأغساق معتسفا	**مهامـه الأرض أحزانا وأقطارا**
حتـى تزور رجـالا فـي رحلهم	**فضـلا ، فأكرم بأهـل العلم زوارا**
والطـف بمـن أنت منه العلم مقتبس	**جـدد له كل يـوم منـك أبرارا**
ولا تكـن جامعـا للصحف تخونها	**كالعير يحمل بيـن العير أسفارا**
نعـم الفضيلة، نعـم الذخيرة تورثه	**لنفسك اليـوم إن أحسنـت أثارا**
واجعلـه لله لا تجعلـه مفخرة	**ولا ترائي بـه بدوا، و أحضارا**
تعسـا لكـل مراء غير مقتصد	**وقـد تقـلـد آثاما، و أوزارا**
يصطاد بالعلـم أموال العباد كمـا	**يصطاد مقتنـص بالبـاز أطيارا**
ولا تداهـن إذا ما قلـت مسألة	**أضررت بالديـن إن داهنت إضرارا**
واجعل لنفسك حظـا مـن مذاركة	**مع الصديق إذا استوحشت أسمارا**
وكن بربـك لا بالنـاس معتصما	**كفـى بربك رزاقا وغفارا**
خيـر العبـاد عبـاد الله إن له	**لطفـا خفيا يرد العسر أيسارا**

سبحانه صمـــــد لا شـــيء يشبهه أقـــررت لله بالتوحيـــــد اقرارا[508]

حمديس القطان:

اسمه أحمد بن محمد الأشعري، عاصر ابن الأغلب، وتوفي سنة 289هـ.قال: (مجزو الرمل)

بيـــــــد الله دوائـــــــي الـــذي يعلـــــم دائـــي

إنمـــــا أظلـــم نفســي بإتباعـــــي لهوائـــــي

كلمـــا داويـــــت نفســي غلـــب الـداء دوائـــــي[509]

أبو الأحوص أحمد بن عبد الله:

مكفوف البصر في مرحلة من مراحل عمره، من المغرب سكن بسوسة، صاحب لسحنون، توفي سنة 284هـ.

قال (الهزج):

أبـــــو أن يرقـــــدوا ليـــلا فهـــم لله قـــــــوام

أبـــــو أن يفطـــــروا دهـــرا فهـــم لله صـــــــوام

أبـــــو أن يخدمـــــوا الدنيـــا فهـــم لله خـــــــدام[510]

عمر بن يوسف، بن عمروس:

بن عيسى أبو حفص أصله من أشبيله ولكنه أقام في إفريقية، توفي بسوسة سنة 290هـ.

أيـــا نفس قـــد أثقلتنـــي بذنوبي أيا نفـس كفي عن هواك وتوبي

وكيف التصابي بعدمـــا ذهب الصبا وقد مل مقرا مني عتاب مشيبي[511]

عيسى بن مسكين:

بن منصور بن جريح بن محمد الإفريقي، من تلاميذ سحنون، انتقل عبر الشام ومصر، اشتغل بالقضاء، توفي في سنة 295هـ، قال:

---

[508]– العربي دحو الشعر المغربي من الفتح الاسلامي إلى نهاية الامارات، ص 207.208

[509]–المصدر نفسه ص175.

[510]–العربي دحو الشعر المغربي للفتح الاسلامي إلى نهاية الامارات، ص177.

[511]–المصدر نفسه ص 177.

لما كبـــــرت أتتني كـــــــل داهية وكل مــــــا كان مني زائدا نقصا

أصافـــــح الأرض إن رمت القيام وإن مشيت تصحبني ذات اليمين عصا[512]

وله أيضا في ساقه:

أصـــــاب الدهـــــر عظم ســـاق به قـــــد كنت مشـــاء جليدا

إلـــى الفقهـــاء أنقلها وأطــوي بها للحاجـــــة البلـــد البعيد!!

إذا رجــل الفتى يومـــا أصيبـت وطال سقامــه ألـــف القعودا

وصــــار لبيتـــه جلســا وأمسى مــــن الإخـــوان منفردا وحيد[513]

وأيضا في الشباب كذلك:

لعمري يا شبابـــي لـــو وجدتك بمـــــا ملكت يمين لارتجعتك

ولو جعلت لـــي الدنيـــا ثوابا ومـــــا فيها عليك لما وهبتك

فقدتك، فافتقدت لذيـــذ نومـــي وطيـــــب معيشي، لما فقدتك

ونحتـــك وانتحبـــت عليك دهرا فلم تعـــن النياحة حيث نحتك[514]

أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان داود الصواف:

توفي سنة 219هـ، قال: (المتقارب)

سألـــبس للصبـــر ثوبـا جميلا وأفتـــل للصخـر حبلا طويلا

وأصبـــر بالرغـــم لا بالرضـــا أخلـــص نفـــسي قليلا قليلا[515]

له أيضا: (الكامل)

يـــا لذة قصرت وطـــــال بلاؤها عنــــد التذكر في الزمان الأول

لمـــا تذكرها قــــال ندامـــة من بعدهـــا: يا ليتني لم أفعل[516]

وقال كذلك: (الطويل)

---

[512]–المصدر نفسه ص175.

[513]– العربي دحو الشعر المغربي للفتح الاسلامي إلى نهاية الامارات، ص 175.

[514]– المصدر نفسه، ص 175.

[515]–المصدر نفسه، ص193.

[516]–المصدر نفسه، ص 193.

أرى البـــــرق من نحو العذيب توقدا تغيب طـــورا لمعـــــه، وترددا

أفق أيها الباكـــــــي المسائل منزلا تشتـــــت منـــه أهلـــه فتبددا

كفـــى عجبـــا أنا جهلناه ماخلا ملاعب ولـــــدان ونؤيا وموقدا

ألفـــت بـــــه غيداء إذا هـــي ناهد و إن كنـــت مرموق الزيادة أمردا

وكنت قريبا إذا دعتني ابـــــن عمها فلمـــا دعتني عمها كنت مبعدا

وكن نساء الحــــي يهويـــن طلعتي ليالـــي كان الشعر أرجل، أسودا

فلما اكتسيت الشيب صرت إلى النهى و أصلحت من شأني الذي كان مفسدا

لبست به ثوب الوقـــار، وكلمـــا بليـــت، وأبليت الثيـــاب تجــــددا

جزى الله طول العمر خيرا فإنه حداني إلى التقوى ودل وأرشـــدا

ولما نحا عمري ثمانين حجة وأيقنـــت أني قد قربـــت مـــن المـــدى

تركت تكاليـــف الحياة لأهلهـــــا وجانبتهـــا طوعا مجانبتي الــــردى

رأيت حليـــم القـــوم فيهم مقدما ومن نـــال علما نال جاها وسؤددا!!

أراني بحمـــد الله فـــي المال زاهدا وفي شـــرف الدنيا، وفي العز أزهـــدا

تخليـــت مـــن دنياي إلا ثلاثـــة دفاتر مـــــن علم، وبيتا ومسجدا

غيت بهـــا عـــن كل شيء حويته وكنـــت بهـــا أعفى، وأقنى، وأسعدا

وقدم ذم قـــوم ما فعلـــت جهالة فعـــدوا مـــع الجهال في الجهل أحمدا

ولو فهمـــوا رأي، وأمـــري لأبصروا وقالـــــوا: رأى رأيا سديدا مسددا

ألـــم تـــر أن الدهـــر وأوقر أهله همومـــا، وأن العيش صارا منكدا!!

فما حـــل يـــوم فيـــه إلا بفجعـــة وأنـــت لآخـــرى فيه منتظر غدا

ومـــا فرحـــة إلا ستصبـــح ترحة وما صاحـــــب إلا سيصبح مفردا

وكم قدر رأينا مـــن عزيـــز مشرف يبيت مقـــراة فـــي القباب ممهدا

فجته المنايـــا وهـــو في حين غفلة فأضحـــــى ذلـــيلا فـــي التـــراب موسدا[517]

---

[517]–المصدر السابق، ص194.

وقال: (الطويل)

ولمـــا صحـــا عمري ثمانين حجة ... هجرت تكاليف الحيـــاة لمـــا فجا

ولاقيـــــــت أترابي فأحدب ماشيا ... وآخر مكفوفا، وآخـــــر أعرجا

تمنيت طـــــول العمر أحيا مؤدبا ... وأسلك في التعليم للعلـــــم منهجا

وخالط عيني العشـــــا بعد حدة ... وصار لساني إذا تكلـــــم لجلجا

وفي أذني وقر، وظهري بـــــه حنا ... وما أبتغي مما أنا فيـــــه مخرجا

رأيت الذي قـــد كنت فيه لدى الصبي ... من الشيب والتشييـــخ أشنا وأسمجا!

وأصلح أزمانـــــــي أو أن زمانني ... لزمت العصا من بعـــد مشيبي تبرجا

وأصبحت مما كنت أبغـــي من الغنى ... إلى الزهد فـــي الدنيا الدانية أحوجا

وحبست نفسي بين بيتـــي ومسجدي ... وقد صرت مثـــل النسر أهوى التعرجا

كأني بهم قـــــد أعلنوا بعدي البكا ... إذا أنا صـــرت في المدارج مدرجا

وفي حين يقضيني، وفـــي قول بعضهم ... لبعض: توفـــي التشيخ، وانقطع الرجا

فيـــا خير مرغـــوب إليه لراغب ... ويا خيـــــر من يلجأ إليه لمن لجا

كما لم تضيعنـــي رب، منـــذ خلقتني ... قنـــــي في معادي حر نار تأججا[518]

وله أيضا: (الوافر)

تفهـــم يا حبيـــب، هديـــت قيلي ... تنال بفهمـــــه خيـــــرا كثيرا

سمعتـــك تذكـــر الشعـــراء طـــرا ... وتنشـــد قولهـــــم جما غفيرا

وليـــس مؤلـــف قـــولا حكيما ... كآخر قائـــلا: إفكـــــا وزورا

ويرجـــف قولـــه لينـــال دنيـــا ... إذا ما نالهـــــــا نـــال الغرورا

فـــلا تشغـــل بقـــول غير قيلي ... فما فـــــي النفع كان لـــه نظيرا

فـــدع عنـــــك المـــذاهب واتبعني ... متابعـــــة تجـــد خيـــرا كثيرا

فقيـــه النـــاس سحنون تجدني ... لأكثـــر فقهـــه بصـــرا بصيرا

وفـــي فقه الفقيـــه أبـــي سعيد ... وجـــــدت الحق متضحـــا منيرا

---

[518]–العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص195.

وفـــــي تعليمــــــــه علمـــا عليما — و في تأديبـــــــــه ستـــــرا ستيرا

لزمـــــــت فنـــــــاءه عشرين عاما — أغاديـــــــه وأغشـــــــــاه هجيرا

وكنـــــــت مؤدبـــــا نفسي لنفسي — علـــــــــى نفـــــس أجنبها النكيـــر

فقلـــــــــــت من العلوم لطول عمري — وإمضائي وتجربتـــــــي الدهـــــورا

وحزت مـــــــــن السلامة ما كفاني — ووقانـــــــــي، وبلغنـــــي السرورا

ولـــــــم ألبـــــس لـــــذل الفقر ثوبا — ولـــــــم أك في الغني بطرا فخورا

ولـــــــم أجـــــزع، وللأيام صرف — يعـــــــــود عسيرها سهلا يسيرا

ولـــــــم أفـــــــرح لأن لها انقلابا — يعيـــــد يسيرها صعبـــــا عسيرا

وإنـــــــي وإن توالـــــــى فجعهـــا — لجلـــــــــدا...صبــــــــــورا

ولا أنـــــــا وإن نابت نائبة خضوعا — ولا متضعفا جزعــــــا ضجورا وإن

أو دعـــــت ســـــرا كنـــــت حـــــرزا — ولـــــم أخبر بـــــذاك أخا وزيرا

إذا كـــــان الفتـــــى عنـــــي غنيا — فلســــــت إليـــــه محتاجا فقيرا

أواصلــــــه إذ يبغـــــــي وصالي — وأمنحــــــــه –إذا قطع– الدبورا

وليـــــــس مـــــن الجميل يرى كبير — يتابع مـــــــــــدارا حدثـــا صغـــيرا

أرى الدنيــــــا تغيرهــــــا الليالـــــي — وأيامـــا مؤلفـــــــــة شهــــــورا

أرى يمــــــا يجـــــيء بكـــــل خير — ويوما بالحــــــــوادث مستطيـــــرا

كـــــــذا أحــــــوال دهرك، حال أمن — وحال تجزع البطـــــل الجســــورا

وكـــــم ملـــك عظيـــــم ذي اختيال — أعد خزائنا وبنــــــــــى قصـــورا

وكـــــان مــــداه ذا خطــــر عظيم — فصار مؤجــــــلا أجلا قصـــيرا

ومـــــــــن ذاك التمـــــلك والتعالـــــي — وسكنى قصره ، ســـكـــن الحقيـــرا

وأضجـــــع فـــــي التراب بـــلا مهاد — يضيق اللحد منجـــدلا غفيرا وكـــم

مـــــــن طالـــــب للمـــــال يسعى — ويركب في مطالبـــــه البحورا!؟!

فصار يـــــود أن لـــــو كان أضحى — على تفريق مـــا حـــــــوى قديرا

وعــــــاد يـــــود أن لـــــو كـــان أمسى — ولـــيس بمـــــالك منــــه نقيـــرا

وقـــــد حبـــــس اللســـان فلا كلام و قـــد سمـــــع الصياح المستطيرا

فإمـــــا مؤمـــــن يرجـــو خلاصـــــا وإمـــا كافـــــــر يصلـــــى سعيرا

فويـــــــل للشقــــــي إذا تــــــردى وصـــار إلى التي ســــاءت مصيرا

إلى نـــــــار تلظيهـــــا شديـــــــــد وتزفـــــــــــر في تغطيهـــــا زفيرا

وطوبـــــــــي للسعيـــــــــد إذ حباه إلـــــــــه العرش في الفردوس حورا

وصــــــــار شرابـــــــه من سلسبيل وأنهـــــــار مفجـــــــــرة خمورا

أراني وقـــــــد كبرت ورق عظمــــــي و صـــــرت مخامر ضـــــرا ضريرا

كأنـــــي بالبكـــــاء علـــــي فـــــاش و قـــــــد حملــــوا بجثتي السريرا

إلـــــــى دار البلـــــــــي حملا سريعا و ينصـــــرفون عـــــن قبري نفورا

وخلونـــــــــي بأعمالـــــــــــي فروحي علـــــــى الحالات تنتظـــر النشورا

أجرنـــــــــــي من عذابك وأعف عني وكـــــن لـــــــي منك يا أملي مجيرا

فإنـــــي قـــــــد كبرت ورق عظمى لجأت إلـــــى فنائـــــــك مستجيرا

وإنـــــي لـــــــم أزل أرجـــــو عفوا لأنـــــــك لـــــــم تزل ربا غفورا[519]

وقال: الوافر

دعيـــــت معلمـــــا إذ صــــرت شيخا وأيـــــام الشبيبـــــــة كنـــــــت بورا

لئـــــن كـــــان المشيـــــب أتـــى نذيرا فإنــــــــــي ســــــــوف أدعوه بشيرا

فأهـــــلا بالمشيـــــــب لنـــــــا لباسا وقـــــــارا نستزيـــــــد لـــــــه وقارا

وجـــــزت بتسعـــــــة وسبعين عامـــا وقـــــد ضمنـــــــــت أصحابي القبورا

وصرت كراكــــــع يمشــــــي دبيبـــــا وأصبــــــح خاسئـــــا بصري خسيرا

وألقـــــــى الدهر فــــــــي أذني وقرا وفـــــي بدنـــــــي، وفي بطني فتورا

وفـــــي فقـــــــه الفقيه أبـــــي سعيد رأي الحــــــــق متضحــــــــا، منيـــرا

لزمـــــــت فنـــــــاءه عشرين عاما أغاديـــــــــــــه، وأغـــــشـــــــاه هجيرا[520]

---

[519]-العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص196-198.

[520]-المصدر نفسه، ص 199.

أبو عقال ابن غلبون:

عاصر أخته مهرية، وهذه برزت في واسط القرن الثالث الهجري برقادة بتونس يقــول (الكامل):

عقـــدت عليـــــك مكمنات خواطري	**عقـــــد الرجـاء فألزمتني حقوقا**
إن الـــزمـــــان عـدا علي فزادني	**علمــــا بأنــــــك سيدي تحقيقا**
ما نـــالني ضــــــر بوجــه مســاءة	**إلا وجــــدت بــــــه إليك طريقا!**
حســبي بأنـــك عــــالـــم بمصالحي	**إن كنـــت مأمونـــــا علي شفيقا**
فامض القضاء علـــى الرضى مني به	**أنــــــي رأيتــك فـــــــي الــبلاد رفيقا[521]**

وقال: (المتقارب)

أيـــــا مـــــن يـرى الرشد في غيه	**ويخبـــــط فـــي الداجيات القتادا**
تجـــــاف بنفســـك عـــــن حتفها	**وخـــذ لأمانـــك منـــــك القيادا**
أجـــب داعـــي الله لا تعصــــــــه	**فقــد جـاد بالنصـــح جهرا ونادى**
ولا تلـــه بالموبقـــات التــــــــي	**أبـــــادت بوائقهــــا من تمادى**
وأقفـــرت الربـــع مـــن أهلــــه	**وأبقـــت حلـــوف الندامى فرادى**
وشتـــــت الشمـــــل بعـد ائتلاف	**فلـــم تبـــق للرائديـن ارتيـــادا!**
بلـــوت الزمـــان ودســـت البــلاد	**ونافست فـــي كـــــل شيء عنادا**
شربـــت المــــدام وسســـت القيان	**ورضــــــت الجيـاد، ورعت الشدادا**
أصيــــد الغـــزال وأم الرئـــــــال	**بطــــرف أراه يجيـــد الطــــرادا**
وصعلكت فـــي البــر والبحـــر دهرا	**أخلـــف أهلـــــي علـــي حدادا**
أســـــوم البعــــــاد، وأهــوى اللذاذ	**وأظهـــر فـــي الأرض مني الفسادا**
أروح علـــــى هـــــــــذا وذاك	**أديـــم السهــــاد ، وأجفوا المهادا**
إلـــى أن تناهـــت حـــدود القضاء	**وأنفـــذ سلطانــــــه مـــا أرادا**

---

[521]–المصدر السابق، ص200.

فجلى مــــن القلـــــب إظلامـــــه وأنـــــور ما كــــان منـــــه سوادا

فألزمـــت نفســــي مـــدى صبرها وخالفتها فـــــي هواهـــا عنادا

وباينــــت ما كنـــــت ألهــــو به فأمســـى وأصبـــح عندي سهادا

رضـــــيت بــــــدون الكفاية قوتا وبالله عــــن كــــل خلق عمادا

فأضحـــــى الملـــوك، وأهــل النعيم أقـــــل البريــــــة عندي عدادا

وأسقطـــــت لومــــي عن العالمين فمـــــن شاء ود و من شاء عادى

فمـــــن دام دمـــــت له في الوفاء وزايدتــــــه أبــــــدا ماستزادا

ومــــــن تـــاه تهـــت بمن لا يذل بـــه مـــن أعـــز ولا مـــن أسادا

فلـــــم أر عيشــــا كعيش القنوع ولـــــم أر مثـــــل التقـــي لــي مرادا[522]

وقال: (الطويل)

أمـــــا والأكــــف المهديات سلامها إلـــــى مدنــف لم يستطع أن يسلما

وتـــــلك الخدود البيض والأعين التي قـــضيـــــن لــــدمعي أن يفـــيض ويسجما[523]

وله أيضا:

لاح المشيـــب بلمتــــــي فنعانــي ونفــــــى الصبا عني، وذم عناني

ونائـــــــت خطوب الحادثات بأسرتي فبقيـــــت منفـــــردا من الأقران

فلئـــــــن مضى صدر الزمان بصفوه فلأخدمـــــن لسيـــــدي المنان

ولأقطعـــن علائقـــي مــــن غيري حتـــــى أحــــــل ساحة الميدان

ولأنفيـــن مطاعمـــي، وملابســـي ولأمنعـــن مــــن الكـــلام لساني

ولأهجـــرن أحبتـــي، ومعارفــــي ولأقطعـــــن عصابة المجـــــان

ولأبكيـــن علــــى الصبا ولمـــا مضى مـــــن غرتي في سالف الأزمان

فلعـــــل مـــــن شمل العباد بفضله يحـــي الفـــؤاد بكثرة الأشجان

---

[522]–المصدر السابق، ص200–202.

[523]–المصدر نفسه، ص203

يا مـــــن إليــــه حسن ظني قادني　　أنــــت المؤمل عنـــــد كل أوان

فامنـــــن علــــى بما أؤمل منك يا　　معطــــــــي الجميـــل ومـــسدي الإحسان[524]

ويروى له أيضا قوله: (الطويل)

لئــــن عـــرف الأخوان عني نزاهة　　وخلفنـــــــي عنهم نصيبهم من الفقر

لقـــــــــد سرني أني خلي من الذي　　أضاعــوه من حقي ولو كنت في الأسر

ولــــــو كنت في الدنيا على مثل حالهم　　أبحتهـــــم رحلي وعدت إلى طمري!

فما لـــــي إلى خلق سوى إليه حاجة　　ولكنـــــــه شـــــيء تجاذبه فكري

أتيه علـــــــــى الدنيا إذا ما تعذرت　　وأوثر بالموجـــــــود منها على الضر

سأرعى لهـــــــم ما هان مني عليهم　　وأحمل نفســـي في الجفاء على الصبر

عليهم ســـــلام الله منــــي رسالة　　مقسمة بيـــــــن التواصل والهجر

فمـــــــا ألفـــة الآلاف إلا تشاغل　　عن الجـــد والتشمير في النهي والأمر

رضيـــــــت بوصل الله عن كل قاطع　　حبال الإخـــــا فما ينوب من الدهر!

وأيقنـــــت أن المنع من فيض جوده　　وفضلا لأهل القـــــرب باح به شكري

فمقـــــــت على صول الزمان مفكرا　　بأربعة أنبــــــــت فيها على الصبر

فقل لحصـــــون الغرب طرا من بها　　أبحتكم حظـــــــــي من البر والبحر

يقارعني من شاء منكم بعيشة　　معينة الأوقات ظاهـــــــرة الستر

بلا عوض منها إلى النفس راجع　　علي بجــاه فــي الأنــــــام ولا قدر[525]

وله كذلك: (الطويل)

منــــاي وتسويفـــــي بنفسي أذلها　　وأعملهـــــا فيمــــا عليها بمالها

تميـــــل إلـــــى حظ القوت دارس　　بحـــــظ من الدار التي لا أنقضالها

---

[524]–المصدر نفسه، ص203.

[525]–العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص203-204.

كأنـــــــي للدنيـــــــا رهين بخدعة تحالفنــــي يومـــــــا ويبقــى وبالها

وناشئـــــــــة الليل البهيــــــم يقومها رجـــال أضاعـــــت فرشها وحجالها

سوامـــــر أســـدال الظـــلام ضوامر بنيـل مـــــن الاقتـــار منهـــا مثالها

ولاذت بمولاهــــا بصائــــــر فكرهــا فأنعشهــــــا روح الحيـــــاة وعالها

فلمـــــا رأى مـــن آثــرت بحبــــها دوام الأســى منـــها عليهـــا رثى لهـــا

فعفى مراقيها وأوصـــــــــى سهولها وحطــت عليــه بالوجــود وحالهـــا

نعيـــم ذوي الألبـــاب، برهان صدقهـــم ولي حالـــة لم ينـــعم اللـــه بالهــــا

كأنــــي ونفـــس بين حرب وهدنـــــة إذا ساعدتنـــي في السهــــاد بدالهـــا

إذا ذادهـــا للـــــورد حادي وعيدهـــا أشـــار إليهـــا ضـــده فأزالهـــــــا

تخالفنــــــي فـــي كــل أمر أريـــــده وتقطـــع من باليميــــن شمالهــــــا

فمـــن لي بنفــــس لا تـــــزال غوية تســـاعد شيطانـــا يريد ضلالهـــــا

فلو كـــان لـــي التخيير في بدء خلقتـــي تعوذت من نفســـي فلم أر حالهـــــا

وكنـــت كمـــن لم يبـــدع الله خلقــــه فلا علـــة آســـى عليها ولا لهـــا

ولـــو تكنت فـــي الدارين حـــرا مدلـــلا لنغص ذكـــر الموت عنـــدي دلالهـــا

فلا كـــانت الدنيـــا، ولا كنـــت قبلهـــا فمـــالي، ومـــا للعيــــش فيهـــا، ومالهـــا[526]

وقال: (الوافر)

قريـــن الحـــزن ذو هـــم يجـــــول أخـــو ســـــهر إذا نـــام الغفـــــول

دؤوم الكـــــــد أواه إذا مــــــــا تذكــــــر مـــا توعـــده الجليـــــل

عــــزوف النفس عن شهـــوات دار تميـــل لها القـــلوب ومـــا تميــــل!

قريـــــر العيـــــن بالاخوان، صـــب غزير الدمـــع بســـــام وصـــول

سخــــي الكـــــف ليس بهـــا لديـــه مـــن الدنيــــا، وإن جلــت، بخيــل!

رحيـــب الصـــدر ليـــس له ادخـــار ولا أهـــــل، ولا ولـــد يعــــول

---

[526]-المصدر السابق، ص204-205.

فـــعول ما يقـــــول وكل ما أمـــــر يـــدل عليـــــه فهـــو له عمـــــول

ذكـــــــــي النفــــس ذو عقل ولـــب صــــــــدوق الـــــــلفظ، يفهـــم مـــا يـــقول[527]

وله أيضا: (الطويل)

دعــــــــاه من الأوطان شوق مـــــبرح فــــجاد عــليه دمــعه وهو قا طـــر

عليـــــــه لكتــــــمان المودة شاهــد من الوجـــــد يبــــدي ما تجن الضمائر

عـــــــــزوف عن الآمال بين ضلوعه بيـــــــن الحشا مـــن لوعة الحب باتر

ألا فعلـــــــــــــى الدنيا عفاء يشوبه طلاقـــــي لها مــــا ساعدتني البصائر

فإن أقبلت يومـــــــــــا علي بودها فإني لمـــــــا تولـــــــى من البر كافر

لعمرك ما في الدنيا شيء أريده ســـوى أنهــــــا نـــــــزل وأنـــــي مسافر[528]

وقال:

أبصـــــــر بالقلـــــــب سبيل الرشد فبايـــــــن الأصــــــــل معا والولد

وجـــــــد فـــــــي اليسر إلى ربه مشمــــــــرا يطلــــــب مــلك الأبد

قـــــــد صـــــــارت الدنيا بأقطارها عليـــــه كالــسجــــــن فمنهـــــــا شرد[529]

محمد زرزر الفارسي المتوفي عام 291هـ، عالم وشاعر مكثر:

قال:

تهتك الستــــــر عــن ذي الغي والفند وحصـــــــحص الحق بعد البغي واللدد

وأيقـــــــــن المشرك الداعي له ولدا بأنـــــه الله لـــــــــــم يولد ولم يلد

لا مـــــــوت يدركه ، لا شيء يشبهه يبلــــــى الأبـــــاد ولا يبلى على الأبد

---

[527]–المصدر نفسه، ص205–206.

[528]– العربي دحو، الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات، ص 206.

[529]–إبراهيم الدسوقي، جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص156.

ويـــــح ابـــن آدم من عاص يخالفه	**ومـــــن مصـــــر على الآثام معتقد**
وفـــــــي الخلود نعيم غير منصرم	**بـــــاق بقدرتـــــــــه بـــاق بالأمد**[530]

بكر بن حماد: ت296هـ.

الخير في الدنيا قليل: الطويل.

لقد جفـــــت الأقـــــلام بالخلق كلهم	**فمنهـــــم شقـــــــي خائب وسعيد**
تمر الليالي بالنفوس السريعـــــــة	**ويبدئ ربي خلق،ه ويعيـــــــــــد**
أرى الخير في الدنيا يقل بكثـــــرة	**وينقص نقصا والحديث يزيـــــــــد**
فلو كان خيرا قل كالخير كلـــــــه	**وأحــــسب أن الخيـــــر منــــه بعيـــــــد**[531]

السفر من غير زاد: (الوافر)

نهار مشــرق وظـــلام ليـــــــل	**ألحا بالبياض وبالســــــــــــواد**
هما هدما دائم عمــر نــــــــوح	**ولقمـــان وشـــــداد وعـــــاد**
فيا بكـــر بـــن حمـــاد تعجـــب	**لقوم سافـــــروا من غيـــــر زاد**
تبيت على فراشـــــك مطمــــئنا	**كأنـــــك قـــد أمنـــــت من المــعاد**
فياسبحان من أرسى الرواســـــــي	**وأوتـــــــدها مــــــع الـــــسبع الشـــــــــداد**[532]

تفضيل بعض الناس على بعض (الطويل)

تبارك من ساس الأمور بعلمـــــــه	**وذل له أهــل السمـــــوات والأرض**
ومن قســم الأرزاق بـــين عبـــاده	**وفضل بعض الناس فيها عــلى بعــض**
فمن ظن أن الحرص فيها يزيـــــده	**فقولـــوا لـــه: يـــزداد فـــي الطـــول والـــعرض**[533]

---

[530]-المصدر نفسه، ص 141.

[531]-محمد بن رمضان شاوش، الدر الوقاد من شعر البكر بن حماد، المطبعة العلوية بمستغانم، 1966، ص75.

[532]-المصدر السابق، ص76.

[533]-المصدر السابق، ص77.

ذكر الموت: (الطويل)

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضـــــت وقد مرقت نفسي فطال مروقهـــــــا

فيا أسفـــــي مــن جنح ليل يقودهــــا وضـــــوء نهار لا يزال سيوقـــــــها

إلى مشهد لا بـــــد لي مـــن شهـــودة ومن جرح للموت سوف أذوقهـــــا

ستأكلها الديدان في باطـــــن الثـــرى ويذهب عنها طيبهـــا وخلوقهـــــا

مواطــــن للقصــــاص فيها مظالـــم تودى إلى أهل الحقوق حقوقهـــــــا

سحاب المنايـــا كـل يـوم مظلـــة فقد هطلـــت حولي ولاح بروقهـــــا

وللنفس حاجـــات تـــروح وتغتـــدي ولكن أحاديث الزمان يعوقها

تجهمت خمسا بعد سبعين حجـــــــة ودام غروب الشمس لي وطلوعهـــا

وأيدي المنايا كل يـــوم وليلـــــــة إذا فتقت لا يستطاع رتوقهــــــــا

يصبح أقواما على حــــين غفلـــــة ويأتيــــك فــــي حــــين البيـــــات طروقهـــا[534]

وقفة بالقبور: (البسيط)

قف بالقبور فنادا لها مديـــن بهـــــا من أعظم بليت فيهــــا وأجســـــاد

قوم تقطعت الأسباب بينهـــــــــــم من الوصــــال وصــــاروا تحت أطواد

راحوا جميعا على الأقدام وابتكـــــروا فلن يروحوا ولن يغدو لـــــــهم غـــاد

والله لو ردوا ولــــــو نطقـــــــوا إذا لقالوا: التقـــــى من أفضــــل الزاد

فبرز القوم وامتدت عساكـــــــــرهم كما يوافوا لميقات وميعـــــــــــــاد

ما بالقلوب حياة بعد غفلتهـــــــــا والله سبحانه منها بمرصـــــــــــــاد

أين البقاء وهذا الموت يطلبـــــــنا هيهات هيهات يا بكر بن حمـــــــاد

بيننا نرى المرء في لهو وفي لعـــب حتى نراه على نعـــــش وأعــــواد

هذا يباكر دنياه منغصـــــــــــــة فيها حزازات أحشـــاء وأكبـــــــاد

وكلنا واقف منها على سفـــــــــر وكلنا ظاعن يحتدو به الحــــــــادي

[534]–المرجع السابق، 78–79.

في كل يوم نرى نعشـــا نشيـــعه	**فرائح فارق الأحبـــاب أوغـــاد**
الموت يهدم ما نبنيه من بـــذخ	**فمـــا انتظـــارك يـــا بكـــر بـــن حمـــاد**[535]

رثاء ابنه عبد الرحمن (الوافر):

بكيت على الأحبة إذا تولـــوا	**ولو أني هلكت بكـــوا عليـــا**
فيا نسلي بقاؤك كان ذخـــرا	**وفقدك قد كوى الأكباد كيـــا**
كفى حزنا بأنني منـــك خـــلو	**وأنك ميت وبقيت حيـــا**
ولم أرك آسيا فيئست لمـــا	**رميت التـــرب فوقك من يديـــا**
فليت الخلق إذ خلقوا أطاعـــوا	**وليتك لم تك يـــا بكـــر شيـــا**
تسير بأشهر تمضي ســـراعا	**وتطوي في ليالهن طيـــا**
فلا يفرح بدنيا ليس تبقـــى	**ولا تأسف عليها يابنيـــا**
فقد قطع البقاء غـــروب شمـــس	**ومطلعها على يا أخيـــا**
وليس الهم يجلوه نهـــار	**تـــدور لـــه الفـــراقد والثريـــا**[536]

رثاء ابنه عبد الرحمن أيضا (الطويل):

وهون وجدي أنني بـــك لاحـــق	**وأن بقـــائي في الحياة قليـــل**
وأن ليس يبقى للحبيب حـــبيبه	**وليس بباق للخليل خلـــيل**
ولو أن طول الحزن ممـــا يـــرده	**للازمنـــي حـــزن عليـــه طويـــل**[537]

رثاء تاهرت بعد تخريبها (البسيط):

زرنا منازل قوم لم يزورونـــا	**إنا لفي غفلة عما يقاســـونا**
لو ينطقون لقالوا: الـــزاد ويحكـــم	**حل الرحيل فما يرجو المقيمونـــا**

---

[535]–رمضان شاوش، الدر الوقاد من شر بكر بن حماد، ص80–82.

[536]–المصدر السابق، ص 87–88.

[537]–المصدر نفسه، ص 89.

الموت أجحف بالدنيا فخربهـــــــــا وفعلنا فعل قوم لا يمــــــوتونــــــا

فالآن فابكوا فقد حق البكـــــاء لكــم فالحاملون لعرش الله باكونــــــــــا

ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعهـــــــــا لـــو كـــان جمـــع فيهـــا كنـــز قارونـــــــــا[538]

رثاء الشاعر نفسه (الرجز):

أحبو إلى الموت كما يحبو الـــــــجمل قد جــاءني مــا لــيس لــــي فيــه حيـــل[539]

يحي بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني (الطويل): ت 289 هـــ:

هممت ولم أفعل ولو كنت صادقــــــا عزمت ولكن الفطام شديـــــــــد

ألا ليت شعري! هل أبتين ليلــــــــة إليــــــك انقطـــــاعي إننـــــي لسعيـــــــــد[540]

أبو جعفر أحمد بن نصر بن زياد الهواري: ت 314 هــ أخذ عن ابن عبــدوس وابــن سحنون وغيرهما، توفي سنة 307 هــ.

يقول: (مجزو الرمل)

لا يــــــعجبك يــــا فتـــــى حســـــن فرش ومتكــــــــــــا

إن للــــــعرس فــــرحــــــــة بعدهـــــا النــــــــوح والبكـــا[541]

وقال:

إذا احتاج البنــون إلى أبيــــــهم أتو بالــــبر والفضـــل الجزيـــــل

وإذا احتاج واـــــلدهم إليــــــهم يقاسي الهم في الليل الطويــــــل

---

[538]–المصدر السابق، ص90.

[539]–المصدر نفسه، ص92.

[540]–القاضي عياض، تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، نشر الجامعة التونسية، 1968، ص268.

[541]–المصدر السابق، ص369. والمالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا وسير من أخبـارهم وفـضائلهم وأوصافهم، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1994، ص186.

فأحسن والد لـم يعط شيـئا وعـاش بمالـه حتـى الرحيـلا[542]

سعيد بن الحداد: ت 302 هـ.

قال:

ويبـصرني إذا ذو المال يزهـى بما يحوي من المال الجزيـل

أراه وكـأن عينـي لا تراه وأعرض عنه إعراض الملـول[543]

وكان يقول في مثل ذلك (الطويل):

رغبت بنفسـي عن دنى المكاسب وما أعجزتنـي حيلـة عن مطالبي

فإن لـم أنل دنيـا فقد نلت همة تنـزه نفسـي عن دني المعائب

أبت همتي إلا سمـوا إلى العلى وإن طأطأتنـي حادثـان النوائب

ترانـي وفي صدري هموم كثيرة ضـحوكا لأخفـي عـن جلـيس و صـاحب[544]

قـال:

يمنعني مـن عيـب غيري الذي أعلمـه فـي مـن العيب

عيبـي لهـم بالظن مني لهم ولسـت مـن عيبي في ريب

إن كـان عيبـي غـاب عنهم فقـد أحـصى ذنـوبي عـالم الغيب[545]

وقال:

مازلـت مـن حادثات الدهر معتجبا حتـى انقضى عجبي بعد الثلاثمائة

لا بـارك الله في عـام وفي سنـة كانـت لشـر زمان كان مختبئه

---

[542]–المالكي، رياض النفوس، ج2، ص185.

[543]–المصدر نفسه، ص98.

[544]–نفسه، ص 98.

[545]–المصدر السابق، ص 107.

عـــــادت أسافلـــــــــه طرا أعاليه   ولا أعالـــــــــي إلا وهـــــــــي منكفئة[546]

وقال أيضا:

كـــــم عساني أعيش (كم كم عساني)   كـــــم عسانـــي أبقى على الحدثان

بعـــــد سبعـــــين حجـــة وثمان   قـــــد توفيتهـــــــا مـــن الأزمان

يا خليلـــــي قـــــد دنا الموت مني   فابكيانـــــــــي هديتمـــــــــا و انعياني[547]

وقال سهل بن إبراهيم الوراق: من شعراء القرن الثاني الهجري:

نفـــــى النـــوم من عيني خيال مروع   وعـــــاود قلبـــي شجوه فهو موجع

فبـــــت شجـــــي القلب سفاح عبرة   أراعـــــي نجوم الليل من حيث تطلع

حيـــــاة الفتى ما عاش بؤس وحيرة   ومـــــر الليالـــــــي قد يسر ويفجع

كـــأن خطـــــوب الدهر بيني وبينها   سوالـــــــف ثـــــأر فهي بي تتوقع

لعمـــــرك ما صـــــاد عن الماء حائم   يطـــــــوف بـــــه حيران يدنو فيمنع

ولا هاتـــــف باللـيـــــل بين حمائم   هواجـــــع محـــــزون يحن ويسجع

فريـــــد وحيـــــــد بأن عنه قرينه   فيبكـــــي، ويحكـــي قس دير يرجع

بأوجـــــع مـــــــن قلب قريح يبثه   غـــــــداة نعـــى عثمان ناع مروع

نعـــــى مـــن شجا قلبي وكنت محاذرا   عليـــــــه مـــــن الأقدار ما ليس يدفع

يـــــــــرق لهذا القلب من طول بثه   دمـــوع كتبديـــــد الجمـــــــان تدفع

وشـــرد نـــــوم العين فيض دموعها   وأنـــــي لعين بعـــــــد عثمان تهجع

لقد كنت جلـــدا فـــــي النوائب صابرا   علـــى حـــادث الأيام مـــــا تتضعضع

فبان العـــــزى والصبر يـــــوم فراقه   و مـــــن فارق الأحباب يأسى ويجزع

وبان اصطباري عـــــــن حبيب فقدته   فكيـــــف ومـــا للصبر في القلب موضع

تجرع كـــأس الموت وهـــي كريهة   فما لـــــــي بكـــأس الحزن لا أتجرع

---

[546] -المصدر نفسه، ص110.

[547] -المصدر نفسه، ص 110-111.

يؤرقني طيف لعثمان زائر ... إذا هجع النوام يسري وينزع

يؤرق عيني من لذيذ غموضها ... فليس لها إلا سهاد وأدمع

عجبت لنفسي بعده كيف لم تمت ... وما بحياة بعد إذ مات أصنع

فلو أن شيئا كان يفدي فديته ... وهيهات ما في الميت للحي مطمع

لقد راح صبري يوم راحو بنعشه ... فثووه لحدا ثم آبوا وودعوا

أريحانة قد صرت ريحانة الثرى ... فأضحى البلا في جسمك الغض يسرع

ألا يأبي الغصن النضير الذي ذوى ... فعيني على تلك النظارة تدمع

سقى قبرك الصوب الموشى لأرضه ... وجادت عليه مزنة ليس تقلع[548]

قال محمد بن عسكر:

إن أقبلت قلت: صباح أقبلا ... وإن أدبرت قلت: ليل أظلما

جارية تيمت المتيما ... يحكي شعاع الشمس منها المبسما[549]

أبو محمد عبد الله بن سعد اللحام: ت 331 هـ.

أزعجت عن لذة القرآن يا سندي ... وذاك لما ركبت الذنب باللدد

أتلو القرآن فاسهو عن عجائبه ... لشهوة قطعت من عرى كبدي

فما سلكت طريق الناعمين به ... قد صار تذكارهم أحلى من الشهد

وطول أنس بهم في وقت خلوتهم ... يتلونه دائما قربا من الصمد

هيهات يا نفس أن تحظى بحالتهم ... وأنت مخدوعة والله بالرصد

أهجر بلادك وكن للذنب باكية ... وراقب الله في الألفاظ والجسد[550]

يوسف بن عبيد الله القفصي التميمي: ت 332 هـ.

548–المصدر السابق، ص 112–114.

549–المصدر نفسه، ص270.

550–المصدر نفسه، ص 276–277.

قال:

وما الدهـــــــــر إلا ليلة بعد يومها ونجم تراه طالعا ثم آفلا

وقـــــــــــرن جديد خلف قرن ودولة تعاقب أخرى لا يزلن شواملا

فلـــــــو صح لي عقلي بما أنا واصف لبت وجنبي لا يمل قلاقلا

ولو صـــــــــح لي عقلي لحزت خلائقا أباري بهن الصالحين الأفاضلا

ولو كنـــــت من داري على كنه علمها وقد ذوقت مني اللهاة حناظلا

لأعرضت عنهـــــا حيـــــن أولت إساءة وجازيتها بالصاع صاعا مكايلا

ولو أن لي قلبـــــا يعـــــي لتقطعت علائق دنياي فبتن زوائلا

ولو أن لي سمعا قـــــــد أسمع البلى للبيت منه المنذرات العواذلا

ولو أن لي عينـــــا تـــــرى بدالها لأجرت بنحري من دموعي جداولا

ولو أن لي نفســـــا علـــــي عزيزة لكسبتها تلك الكسوب الأماثلا

ولو أن لي إلفـــــا حميما لحــــاد بي عن الرق للدنيا إلى العتق مائلا

ولو أن لي رأيـــــا يعــــــاش بمثله تخيرت أحوالا به ومنازلا

ولو أن لي سعيا جميـــــــلا لمال بي إلى الكد حتى يترك الجسم ناحلا

ولو أن لي أدنى حيــــاء لهدنـــــــــي وداعي أترابا وخدنا مواصلا

وفقد تقاة مـــــــن حميـــــم وجيرة تولوا فما عاجوا علي الرواحلا

وفوالي أيام الحيـــــاة ولـــــــم أف وأصبحت عنهم لاهي القلب ذاهلا

إذا ذكروا ريع الفؤاد لذكرهم وهيج أشجانا له وبلابلا

ولو لم يكن بالوجه مني صلابة لوقرت شيبا بالعذارين ماثلا

لو أن لي حسا لأحسست للبلى دبيبا بجسم قد أحال الشمائلا

ولو أن لي حزما لأعددت جنة بها أتوقى الحادثات النوازلا

وما جنة المستجن يعدها باحصن أركان وأزكى نوافل

من البر إن البر للمرء معقل بعيد من الآفات فاق المعاقلا[551]

---

[551]-المصدر السابق، ص 278-280.

ومن قوله:

صافى الجليل من العباد رجالا	مدوا الهموم وقصروا الأمالا
عرفوا جلال مليكهم بحقائق	فتحملوا لجلاله الأثقالا
أنسوا بــــــــــه دون الورى وتقربوا	منه فأخمل ذكرهم إخمالا
متنعمين بذكره فبذكره	قطعوا الشهور وأفنوا الأحوالا
متعبدين له تعبد ذلة	متسربلين من التقى سربالا
صمت عن الفحشاء إن مرت بهم	يوما وإن قالوا فطاب مقالا
قد أودعوا علما خفيا فاجتنبوا	منه ثمارا تعجز الجهالا
وهم إذا ما الليل أقبل أقبلوا	متجللين من الظلام جلالا
يتسابقون إلى القيام قد امتطوا	ظهر الظلام وأنصبوا الأوصالا
تكسبوا الرؤوس على الصدور وهيجوا	شجوا يقرب منهم الآجالا
لله درهم عصابة عصمة	لو لا هم صب العذاب وبالا
تحيا القلوب بذكرهم من موتها	وإذا رؤوا ذكر الاله تعالا[552]

وقال أيضا:

بعيشك أجساد أضر بها الكد	وطول السرى في الليل والليل ممتد
إذا رجعوا فيه الحنين فرققوا	تجدد وجد منهم دونه الوجد
ينوحون إشفاقا ويشجون رقة	تشوق موعود إذا نجز الوعد
قياما على الأقدام طورا وتارة	يجرون أقداما نحا نضوها الجهد
ركوعا سجودا والأكف شوارع	خضوعا كما يخذي لسيده العبد
سراة إلى مأمولهم ما لحاجهم	سواه ولا من بعدها لهم بعد
إلى من إلى معروفة ينتهى المنى	ومن نحوه الآمال تسمو وتمتد
قد بذلو المجهود فيه إذ أيقنوا	بأن ليس يوما من ملاقاته بد
وصانوا وجوها لم تخلق صفاحها	قبائح أعمال عواقبها نكد

[552]–المصدر نفسه، ص 280–281.

أولائك حزب للجليل جباهم بما تقصر الآمال عنه وتنقد

أذاقهم روح الحياة وبردها وذوقهم كأس الوداد فما صدوا

رأى جدهم فيه فبلغهم به مراتب فضل ليس يبلغها حد

وعلمهم علما إليه حداهم فطاب الذي يحدى وطاب الذي يحدو

بنفسي هم من معشر أي معشر بهم تسلم الدنيا ويستبشر الخلد[553]

أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن هارون البجلي: ت 315هـ.

وألا ذهب الوفاء فلا وفاء وباد رجاله وبقى الغثاء

وأسلمني لزمان إلى رجال حياتهم وموتهم سواء

أخلاء إذا استغنت عنهم وأعداء إذا نزل البلاء[554]

أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن أبي قشاش: 322 هـ.

أكرم صديقك حتى ينقضي السفر إن الذي أنت موليه سينتشر

ولا تكن كلئام أظهروا ضجرا إن اللئام إذا ما سافروا ضجروا[555]

أبو الفضل مولى نجم: ت 324 هـ.

ألا يا عين ويحك فاسعديني بسكب بالدمع في ظلم الليالي

لعلك في القيامة أن تفوزي بخير الفوز في تلك العلالي[556]

أبو العرب بن تميم: ت 333 هـ.

قال:

إذا انقطع الصديق لغير عذر فزاد الله خلته انقطاعا

إلى يوم التنادي بلا رجوع فإن رام الرجوع فلا استطاعا

إذا ولى أخوك قفاه عنك فول قفاك عنه وزده باعا

553–المصدر السابق، ص 181-182.

554–المصدر نفسه، ص 187.

555–نفسه، ص 202.

556–نفسه، ص243.

وناد وراءه يا رب تمم ولا تجعل لفرقته اجتماعا[557]

ويقول أيضا:

أإن سجعت أيكية بتغرد بكيت بدمع واكف متردد

وهاجت بي الأحزان حين تجاوبت حمائم ورق فاستلبن تجلدي

حمام بكى من غير دمع جرى له فهاج البكا من حائل الدمع مسعدي

فما تتسني الأيام لم أنس حبتي ومجلسنا والشمل لم يتبدد

ولما رأيت الشيب عم مفرقي ففكرت فعل الخائف المتزهد

وأقصرت عن ذكر الصبى وهجرته وصدت فريدا لا أبالك أوجد

ضعفت حيلتي وقل اصطبارب وإلي الله أشتكى كل ما بي

وهن العظم بعد أن كان صلبا وفقدت الشباب وأي شباب

ولقد كنت والشباب لباسي أسحب الذيل عابثا في الثياب

وتراني أميس كالغصن حسنا وقذالي كمثل ريش الغراب

وترى الغانيات نحوي صورا يتراعين مرجعي وذهابي

ولقد كن يشتهين حديثي فادعهن خشية للعقاب[558]

ربيع القطان: ت 334 هـ.

قال:

أنت دائي ودوائي أنت عزي ومناي

أنت فخري، أنت ذخري أنت كنزي وغناي[559]

ويقول أيضا:

طور يصول وطورا يألف الكمد صب مشوق يعاني القرب والبعدا

---

[557]-نفسه، ص 310-311.

[558]-المالكي، رياض النفوس، ج2، ص311-312.

[559]-المصدر نفسه، ص327.

ويحي لما حل بالمشتاق من كمد   يبكي الرسوم فيا ويحي له كمدا
يا حسنة وسواد الليل منسدل   فرد يلوذ بمولاه وقد سهدا
يتلو الكتاب بترجيح الخطاب متى   مر الشفاء على هذا الهوى ركدا
لو إذا تراه إذا ما الوجد خامره   أو قد تراه إذا ما حن أو سجدا
خلت الشموس دياجي عند زهرته   أوخلت كل الضيا من نوره صعدا
يجني الثمار لدى الروضات عرفهم   يبري السقام ويدعو ماجدا صمدا
حتى إذا حل في صفو الصفاء بدا   باد من الحق يدنيه إذا شردا
للعلم أوقفه وقفا بلا جزع   ذاق الأمان وللإجلال قد رغدا
فالأنس ينطقه والقدر يخجله   والبر يبهته والفهم قد حمدا
لما صفا في الوفا غابت حساسية   وغاب عنه الذي لولاه ما شهدا
فالقرب معدنه والغيب مشهده   والصحو منهجه للحق منفردا
صب تراه إذا ما حل ذو لدد   يبدي البيان بيانا شافيا مددا
نطاق بالحق تياه بلا صلف   ثبات نور يرى في لحظة رشدا
يكفيك وصفهم يا لائمي ديما   لا صبر لا صبر عن حبي لهم أبدا
كيف السلو وكيف الصبر دونهم   أصحوا كهوفا وأوتادا لنا عمدا
مني عليهم سلام الله متصلا   ما ناح طير السما أو حن أو غردا[560]

محمود القطان:

لا تطمئن فإن الناس قد حالوا   واقبض لسانك عما قلت أو قالوا
واحذر زمانك إذ أخرت عن زمن   بادي النصيحة إما ملت أو مالوا
وابك الدماء على ما فات من زمن   فيه الوفاء وفيه الدين والمال

560–المصدر السابق، ص335-336.

لله أنت لقد غودرت في زمن أعلى الفضائح آداب وأفضال

واقنع بجلسك إن تقبل نصيحتنا أو تصمتن فما يعنيك تسآل[561]

أبو علي النحوي المكفوف: ت 342 هـ.

قال:

مراض من الأشواق تحيا قلوبهم نذكرك بل كادت إليك تطير

يضيء ظلام الليل نور قلوبهم فهم لليالي المظلمات بدور

لهم طرق كانت إلى الله سهلة وهن على من لا يجب وعور

يناجيك بالشكوى دخيل ضميرهم وأنت بشكواهم لديك خبير

هم القوم لا يليهم عن مليكهم أعاليل دنيا للفناء تصير[562]

وقال أيضا:

من كان يبغي الذل في نفسه فليطلع الناس على فقره

ما للفتى إن عضه دهره معول أحسن من صبره[563]

أبو بكر بن سعدون: ت 344 هـ

قال.

الخير أجمع في السكوت وفي ملازمة البيوت

فإذا تهيأ ذا وذا فاقنع –إذن بأقل قوت[564]

وأنشد أيضا:

إذا القوت تأتي لك والصحة والأمن

وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن[565]

وأنشد أيضا:

561–المصدر نفسه، ص 349.

562–المصدر نفسه، ص 410.

563–المصدر نفسه، ص 410.

564–المصدر نفسه، ص417.

565–نفسه، ص 418.

سجن اللسان هو السلامة للفتى **من كل نازلة لها استئصال**

إن اللسان إذا حــللت عقالــه **ألقاك في شنعاء ليس تقال**[566]

أبو الخير العبد: ت 348 هــ.

ما الدهر إلا ليلة من بعدها يوم جديد

وكلاهما بك فاعل ما لا تريد وما تريد[567]

قال أبو القاسم الفزاري:

تلفع في مفارقه القيتر **وقوس عضنه اللدن النضير**

وليس يؤدب الإنسان شيء **كتأديب الحوادث إذا تدور**

وإن ببابك اللهم عبدا **من الخذلان أصبح يستجبر**

دعاك وقد رجاك فصنه مما **يحاذر ذو المراقبة الحذور**

ولا تسلمه للدنيا فتهوي **به منها بطون أو ظهور**

سلامتها، وإن دامت سقام **ونعمتها، وإن راقت غرور**

ومرعاها لراعيها وخيم **وكثرتها لمكثرها يسير**

ستر المرء يوما ثم يغدو **فيسلب ما أتاح له السرور**

وإن واتتك إقبالا ونعمى **فعقباها الفجائع والقبور**

وكل الخير فيها مستعار **وسوف يرد ذاك المستعير**

وإن عزيزها عما قليل **ذليل، والغنى بها فقير**

وكل مؤمل أمل طويل وعمر لو تأمله قصير

وبعد الموت أهوال عظام يشيب لبعضها الطفل الصغير

وتذهل كل مرضعة لكرب ليوم فيه شر مستطير

وبعد الموت للأرواح إما نعيم في الكرامة أو سعير[568]

---

[566]–نفسه، ص 418.

[567]–نفسه، ص439.

[568]–إبراهيم الدسوقي جاد الرب، شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 267–268، والقصيدة طويلة تزيد على 68 بيت.

سحنون:

قال: الوافر

لمنزلة الفقيه من السفيه كمنزلة السفيه من الفقيه

فهذا زاهد في رأي هذا وهذا فيه أزهد منه فيه[569]

عبد الله بن غانم: ت 196 هـ.

قال (الطويل):

إذا انقرضت عني من العيش مدتي فإن غناء الباكيات قليل

سيعرض عن ذكري وتنسي مودتي ويحدث بعدي للخليل خليل[570]

وقال أيضا (الوافر):

فهل من خالد إذا ما هلكنا وهل بالموت يا للناس عار[571]

يقول أبو المعمور بن محمد حمزة الربيعي (ت 265 هـ): (البسيط)

الموت لا بد آت فاستعد له إن اللبيب بذكر الموت مشغول

وكيف يلهو بعيش أو يلذ به من التراب على عينه محمول[572]

569–القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، دار مكتبة الحياة، ليبيا، ج1، ص620.

570–القاضي عياض، تراجم أغلبية، ص 19.

571–المصدر نفسه، ص24.

572–المصدر نفسه، ص 329.